المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك خالد
عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي
كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في قسم اللغة العربية تخصص البلاغة والنقد

إعداد الباحثة:
تنوير أحمد هندي

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد محمد أبو نبوت
أستاذ البلاغة والنقد بكلية الآداب
جامعة الملك عبد العزيز

العام الجامعي
١٤٣٠-١٤٣١ هـ
٢٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة الملك خالد
عمادة الدراسات العليا
كلية التربية الأقسام الأدبية بأبها
قسم :اللغة العربية
دكتوراه

♦ بسم الله الرحمن الرحيم ♦

(عنوان الرسالة)

أسلوب الإيناس في القران الكريم :دراسة بلاغيه

أسم الطالبة: تنوير بنت احمد علي هندي

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٩/٦/١٤٣٢هـ وتمت إجازتها

(أعضاء لجنة الحكم)

الاسم: د /يحي محمد عطيف — مشرفاً ومقرراً. التوقيع.....

الاسم: أ/د عبدالله عبد الغني سرحان — عضواً داخليا التوقيع.....

الاسم: أ د /بسيوني عبدالفتاح فيود — عضوا خارجيا التوقيع.....

١٤٣٢هـ/٢٠١١م

حليمة عسيري

إهداء

إلى من لم أنل خيرا في الدنيا إلا بسببهما .. والديَّ الحبيبين (أحمد علي هندي وإلهام داود صيقل).

إلى التي كم رنَّت إليَّ بعينيها البريئتين تريد مني ترك العمل في الرسالة واللعب معها وتكريس كل الوقت لها .. ابنتي إلهام.

شكر وعرفان

اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، أشكرك ولا أكفرك، وأخلع وأترك من يكفرك. اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، ولك الحمد كما تحب وترضى، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد. اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

ثم إني- بعد حمد الله تعالى- أوجه تقديري وعرفاني لوالديّ اللذين لم يدخرا جهداً في سبيل إيصالي إلى ما أنا فيه الآن، فلهما ذلي، ولهما دعواتي.

كما أتوجه بالشكر والعرفان والتقدير إلى أستاذي الفاضل: أ.د. محمد أحمد أبو نبوت المشرف على الرسالة، الذي شرُفت بأن أكون إحدى تلميذاته، فهو أستاذ فاضل، وعالم جليل، يعطي فيجزل ويوجه ويرشد. فحفظه الله ووفقه لكل خير ورفع منزلته.

وأخص بشكري وعرفاني زوجي العزيز الذي تحمل الكثير وصبر وكان خير معين لي.

والله إن الكلمات لتعجز عن الوفاء بحقه لكنه لكرم نفسه يرضى بالقليل.

وأوجه شكري وتقديري إلى لجنة المناقشة الموقرة: سعادة الدكتور يحي عطيف , وسعادة الدكتور بسيوني فيود , أما سعادة الدكتور عبدالله سرحان فلساني يعجز عن قول كلمات شكر له لرعايته الأبوية الحانية لي منذ العام الماضي حين رشح ليكون عضوا في لجنة المناقشة؛ فقد عاش معي الصعوبات التي واجهتني يوما بعد يوم, ولم ألجأ إليه مرة وردني خائبة أو كسيرة وأملي أن يتقبل مني شكري وتقديري وامتناني. سائلة الله العظيم القدير أن يجزل المثوبة لجميع أعضاء اللجنة وينفعني بعلمهم ويرفع قدرهم ويعلي شأنهم, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وأخيراً أقدم الشكر لكل من مدّ لي يد العون معنوياً أو حسياً. وأسأل الله تعالى أن يجزيهم عني خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله أجمعين وأمهات المؤمنين وصحبه الطيبين الطاهرين. والحمد لله رب العالمين.

ملخص الرسالة باللغة العربية

الجامعة: جامعة الملك خالد

الكلية المانحة: كلية التربية –الأقسام الأدبية بابها

القسم العلمي: اللغة العربية

التخصص:بلاغة ونقد

الدرجة العلمية : دكتوراه

اسم الباحثة : تنوير بنت أحمد علي هندي

اسم المشرف : محمد محمد أبو نبوت

تاريخ المناقشة :١٤٣٢/٦/٢٩ هـ

الحمد لله حمد الشاكرين ، المستأنسين بالذكر الكريم. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن للقرآن الكريم أساليب وطرائق اطردت فيه، وهي في حاجة إلى إنعام نظر وإعمال فكر وتتبع دقيق وتأمل بعيد، حتى يتمكن الباحث في أسرار هذا الكتاب المعجز من الوقوف عليها، وتجلية بعض أسرارها.

ومن الأساليب المطردة في القرآن الكريم والتي لم تنل حظها عند العلماء قديماً ولا الباحثين حديثاً (أسلوب الإيناس). وقد منّ الله – تبارك وتعالى– عليّ باختيار هذا الموضوع ليكون رسالة تقدم ضمن متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية تخصص البلاغة والنقد، وجاء عنوانها:

(أسلوب الإيناس في القرآن الكريم.. دراسة بلاغية).

أسباب اختيار هذا الموضوع ترجع إلى:

١- إن هذا الموضوع يعد بكراً لم تمتد إليه أيدي البلاغيين بالدرس والتمحيص.

٢- إن القرآن الكريم هو النموذج الأعلى في البلاغة والبيان، وله أسلوبه الخاص الذي لا يبلغه فصيح ولا يرقى إليه بليغ،فليس هناك أولى من أساليبه بالدرس والتحليل.

أهمية دراسة هذا الموضوع ترجع إلى:

أن أسلوب الإيناس في القرآن الكريم له طابعه الخاص.

وتأتي هذه الدراسة لتحاول تسليط ضوء ولو يسير على تلك الألوان من الأساليب البلاغية التي تتآزر فيما بينها مشكلة أسلوب القرآن المميز في الإيناس، ومن ثم التوصل إلى تصوير كلي لأسلوب الإيناس في القرآن الكريم.

المنهج المتبع في هذه الدراسة:

تتبع هذه الدراسة منهج: الاستقراء الناقص ثم التحليل الكلي. فقد تم استقصاء الآيات المتعلقة بموضوع الرسالة ثم انتخاب ما يقوم بإبراز الأسلوب ويحقق الهدف من الدراسة، وتحليله كلياً يُراعى فيه العديد من الجوانب، كعلاقة الأسلوب بالسياق ومراعاته لمقام المقال والحال وكيف صيغت فيه العبارات وانسجمت معه الكلمات وأوحت فيه الحروف، مستعينة بما ورد في كتب البلاغة والتفسير والمعاجم والسير.

خطة البحث:

أما خطة البحث فتشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب ثم الخاتمة والفهارس، وهي على النحو التالي:

المقدمة.

التمهيد.

الباب الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق قصص السابقين:

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لآدم عليه السلام بعد العصيان والاعتراف بالذنب.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام وبنيه.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليونس عليه السلام.

الفصل الخامس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لموسى عليه السلام.

الفصل السادس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لمريم عليها السلام عند حملها وولادتها.

الباب الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال المخاطبين:

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق حياة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق الغزوات.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق التشريع.

الباب الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال اليوم الآخر:

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق ساعة الاحتضار.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الحشر.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق استلام الكتاب والعرض على الميزان.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الجنة ونعيمها.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس المحتويات.

أهم النتائج:

١- إن أسلوب الإيناس في القرآن الكريم يختلف من موضع إلى آخر، وهذا مراعاة للأمرين التاليين:

أ- مكانة المخاطب.

ب- درجة الوحشة.

٢- إن بعض القصص التي يتكرر ورودها في القرآن الكريم تختلف فيها درجة الإيناس من سورة إلى أخرى، بل قد ترد في بعض السور ولا يرد فيها أي أسلوب يكون غرضه الإيناس.

٣- إنه في القصص ذاتها يختلف التعبير من موضع إلى آخر، وذلك تناسباً مع سياق الآيات وغرضها.

٤-يُنادى الأنبياء بأسمائهم كـ (يا إبراهيم) و(يا موسى)؛ لأنه الأدخل في إيناسهم. وقد عُوملت (مريم) معاملة الأنبياء في ندائها باسمها إيناسا لها.

٥- غالباً ما تختم الآيات التي يرد فيها أسلوب أو أكثر من الأساليب التي غرضها الإيناس، بأسماء الله الحسنى الدالة على مضمون الإيناس.

٦- تآزر القراءات مع الأساليب البلاغية المختلفة في إدخال مزيد من الأنس على المخاطب.

٧- تصوير حال المستوحشين وخاصة ما يكون في خفايا نفوسهم مما لا يعلمه إلا الله- تبارك وتعالى- في عبارات موجزة دقيقة.

٨- الإيناس يكون بأمور معنوية كالمغفرة والتوبة، وبأمور مادية كتصوير الجنة ونعيمها.

٩- يأتي الحذف حيث يكون هو الأنسب في سياق الإيناس.

١٠- كذلك يكثر أسلوب الأمر في أحوال اليوم الآخر، والمراد منه الإباحة والبشارة.

١١- معظم نعيم الجنة جاء منكراً وهذا للاختلاف في النوع والكم.

التوصيات:

١- العناية بأساليب القرآن الكريم المتنوعة، فهي لم تنل حظها من الدرس البلاغي. ولا أجدر من أساليب القرآن الكريم للوقوف أمامها وتجليتها والتعرف على بدائعها البلاغية وأسرارها الخفية.

٢- المقارنة بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من الأساليب البشرية، كأساليب أقوال النبي ﷺ وأساليب الأدباء شعراً ونثراً قديماً وحديثاً؛ للخروج بالخصائص التي يتميز بها أسلوب القرآن الكريم عن غيره.

Thesis Summary:

University: King Khalid University
College Donor: College of Education - Departments literary door
Department: Arabic
Specialization: Rhetoric and Criticism
Degree: Doctorate
The name of the researcher: Tanweer Ahmed Ali Al Hndi
Supervisor Name:DR. Mohamed Mohamed Abu Nbot
Discussion date: ٢٠١١/٦/١

Thanks to Allah, peace and prayers on our prophet Mohammed, his household, true companions and to those who followed him in performance of good deeds, to the doomsday.

The Holy Quran has several steady styles and methods, which are in need for considering, deep insight, thorough and accurate tracing and further thinking, to enable the researcher who looks into the depth of this miracle book and consequently to identify and outline such secrets. One of the steady styles in the Holy Quran, which was not approached by the old scholars nor by modern researchers, (namely, the intimacy style). I was destined by the Allah, AL Mighty, to select this topic to be a thesis within the requirements of obtaining the Doctorate Degree in Arabic, majoring in Rhetoric and Criticism under the title (Intimacy style in the Holy Quran…. A rhetorical study).

The reasons behind selecting this style are as under:

1. This subject has not been tackled by rhetoricians.
2. The Holy Quran is the best model on rhetoric, i.e.

The importance of study is due to the following:
The intimacy style in the Holy Quran has special nature as it related to the feelings of human being.

This study sheds light, even, a little focus, on rhetoric, styles that help demonstrate intimacy in the Holy Quran, and then it concentrates on the demonstration of the intimacy style in the Holy Quran.

The applied course in this study:

This study apples the course of inadequate induction then entire analysis. The verses that related to the subject of the theses have been traced, then selected the main verses that focuses on the subject matter of this study to be entirely analyzed, in terms of the relationship between style and context and how idioms have been formulated and the how the words and letters were adapted in this style, where I have quoted some rhetoric, interpretation and biography reference books.

Research plan:

The research plan includes introduction, preface, three sections, conclusion and indexes as under:

Introduction:

Preface:

First section: intimacy style in the Holy Quran in the context of stories of the old generations.

Chapter one: the intimacy style in Holy Quran for Adam # after the disobedience and sin confession.

Chapter two: intimacy style in Holy Quran for Abraham, Peace be upon him.

Chapter three: intimacy style in Holy Quran for Yakub#, Peace be upon him, and his sons.

Chapter four: intimacy style in Holy Quran for Jonah, Peace be upon him.

Chapter five: intimacy style in Holy Quran for Moses, Peace be upon him.

Chapter six: intimacy style in Holy Quran for Mary, Peace be upon him, when she got pregnant and when she delivered.,

Section two: intimacy style in Holy Quran, in the context of the addressees.

Chapter one: intimacy style in Holy Quran in the context of harming the prophet Mohd. Peace be upon him.

Chapter two: intimacy style in Holy Quran in the context of the personal life of prophet Mohd. Peace be upon him.

Chapter three: intimacy style in Holy Quran in the context of raids

Chapter four: intimacy style in Holy Quran in the context of legislation.

Section three: intimacy style in Holy Quran in the context of the doomsday.

Chapter one: intimacy style in Holy Quran for believers, in terms of death event.

Chapter two: intimacy style in Holy Quran for believers, in terms of day of resurrection.

Chapter three: intimacy style in Holy Quran for believers, in terms of book reception and reckoning.

Chapter four: intimacy style in Holy Quran for believers, in terms of paradise

Conclusion: It contains results and Recommendations.

Indexes:

Holy Quran verses:

Index of references and resources

Table of contents

Results:

1. intimacy style in Holy Quran is different according to the context to observe the following:

a- The rank of the addressee.

b- Degree of hardship.

2. Some stories that have been repeated in the Holy Quran are different in terms of intimacy degree, from one verse to another.
3. Intimacy of stories is different according to the context of each verse and pursuant to its purpose.
4. Prophets are called by their names, namely, Abraham, Moses, for applying intimacy on them, where Mary has been treated as prophet's treatment and called by her name.
5. Mostly, the verses, especially that contain several styles and whose purposes are intimacy, concluded by Allah good names that assure the content of intimacy.
6. The emphasis of various rhetoric styles that demonstrate more intimacy on the addresses.
7. depiction of the situation of scared people in precise and concise terms.
8. Intimacy is demonstrating issued related to forgiveness, repentance and depiction of paradise.
9. Deletion is applied as it is proper in the context of intimacy.
10. imperative style is common in the situation of the doomsday and it is meant to demonstrate permission and good news.

فهرس المحتويات

الإهداء..... أ

شكر وعرفان..... ب

ملخص الرسالة باللغة العربية..... د

ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية..... ح

فهرس المحتويات..... ل

المقدمة.....١

التمهيد.....٦

الباب الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق قصص السابقين.....١٥: ٨٣

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لآدم عليه السلام

بعد العصيان والاعتراف بالذنب.....١٧

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.....٢٤

الفصل الثالث:أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام وبنيه.....٣٦

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليونس عليه السلام.....٤٨

الفصل الخامس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لموسى عليه السلام.....٥٣

الفصل السادس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لمريم عليها السلام عند حملها

وولادتها.....٧٥

الباب الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال المخاطبين ٨٤ - ١٩٧

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق إيذاء النبي ﷺ.....٨٦

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق حياة النبي ﷺ الشخصية....١١٧

الفصل الثالث:أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق الغزوات.....١٢٨

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق التشريع.....١٨١

الباب الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال اليوم الآخر ١٩٨- ٢٣٨

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق ساعة الاحتضار.....٢٠٠

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الحشر.....٢٠٦

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق

استلام الكتاب والعرض على الميزان.....٢١١

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الجنة ونعيمها.....٢١٨

الخاتمة.....٢٣٩

فهرس الآيات القرآنية.....٢٤٣

المصادروالمراجع.....٢٥٢

المقدمـــة

الحمد لله حمد الشاكرين، المستأنسين بالذكر الكريم. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعـــالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن للقرآن الكريم أساليب وطرائق اطردت فيه، وهي في حاجة إلى إنعام نظر، وإعمال فكر، وتتبـــع دقيق، وتأمل بعيد؛ حتى يتمكن الباحث في أسرار هذا الكتاب المعجز من الوقوف عليها، وتجلية بعـــض أسرارها.

ومن الأساليب المطردة في القرآن الكريم والتي لم تنل حظها عند العلماء قديماً و البـــاحثين حـــديثاً (أسلوب الإيناس). فمثلاً نجد أن من عادة القرآن إتباع النذارة بالبشارة، وهذا ما يبدو جلياً في الآيـــات التي يأتي فيها التخويف من النار ثم نجد أنها تتبع بآيات تبشر بالجنة وترغب فيها؛ لأن المخاطب تـــدخل إلى نفسه الوحشة مما يقرع سمعه من أخبار النار وأليم العذاب فيها. فيأتي ذكر الجنة ونعيمها مؤنساً لـــه ومدخلاً على نفسه الطمأنينة والفرح والابتهاج. وأحوال البشر في علاقتهم بالله عز وجل وفي علاقـــة بعضهم ببعض تشوبها أحياناً شوائب عديدة تؤدي إلى الاستيحاش. ففي علاقة العبد بربه نجد العصـــيان ومخالفة الأوامر الإلهية وهو ما يتسبب في إدخال وحشة عظيمة على النفس. وفي علاقة الإنسان بغـــيره من البشر يصيبه أحياناً ما يكدر روحه ويعكر صفو حياته؛ كظلم يصيبه ، أو خوف يطغى عليـــه، أو أذى يتعرض له.

ولكل هذا نماذج في القرآن الكريم. وللقرآن أسلوبه الخاص في علاج تلك الوحشة ومـــن ثم إينـــاس المستوحشين.

وقد منّ الله – تبارك وتعالى– عليّ باختيار هذا الموضوع ليكون رسالة تقـــدم ضـــمن متطلبـــات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية تخصص البلاغة والنقد، وجاء عنوانها:

(أسلوب الإيناس في القرآن الكريم.. دراسة بلاغية).

أسباب اختيار هذا الموضوع ترجع إلى:

١- أن هذا الموضوع يُعد بكراً لم تمتد إليه أيدي البلاغيين بالدرس والتمحيص.

٢- أن القرآن الكريم هو النموذج الأعلى في البلاغة والبيان ، وله أسلوبه الخاص الذي لا يبلغه فصيح ولا يرقى إليه بليغ ، فهو الأسلوب المعجز الجدير بالاحتذاء والحقيق بالاقتداء, فليس هناك أولى من أساليبه بالدرس والتحليل، فمهما وقف الباحث أمام أساليب البشر يحللها ويدرسها فهو لا يزال يقف أمام نماذج بشرية تعلو وتهبط وتجود وتسوء ، وتبلغ المراد حيناً وتخطئه أحياناً.

أهمية دراسة هذا الموضوع ترجع إلى:

أن أسلوب الإيناس في القرآن الكريم له طابعه الخاص؛ لتعلقه بالمشاعر التي تجيش داخل كل نفس بشرية ، وهذا الأسلوب لا يتوجه إلا إلى المؤمنين من البشر، رحمة من ربهم بهم؛ لهذا نجد أنه تتجلى فيه عناية الله – عز وجل – بعباده من خلال استعمال ألوان من الأساليب البلاغية التي توصل إلى الهدف المراد وهو إشاعة الأنس وبث الطمأنينة والفرح والابتهاج ، وهذا لتستعيد النفس المؤمنة توازنها وتستأنف مسيرة حياتها محققة مراد الله تعالى.

وتأتي هذه الدراسة لتحاول تسليط ضوء ولو يسير على تلك الألوان من الأساليب البلاغية التي تتآزر فيما بينها مشكلة أسلوب القرآن المميز في الإيناس ، ومن ثم التوصل إلى تصور كلي لأسلوب الإيناس في القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم أقف من خلال البحث والمراسلة على دراسة بلاغية لهذا الموضوع.

صعوبات البحث:

١- إن مواطن الإيناس في القرآن الكريم من الكثرة بحيث يصعب حصرها.

٢- صعوبة التعرف إلى مراد الله - سبحانه وتعالى - في النص القرآني. وهذه العقبة تواجه تقريباً كل باحث يغوص في بحر القرآن الكريم ، حيث إنه يتعامل مع التركيب المعجز والمعنى المدهش. وقد نقل الزركشي عن سهل بن عبدالله قوله: (لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ، لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه)[1].

المنهج المتبع في هذه الدراسة:

تتبع هذه الدراسة منهج: الاستقراء الناقص ، ثم التحليل الكلي. فقد تم استقصاء الآيات المتعلقة بموضوع الرسالة ثم انتخاب ما يقوم بإبراز الأسلوب ويحقق الهدف من الدراسة، وتحليله تحليلاً كليًّا يُراعى فيه العديد من الجوانب ، كعلاقة الأسلوب بالسياق ومراعاته لمقام المقال والحال وكيف صيغت فيه العبارات وانسجمت معه الكلمات وأوحت فيه الحروف. مستعينة بما ورد في كتب البلاغة والتفسير والمعاجم والسير.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٩ ، للإمام/ بدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

خطة البحث:

أما خطة البحث فتشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب ثم الخاتمة والفهارس ، وهي على النحو التالي:

المقدمة.

التمهيد.

الباب الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق قصص السابقين:

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لآدم عليه السلام بعد العصيان والاعتراف بالذنب.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام وبنيه.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليونس عليه السلام.

الفصل الخامس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لموسى عليه السلام.

الفصل السادس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لمريم عليها السلام عند حملها وولادتها.

الباب الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال المخاطبين:

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق حياة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق الغزوات.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق التشريع.

الباب الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال اليوم الآخر:

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق ساعة الاحتضار.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الحشر.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق استلام الكتاب والعرض على الميزان.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الجنة ونعيمها.

الخـــاتمـــة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

الـــفـــهـــارس:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس المحتويات.

التمهيد

إن هذا البحث – كما ذُكر في المقدمة – هو بحث في أسلوب الإيناس في القرآن الكريم (دراسة بلاغية)؛ لذا فإنه حري قبل خوض عباب هذا الموضوع التطرق إلى تعريف المصطلحين البارزين في عنوان الرسالة: (**الأسلوب**) و(**الإيناس**) ، وكذا التعرف إلى **أسلوب القرآن وسماته** ، إضافة إلى ذكر شيء من **سمات أسلوب الإيناس في القرآن الكريم**.

أولاً: الأسلوب:

أ- الأسلوب في اللغة: يقال لكل طريق ممتد ، وللوجه وللمذهب[١]، و(سلكت أسلوب فلان: طريقته وكلامه)[٢]، و(الأساليب: الفنون المختلفة)[٣].

أما الأسلوب في الاصطلاح فقد عرفه عبد القاهر بأنه: (الضرب من النظم والطريقة فيه)[٤].

وقد استنبط الأستاذ أحمد الشايب له تعريفاً فقال هو: (طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية)[٥]. أما الدكتور لطفي عبد البديع

---

(١) ينظر: لسان العرب: (سلب) ، للإمام العلامة/ أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

(٢) أساس البلاغة: (سلب) ، للإمام العلامة/ جارالله أبي القاسم محمود الزمخشري، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

(٣) المفردات في غريب القرآن: (سلب) ، لأبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط. محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٤) دلائل الإعجاز: ٤٦٩ ، للشيخ الإمام/ أبي جعفر عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٥) الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: ٤٤ ، للأستاذ/ أحمد الشايب، ط٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

فيقول إنه: (جملة الصيغ اللغوية التي تعمل عملها في إثراء القول وتكثيف الخطاب وما يستتبع ذلك من بسط لذات المتكلم وكشف عن سرائره وبيان لتأثيره في السامع)[١].

ب - أسلوب القرآن:

يمكن القول: إن أسلوب القرآن هو: (الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه)[٢].

فبالرغم من أن القرآن نزل بلغة العرب وجرى على قواعدهم نفسها في تأليف كلامه، إلا أنه أعجزهم بأسلوبه الفذ ومذهبه الكلامي المعجز[٣].

وعلى هذا فلا بد من التطرق إلى ذكر شيء من سمات أسلوب القرآن الفريدة.

جـ- سمات أسلوب القرآن الكريم:

جاء القرآن معجزاً في كل النواحي، ولا غرابة.. فهو كلام الله العظيم الجليل ومعجزته الخالدة. وإذا يممنا وجهنا شطر ما يعنينا هنا فإنا نجد أن لأسلوبه سمات خاصة تميز بها أعجزت عمالقة اللغة وأرباب الفصاحة ، منها:

١- إن النص القرآني يتسم بالقوة والجلال ، وهو يكتسبهما من الانتقاء الفريد للألفاظ ، ومن التوظيف المميز لألوان التوكيد والتكرير[٤]... الخ ، وهو ما يجعل النص مؤدياً للمعنى وافياً به حق الوفاء.

---

(١) التركيب اللغوي للأدب: بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا: ٥٤، للدكتور/ لطفي عبدالبديع، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٢) التعبير الفني في القرآن الكريم: ١٨٣ ، لـ د/ بكري شيخ أمين، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

(٣) ينظر: السابق: ١٨٣.

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن: ٢٤٤ ، لأحمد أحمد بدوي، دار مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

كما يتسم بثراء معانيه ، فهو يصطفي من الألفاظ أجمعها وأغناها بالدلالة ، ويختار من أدوات التعبير ما يعطي من المعنى ما هو متجدد متدفق[١].

٢- دقة النظم[٢]: فكل كلمة متسقة مع ما قبلها وما بعدها اتساقاً تاماً، فهي في موقعها ذاك تؤدي المعنى المراد ، وإن جئت لتزحزحها عن مكانها صرت إلى الخلل والزلل.

٣- اختلاف الأغراض: فتجتمع في الموضع الواحد أغراض مختلفة ، ويُمزج بينها مزجاً فنياً لا قلق فيه ولا اضطراب[٣].

٤- إقناع العقل وإمتاع العاطفة: إن في القرآن حظ النفس وعواطفها ومشاعرها، وفيه مطلب العقل وحججه وبراهينه. فتراهما متجاورين متآلفين ، فلا يطغى أحدهما على الآخر، وإن برز أحدهما على الآخر في موضع فإنما هو سياسة بيانية ومقتضى مقام[٤].

٥- التصوير والتشخيص: لقد جاءت المعاني في القرآن الكريم مصورة مشخصة[٥]، فالألفاظ والجمل والتراكيب والأساليب البيانية المختلفة من تشبيه واستعارة... الخ كلها تضافرت لخدمة هذا الغرض[٦]، وهذا لأنه لم يُرد مخاطبة العقل وحده ، بل أُريد إشراك كل قوى الإدراك من السمع والبصر والشم واللمس والذوق وكذلك العواطف والمشاعر والأحاسيس. وحين يخاطب القرآن الإنسان بهذا الأسلوب يصبح بشعوره وحواسه كلها آلة إدراك وتذوق وتأمل[٧].

---

(١) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٣٦٧ ، لـ د / عبد العظيم المطعني ، ط١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: السابق: ٣٨٣.

(٣) ينظر: السابق: ٣٩٧.

(٤) ينظر: السابق: ٤٢٠.

(٥) ينظر: السابق: ٤٥٨.

(٦) ينظر: من بلاغة القرآن: ٢٤٤.

(٧) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٤٥٨، ٤٥٩.

إن (التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية)[١].

٦- الانسجام الصوتي: كما عرفنا سابقاً أن ألفاظ القرآن متخيرة تخيراً دقيقاً ، وقد أنتج هذا التخير ضمن ما أنتج انسجاماً صوتياً رفيعاً سواء كان ذلك على المستوى العام للآيات أو على مستوى نسيج اللفظة المفردة.

ومما تبرز فيه ظاهرة الانسجام الصوتي الفواصل ، فإنها تتنوع في السور المختلفة ، بل وتتنوع في السورة الواحدة حسب مقتضيات المواضيع والأغراض[٢].

ثانياً: الإيناس القرآني بين الضابط والسمات:

أ- الإيناس لغة: إن مادة (أن س)[٣] تحمل معنى: (ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش).

فمما يبرز فيه معنى الظهور قولهم: الإنس؛ لظهورهم ، على خلاف الجن المستترون. وكذلك يقال إنسي لكل شيء يلي الإنسان؛ لظهوره له ، ووحشي لما يلي الجانب الآخر؛ لعدم ظهوره له ، فيقال إنسي الدابة للجانب الذي يلي الراكب وإنسي القوس للجانب الذي يُقبل على الرامي... إلخ.

---

(١) التصوير الفني في القرآن : ٣٦ ، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) ينظر: السابق: ٨٧، ١٠٦.

[٣] اللسان (أ ن س)

وآنس شيئاً: أبصره ورآه. وإنسان العين: السواد الذي في وسط العين؛ لأنه يكون به البصر. والاستئناس: النظر.

وآنس أمراً: علمه ووجده. وآنس صوتاً: سمعه.

ومما يبرز فيه مخالفة طريقة التوحش- وهو يحمل أيضاً معنى الظهور؛ لأن ما لا يظهر للإنسان يجعله يظل مستوحشاً منه - أن الأُنس خلاف الوحشة وخلاف النفور، من ذلك تسميتهم للنار بالأنيسة والمأنوسة؛ لأن الإنسان إذا آنسها ليلاً أنِس بها وسكن إليها وزالت عنه الوحشة وإن كان بالأرض القفر. ويقال: فلان ابن إنس فلان أي صفيه وأنيسه وخاصته فبه تزول وحشة الوحدة.

والأُنس: الطمأنينة؛ لهذا سُمي السلاح (المؤنسات) ، فهو يؤمن صاحبه ويدخل الطمأنينة على قلبه؛ لأن يقاتل به ويحميه من ضربات الأعداء.

وأنست بفلان فرحت به ، ومن هنا سميت الجارية آنسة إذا كانت طيبة النفس تحب قربك وحديثك. وتسمي العرب القدماء يوم الخميس مؤنساً لأنهم كانوا يميلون فيه إلى الملاذ[1].

ومما سبق يمكن القول: إن لمادة (أ ن س) من حيث المعنى اللغوي شقين: شق مادي وشق معنوي.

فالمادي يتعلق بالظهور وبما يساعد على ذلك؛ كتسميتهم لسواد العين (إنسان العين). والمعنوي ما هو ضد الوحشة والنفور ومما يدخل الطمأنينة والفرح على النفس.

وقد جاءت هذه المادة في القرآن الكريم بمعناها المادي ، كما في قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص:٢٩] أي: رأى من جانب الطور ناراً ، وكذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ [طه:

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبدالسلام هارون، دار الجيل، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ، وينظر: تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح) ، لأبي نصر إسماعيل الجوهري، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، وينظر: المفردات ، وينظر: أساس البلاغة، وينظر: اللسان : مادة (أنس).

١٠]. وهذا الاستعمال وإن كان يقصد به المعنى المادي المحسوس إلا إنه لا يخلو من أن سبب اختيار هذا الفعل هنا دون غيره من الأفعال الدالة على الرؤية والإبصار كـ (رأى وأبصر)؛ هي الحال التي كان عليها موسى وأهله وهم تائهون في الصحراء من الوحشة والخوف ، فكانت رؤيتهم للنار مما أزال عنهم الوحشة وأدخل عليهم الأنس.

وكذلك الشأن في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦] أي: أبصرتم وعلمتم. والسبب في اختيار هذا الفعل هنا دون غيره لأنه يُراد به الرؤية التي تُدخل الطمأنينة على قلب كافل اليتيم والتي يعلم معها أن اليتيم أصبح قادراً على تولي شؤونه المالية.

والأمر ذاته في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]، فإنه يراد به أن يجد من أهل البيت أنساً به، أي: عدم نفور من دخوله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب:٥٣] أي: مستمع بعضكم لبعض. وإنما استعمل هنا لما فيه من الدلالة على اطمئنان المتحدثين في جلوسهم ، والمتحدث المطمئن في جلوسه تطول به الحال وهو كذلك ، وهذا ما نُهي عنه الصحابة لأنه في طول مكثهم في بيت النبي ﷺ إيذاء له.

هذا ما ورد في القرآن الكريم من اشتقاقات مادة (أن س) ، إضافة إلى كلمة (إنسان) و(إنسي) والجمع (إنس) و(أناس) و(أناسي).

ويلاحظ في الآيات المذكورة هنا أنه استعمل المشتقات من مادة (أن س) للمعنى المادي ، وهذا ما يفهم من الآيات للوهلة الأولى ، لكنه بعد التأمل يتبين أنه إضافة إلى هذا المعنى المادي أُريد أيضاً المعنى المعنوي؛ لأنه لو لم يرد لكان بالإمكان الاستغناء عن تلك الاشتقاقات واستعمال كلمات أخرى كـ (

رأى أو أبصر) و(رأيت أو أبصرت) في الآيتين الأوليين، و(علمتم) في الآية الثانية، و(تجدوا ترحيباً من أهل البيت) في الآية الثالثة، و(مستمعين) في الآية الأخيرة.

لكن الاستعمال القرآني جاء دقيقاً جداً حيث جمع بين المعنيين في آنٍ واحد.

ب- الإيناس بوصفه مصطلحا بلاغيا:

يمكن القول: إن مصطلح الإيناس هو تلك الطرق التعبيرية التي تستخدم في الكلام لإزالة الوحشة من نفس المخاطب وبث الطمأنينة فيه حتى تكون عنده في غاية التمكن والحسن.

وعلى هذا فإنه ليكون الإيناس غرض أيّ أسلوب بلاغي لا بد أن يتوافر فيه شرطان:

١- أن تتقدمه وحشة إما في سياق المقال أو الحال.

٢- أن يكون قادراً على إزالة الوحشة الموجودة وإحلال الطمأنينة والفرح مكانها.

ونجد لهذا أمثلة كثيرة في القرآن الكريم. وهذا البحث منوط به أن يلمس طرفاً منها في محاولة متواضعة لتجليتها.

فمثلاً: استخدام أساليب التوكيد أو تقديم كلمة أو ضمير أو استعمال أسلوب الأمر أوالنهي أو القصر أو الحذف أو تخير لفظة أو صوغ عبارة... إلخ كلها قد يكون غرضها الإيناس إذا تحقق فيها الشرطان السابقان. وهي تأتي في سياقات معينة ، كسياق توبة مذنب ، أو وحشة دخلت على العبد جراء سلوك من حوله ، أو خوفه من المجهول.

جـ- سمات أسلوب الإيناس في القرآن الكريم:

يتسم أسلوب الإيناس في القرآن الكريم بعدد من الخصائص ، منها:

١- تلاؤمه مع حال المخاطب من حيث درجة الوحشة التي يعانيها ، والمكانة التي له عند الله تبارك وتعالى. فنجد مثلاً أن درجة الوحشة عند المذنب أعظم من غيره ، كحال آدم - عليه السلام - عند

عصيانه أمر الله له بعدم الأكل من الشجرة ، وحال الثلاثة الذين خُلفوا عن توبة الله عليهم بعد رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك. ونجد أيضاً أن العناية بإيناس الأنبياء أعظم من غيرها وذلك لعلو درجتهم عند الله تعالى ، وأبرز مثال على هذا إيناس النبي ﷺ بسبب ما كان يلاقيه من إيذاء قومه كما هو بارز في سورتي (الضحى والشرح).

٢- تخيره من الأساليب البلاغية أقواها ، فنجده يُكثر من تأكيد المعاني لتكون أقوى في تأثيرها على المخاطب ، كما في بشارته للنبي ﷺ بتيسير ما هو فيه من عسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وفي تبشيره للمؤمنين في غزوة الأحزاب بقرب نصر الله لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

كما أنه يقرب زمن البشرى ، نجد هذا مثلاً عندما جاء بـ (السين) في بشارته للذين آمنوا وعملوا الصالحات بدخول الجنة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧].

وللتصوير حظ كبير في إدخال الإيناس على قلب المخاطب ، كالذي في قول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٣، ٤]، وقوله تعالى:﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[الإنسان: ١٩].

٣-كما أنه يتسم بأنه إيناس مبادرة ، وهذه السمة تجعله أقوى أثراً في نفس المخاطب. فمثلاً: نجد الحديث عن الذنب ثم نفاجأ بذكر العفو عنه سريعاً ، كالذي ورد في شأن من تولوا عندما التقى الجمعان في غزوة أحد ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]؛ لأن الإطالة في ذكر

الذنب وتفاصيله وعتاب المذنب أو تقريعه ولومه كلها مما يُعمق شعور الوحشة في النفس، وهذا لـــيس مراداً، بل المراد هو إدخال الأُنس على النفس والطمأنينة على القلب.

وكذلك هي حال يوسف عليه السلام عندما كشف أمره لإخوته فعرفوه وتذكروا ما فعلوه به وهو صغير ، وخوفهم من بطشه بهم لما له من المكانة في تلك اللحظة ، فنجده يعلن عفوه عنهم بشكل سريع قائلاً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

٤- استخدامه لإيناس المخاطب ما هو غير متوقع ، كما جاء في قوله تعالى:﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣] ، فمقتضى التعبير بالغم أنها من الكلمات التي تدخل الوحشة على النفس ، لكنا نجدها هنا أنها استخدمت لإدخال الإيناس على الصحابة في غزوة أحد بعدما نالهم من القتل والجرح والهزيمة ما الله به عليم ، وهذا يفهم من قوله:﴿فَأَثَٰبَكُمْ ﴾ ، فقد نالهم من سماع خبر قتل النبي ﷺ غم عظـــيم إضافة إلى ما قد أصابهم في أنفسهم مما جعلهم ينسون معه ما هم عليه من ألم وهزيمة ، ثم انتشار خـــبر حياته ﷺ الذي جعلهم في فرح أعظم نسوا معه كل تلك الغموم والأحزان والآلام.

هذه لمحة قصيرة عن بعض سمات أسلوب الإيناس في القرآن الكريم. ننتقل بعدها إلى صلب البحـــث الذي نسأل الله – عز وجل – التوفيق فيه لمحاولة الوقوف على تفاصيل أكبر عن هذا الموضوع الجليـــل من كتاب الله تعالى.

الـبـاب الأول :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم

في سياق قصص السابقين :

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لآدم عليه السلام بعد العصيان والاعتراف بالذنب.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام وبنيه.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليونس عليه السلام.

الفصل الخامس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لموسى عليه السلام.

الفصل السادس: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لمريم عليها السلام عند حملها وولادتها.

تـــوطـــئـــة:

إن القرآن الكريم مليءٌ بقصص السابقين وعلى رأسهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد تعرضوا في حياتهم للعديد مما كان يتسبب في استيحاشهم ، فيذكر القرآن ذلك ويذكر ما أزيلت به تلك الوحشة.

فآدم عليه السلام يستوحش من ذلك الذنب الذي ارتكبه. وإبراهيم عليه الصلاة والسلام تحدث له أمور عظيمة في حياته تدخل إلى نفسه الوحشة كإيذاء قومه له حتى انتهى بهم الأمر إلى إلقائه في النار ، وأيضا ذلك الابتلاء العظيم الذي ابتلاه به الله تبارك وتعالى من أمره بذبح ابنه. أما يعقوب عليه السلام فما ذكر عنه في القرآن تفيض منه الوحشة فيضا. وما ذُكر عن يونس عليه السلام من عدم صبره على قومه وانصرافه عنهم دون إذن الله عز وجل وما تبع ذلك من استيحاشه وهو في بطن الحوت. وموسى عليه السلام الذي عرف الوحشة مبكراً حيث فارق حضن أمه وزُج به في اليم ليلتقطه عدوه ، وتلك الأحداث الكثيرة في حياته التي كانت تجلب له الوحشة. أما مريم فهي فريدة في النساء وقد أدخل عليها ذلك التفرد في وقت من الأوقات وحشة عظيمة إنه ذلك الحمل الفريد من غير زوج.

إن هذا الباب سيمر على تلك النماذج كلها مبرزاً أسلوب القرآن الكريم في إيناسهم.

الفصل الأول:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لآدم عليه السلام بعد العصيان والاعتراف بالذنب.

من المعلوم أن الله – تعالى – بعد خلقه آدم – عليه السلام – وإسكانه إياه الجنة أباح له الأكل من كل ما فيها من ثمار متى ما أراد وحيثما أراد باستثناء شجرة واحدة نهاه عن أن يأكل منها: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩], ﴿وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥], إلا أن آدم – عليه السلام – وقع فيما نُهي عنه, لكنه سرعان ما أدرك ما وقع فيه فأراد العودة والإنابة, فما كان من ربه التواب الرحيم إلا أن ألهمه طريق التوبة، وتقبلها منه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

فقد استوحش آدم – عليه السلام – من المعصية وما جرته عليه من بُعد عن الله – تعالى – بارتكاب ما نهاه عنه, لكنه — تعالى – سرعان ما آنسه بأن ألهمه التوبة وتقبلها منه. قال تعالى:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَـٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ **ٱلرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:٣٤- ٣٧].

وقال تعالى:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَـٰذِهِ

ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا
رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا
وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١٩ -٢٥].

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ
﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ
قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ **ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ**﴾ [طه: ١١٥ – ١٢٢].

أسكن ربنا – تبارك وتعالى – آدم وزوجه الجنة وأذن لهما في الأكل من الأشجار التي فيها جميعا واستثنى من ذلك شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥], لكنهما وقعا فيما نُهيا عنه بسبب إزلال الشيطان لهما, قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة آية: ٣٦], وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ

ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

ثم كانت المنة عليهما من الله – تبارك وتعالى – بعد شعورهما بعظم ما اقترفا من خطأ بعصيان أمر الله – تعالى – بأن ألهمهما التوبة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٧]. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣], وتاب عليهما: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ، و ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: (الفاء): للتعقيب. لقد لقن الله – تعالى – آدم كلمات توبة فتلقاها وأخذها عنه تائباً[1]. والكلمات التي تلقاها آدم – عليه السلام – وردت في سورة (الأعراف) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣], وعُبر عن تلقين الله – تعالى – آدم تلك الكلمات بالتلقي, وجاءت على وزن (تفعَّل) ليوحي بأن آدم تلقى الكلمات لقاء العزيز حين يصل بعد غياب, لقاء حرارة وشوق, ومن هنا نرى أن في الكلام استعارة تمثيلية, فقد شبه هيئة آدم في تلقيه الكلمات من ربه بهيئة المتلهف إلى لقاء عزيز،

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٨٠/١ ، لأبي جعفر بن جرير الطبري، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

إضافة إلى أن (في التعبير بالتلقي إيماء إلى إن آدم – عليه السلام – كان في ذلك الوقت في مقام البعد)[١], والبعيد عمن يحب يكون فيه وحشة, فكيف والحبيب هو الله – تبارك وتعالى –؟! إنها وحشة ليس بعدها وحشة!

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾: (الفاء): للسببية. و(تاب عليه: أي قبل توبته) [٢]. وعُديت بـ (على) لما ترجع إليه في الآخرة من معنى التفضل والتعطف[٣]، فخير هذه التوبة عام على الدنيا والآخرة. ولقد آنس – تعالى– عبده العاصي المخطئ بتوبته عليه, وما يترتب على ذلك من عودته إليه وقربه منه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: فصلت لشبه كمال الاتصال, فهي بمنزلة التعليل للجملة التي قبلها. وهي جملة مؤكدة بـ (إن) وخبرها الوارد على هيئة الجملة الاسمية الدالة على ثبوت المعنى, وعزز هذا التوكيد ضمير الشأن (هو). وتعريف الطرفين أفاد القصر، وقد تآزرت هذه الأساليب لتكون من أسباب إدخال الأنس على آدم عليه السلام.

ومجيء ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغتي (فعَّال) و(فعيل) للمبالغة, فالتعبير بـ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ إشارة إلى قبوله التوبة كلما تاب المذنب أو لكثرة من يتوب عليهم. وقد جمع بين وصفي ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إشارة إلى مزيد من الفضل, وتقدم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لظهور مناسبته لما قبله وذلك في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾, كما أنه يشير إلى أن قبول التوبة ليس على سبيل الوجوب بل على سبيل الترحم والتفضل[٤].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣٢١/١ ، للعلامة/ أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، تحقيق وتقديم وتعليق وتصحيح: الشيخ/ محمد أحمد الأمد، والشيخ عمر السلامي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.

(٢) المفردات: (توب).

(٣) ينظر: روح المعاني: ٣٢١/١.

(٤) ينظر: السابق: ٣٢١/١.

وعُبر عن توبة الله عليه في سورة (طه) بقوله: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [١٢٢]: إن هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طـه: ١٢١] وهي معطوفة على قولـه تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾, فبين حال آدم حين استجاب لوسوسة إبليس ووقع فيما نهاه الله – تعالى – عنه: ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] فكان في ذلك عصيان منه لله – عز وجل – مما ترتب عليه أنه ﴿غَوَىٰ﴾.

و(الغي): (جهل من اعتقاد فاسد)[1]، فآدم اعتقد أن إبليس صادق فاستجاب لـه جهـلاً منـه بالغرض الحقيقي له في وسوسته وتزيينه.

وعُبر بـ﴿عَصَىٰٓ﴾ و﴿غَوَىٰ﴾ وهي كلمات يشق على النفس سماعها, وذلك لعظمة المعاني التي تحويها فهي مشعرة بالهلاك وحلول العقاب.

أما قوله ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾: فقد عُبر بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ المفيد للتراخي؛ للدلالـة على أن اجتباء الله – تعالى – لآدم – عليه السلام – وهدايته له كانت بعد مدة زمنية عاتب فيها الله – تعالى – آدم وزوجه وتبع هذا اعترافهما السريع بذنبهما وطلبهما المغفرة والرحمة وعدم المؤاخذة, وقـد ورد هذا كله في سورة (الأعراف), قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

و﴿ٱجۡتَبَٰهُ﴾: (الاجتباء): الجمع على طريق الاصطفاء, واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفـيض إلهـي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم مـن الصـديقين

---

(١) المفردات: (غوى).

والشهداء[١]؛ لذلك عبر به هنا لما فيه من المنة من الله – تعالى – على عبده آدم الـذي عصـى لكنـه سرعان ما تذكر وأراد الإنابة، وهذه المنة عليه أدخل في إيناسه.

وفي ﴿رَبُّهُۥ﴾ تتبدى رحمة الله – تعالى – ولطفه إذ أضاف (رب) إلى ضمير الغائب العائد على (آدم) ليؤنس قلبه الذي استوحش خوفاً من غضب الله – تبارك وتعالى – وأليم عقابه.

﴿وَهَدَىٰ﴾: يراد بالهداية إذا ذكرت مع الاجتباء في القرآن الكريم النبوة[٢].

ومن هنا يلاحظ أن اللوم والتبكيت على عصيان آدم وزوجه ورد في (الأعراف) وكذلك الكلمات التي لقنها تعالى لآدم وزوجه, بينما لم يرد ذكر لتوبة الله – تعالى – عليهما فيها. أما في (البقرة) فلـم تأتِ فيها تلك الحدة في اللوم والتبكيت وورد فيها توبة الله – تعالى– عليهما. وفي (طه) تساوت فيهـا شدة الإيحاش ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ مع زيادة الإيناس ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾. وإنمـا اختصت كل سورة بما فيها لأن المقام في (الأعراف) هو مقام تخويف وترهيب ، فقد جاء في سـياق الآيات الأمر باتباع ما أنزل الله والتخويف من مخالفة ذلك ، فجيء في هذا السياق لبيان عاقبة المخالفة، فلم يكن ذكر التوبة يتناسب مع التخويف والترهيب. أما في سورة (البقرة) فالمقام فيها مقـام بيـان كرامة آدم عند ربه أمام الملائكة فناسب ذلك ذكر توبة الله عليه سريعا بعد المعصية. وفي (طه) نجـد المقام هو بيان سعة فضل الله — تعالى — فهو الذي يقبل التوبة من عباده المذنبين ، فيعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويغفر ما وقع منهم ، فيصبح العبد كأنه لم يذنب.

---

(١) ينظر: المفردات: (جبى).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩٧/١٦ ،لـ : أ/ محمد الطاهر بن عاشور، ط١، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

الفصل الثاني:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

تعرض إبراهيم – عليه الصلاة والسلام– في حياته للكثير من الأحداث التي أورثته وحشة وهمًّا وألمًّا. إلا أن أشهرها حادثة القائه في النار وحادثة أمره بذبح ابنه.

لقد دعا إبراهيم قومه كثيراً إلى الإيمان بالله وتوحيده ، وخاطبهم بالحجج البينة وجادلهم بالتي هي أحسن ، لكنه لم يجد منهم أية استجابة ، فتحول من ذلك إلى محاولة أخرى وهي فعل عملي أراد منه وضعهم أمام دليل قوي لا يملكون بعده إنكار أن الآلهة التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، ومن ثم نقلهم من الشرك إلى التوحيد. لقد كاد لأصنامهم فحطمها حتى يستيقن أولئك القوم أن هذه الآلهة لا تقدر على نفع نفسها فكيف بغيرها؟! إلا أن هذا الفعل منه أثار عليه قومه بشدة، فكادوا له هم الآخرون وقرروا القضاء عليه لـمّا قد دمغهم بالحجة البينة ، واختاروا لذلك طريقة غاية في البشاعة ! إنه التحريق بالنار.. لكن الله تبارك وتعالى القوي العزيز حمى عبده ونبيه بمعجزة عظيمة خالدة ، لقد سلب من النار خاصية الإحراق وجعلها عليه برداً وسلاماً.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ
ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن

كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ لقد أسند فعل القول إلى ضمير العظمة العائد على الله تبارك وتعالى؛ لأن تغيير خواص الأشياء أمر عظيم بالنسبة للبشر، فلا يقدر على ذلك إلا خالق الأشياء سبحانه وتعالى. ثم نجد أن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ينادي النار نداء العاقل آمراً إياها التحول من الإحراق إلى عكس ذلك ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾. وقوله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ احتراس (ولولا أنه قال: وسلاما لكان البرد أشد عليه من الحر)[1]. وفي ذكر المتعلق ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ وإظهار اسمه عليه الصلاة والسلام مزيد إكرام له وعناية به وهذا أدخل في إيناسه.

وبهذا نجد أنه بأمر منه – تعالى – سلم عبده ونبيه مما أراد به قومه وظهرت عنايته العظيمة به وإيناسه له.

وبعدما فعل به قومه ما فعلوا، ويأسه من إيمانهم خرج من ديارهم وهو راجٍ هداية الله – تعالى – له. وسأل ربه – تبارك وتعالى – أن يهب له ذرية صالحة، فاستجاب – تعالى – دعاءه ووهب له غلاماً, وكانت سعادته به عظيمة, إلا أنه عندما اشتد عوده ابتلي به ابتلاء عظيماً حيث أُمر من خلال الرؤيا أن يذبحه–ورؤيا الأنبياء وحي–, فما كان منهما عليهما الصلاة والسلام إلا أن امتثلا للأمر برغم كل ما

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٩/٤٤.

كان في الامتثال له من صعوبة وألم، عند ذلك آنس – تعالى – نبيه بأن فدى ابنه بـذبح عظـيم, وزاد على ذلك بأن جعل له الثناء الحسن في الآخرين ورزقه بمولود آخر وجعله نبيًّا من الصالحين وجعلـهما مباركين.

وقال تعالى:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ٩٩- ١١٣].

بعد أن يئس سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – من إيمان قومه، عزم على مفارقتهم والخروج من ديارهم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾: أي مهاجر إلى ربي[1]، وكان واثقاً من هداية الله – تعالى – له لما اعتاده منه عز وجل فهو معه في كل حين[1].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: ٣١/٤ ، للإمام/ أبي محمد الحسين بن سعود الفراء البغوي الشافعي، إعداد وتحقيق: خالد العك، ومروان سوار، ط٤، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: (بقية قوله فإنه بعد أن أخبر أنه مهاجر استشعر قلة أهله وعقم امرأته وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى؛ لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السُّلُوِّ بوجود قرابته وأصدقائه)[٢]، فعندما شعر بوحشة فراق وطنه وقومه رغم أنهم فعلوا به ما فعلوا مما تقدم ذكره, وعندما استشعر مرارة الغربة التي سيصير إليها وهو وحيد؛ سأل ربه أن يهب له ولداً يكون من عباده الصالحين ليكون معه في عبادة الله – تعالى – وتوحيده والإخلاص له والتجرد لأجله, فاستجاب له الوهاب الكريم:

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾: (وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر, وأنه يبلغ أوان الحلم, وأنه يكون حليماً)[٣]. وبعد أن بلغ الغلام الحلم ابتلى به سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – ابتلاء عظيماً, فقد أُمر بذبحه:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾: ناداه بهذا رأفة منه عليه الصلاة والسلام على ولده, لتلطيف الخبر الذي سيلقيه إليه، لئلا يشك الابن في مكانته من أبيه.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾: ليست هذه مشاورة من إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – لابنه, ولكنه قال له ذلك ليعلم ما عند ابنه من العزم وحب الله – تعالى – وصبره في تنفيذ أوامره والاستسلام له[٤].

---

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٤ /٥٣ ، للإمام/ محمد الزمخشري، رتبه وضبطه وصححه: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي.

(٢) التحرير والتنوير: ٦١/٢٣.

(٣) الكشاف: ٤/ ٥٣.

(٤) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن:١٠ /٥٠٨ .

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: وكما كان الأب عطوفاً على ولده فناداه ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ كان الابن باراً بأبيه فناداه ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

وقد استسلما لأمر الله – تبارك وتعالى – برغم صعوبته.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾: (الإسلام والاستسلام): الانقياد والطاعة, و(التسليم): بذل الرضا[1].

فكان الابن عند حسن ظن أبيه, وكان الاثنان – عليهما الصلاة والسلام – كما أراد لهما ربهما أن يكونا من الانقياد لأمره والاستسلام لطاعته.

وعلى قدر ذلك الابتلاء كان الجزاء, فقد استسلما لأمر الله – تعالى – فجازاهما ربهما على ذلك جزاء عظيماً: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾:

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾: هناك من يرى أن هذه الآية جواب (لما) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ و(الواو) زائدة, وهناك من يرى أن هذه الآية معطوفة على سابقتها وأن جواب (لما) مقدر تقديره: فلما فعل ذلك وناداه ربه بأنه قد صدق الرؤيا سعد سعادة عظيمة[2].

---

(١) ينظر: اللسان: (سلم).

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٣٥٠/٢٦ ، للإمام/ الفخر الرازي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.

والأنسب مع سياق الإيناس أن يكون جواب (لما) محذوفاً ليتيح المجال للذهن للتوسع في تقدير ذلك الجواب من تخيل ما صارت إليه حال إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – وقد انتهى ذلك الابتلاء تلك النهاية السعيدة.

ويلاحظ المجاز العقلي في قوله تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ إذ أسند الله سبحانه وتعالى النداء لنفسه وهو سبب فيه والآمر به إذ المنادى هو الملك الموكل بذلك فلم يعرف بأن أحداً من الأنبياء كلمه الله إلا نبي الله موسى عليه السلام ، فالكلام إذن من قبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية ، وهذا المجاز يوحي بمدى رضا الله – سبحانه وتعالى – عن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: نلاحظ أن النداء في هذه الآيات نداء تلطف فذاك إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – ينادي ابنه بحنو ﴿يَـٰبُنَىَّ﴾, وهذا ابنه يرد عليه النداء بكل ود وتلطف ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾, وهنا ينادي الحق – تبارك وتعالى – عبده ونبيه الصابر المصدق المحتسب ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فهو عليّ القدر كعلو روحه ورفعة نفسه.

وفي نداء إبراهيم باسمه لا بصفة النبوة إشعار بمزيد قربه منه عز وجل وفي هذا من الإيناس والطمأنة ما لا يخفى.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾:

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾: هذا هو القول الذي قيل لإبراهيم – عليه الصلاة والسلام –. وإدخال ﴿قَدْ﴾ على الفعل الماضي ﴿صَدَّقْتَ﴾ للتأكيد على تحقق ذلك الفعل منه – عليه الصلاة والسلام –, وهذه طريقة أخرى في التعبير لإدخال الإيناس على قلب إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – بعد الوحشة التي ملأته.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: (تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة)[١]. وفي هذه الآية تصوير؛ إذ كنى بهذا القول عن إحسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذه الكناية توضح إلى أي مدى كانت استجابة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لربه وأنها كانت استجابة فورية لا تردد فيها ولا توانٍ مع أن الأمر الذي استجاب له كان أمراً شديداً صعباً على نفس كل أحد مهما كانت درجة إيمانه والتعبير باسم الإشارة في قوله ذلك يوحي بعظمة المشار إليه وفخامته وبمنزلته إذ لم يعبر باسم الإشارة فقط بل عبر به مقترنا بلام البعد.

ويلاحظ أن النص الكريم قد جاء موكداً بـ (إن) واسمية الجملة وذلك للإشعار بأن مجازاة المحسنين بالجزاء العظيم هو أمر مؤكد لا شك فيه ولا مراء.

والتعبير بـ ﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل جمعا يشعر بأن إبراهيم عليه السلام أصبح عند الله في عداد المحسنين وقد عرف بالإحسان واشتهر به وأن صفة الإحسان قد أصبحت صفة ملازمة له وثابتة ودائمة.

والآية اللاحقة توضح أن ما حدث لإبراهيم من أمره بذبح ولده ما هو إلا امتحان كبير لا يقوى على تحمله إلا الكبير في الإيمان وفي تحمل الشدائد.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾:

جاءت الجملة مؤكدة بـ(إن) و(اللام) الداخلة على خبرها ﴿لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ وذلك للتأكيد على ألا بلاء أعظم من ذلك الابتلاء الذي ابتلى به الله – تبارك وتعالى – إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –، ولتأكيد هذا المعنى جيء بأسلوب القصر الذي طريقه تعريف الطرفين, وجاء ضمير الفصل (هو) لتأكيد

---

(١) الكشاف: ٤/٥٥.

القصر. وأفاد هذا القصر زيادة امتداح الله – تبارك وتعالى – لإبراهيم – عليه الصلاة والسلام–, فقد فاز في ابتلاء لا يقدر على اجتيازه أحد.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾: ولقد استحق أن يُبشره بهذه البشارة لبلائه ذلك البلاء الحسن في ذلك الامتحان الشديد الصعوبة. وفي إسناد الفداء إلى الله – سبحانه وتعالى – مجاز عقلي لعلاقة السببية إذ إن الله المسبب للفداء والآمر به وليس فاعله، وهذا المجاز يشعر باهتمام الله – سبحانه وتعالى — بإبراهيم – عليه السلام – وولده وشفقته ورأفته بهما وحنوه عليهما وهوما يوحي بأن إبرهيم – عليه الصلاة والسلام – يحظى بمترلة عظيمة عند الله عز وجل ، وفي هذا إيناس عظيم له.

وتنكير (ذبح) يوحي بعظمة هذا الذبح وأنه كان كبشاً كبيراً ثميناً يتناسب وعظمة مترلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويؤكد هذا المعنى وصف الذبح بالعظمة في قوله: ﴿ذبح عظيم﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾:

هذه الآيات فيها إخبار من الله – تعالى – عن جزاء منحه لإبراهيم – عليه الصلاة والسلام – بعد تلك الحادثة العظيمة، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْأَخِرِينَ﴾ كناية عن إبقاء ذكره حسنا فيما بين الأمم إلى يوم القيامة.

والتعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿تَرَكْنَا﴾ للإشعار بأن بقاء ذكره طيباً بين الأمم حكم مقضي به منذ الأزل وأنه أمر واقع لا محالة، وهذا أدخل في إيناسه.

وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على الجار والمجرور الآخر ﴿فِي ٱلْأَخِرِينَ﴾ تعجيلاً بالبشرى وإدخالاً للإيناس في قلب إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – لصبره على الابتلاء.

و(أل) في قوله: ﴿ٱلْأَخِرِينَ﴾ تشعر بأن ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام سيستمر بين جميع الأمم وليس بعضها إذ إن (أل) للاستغراق.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: (أمنة من الله في الأرض لإبراهيم أن لا يذكر من بعده إلا بالجميل من الذكر)[1], ولهذا جيء بـ﴿سَلَٰمٌ﴾ نكرة للتأكيد على التعظيم والتكريم له عليه الصلاة والسلام, واستعمال ﴿عَلَىٰٓ﴾ أفاد تجسيد (السلام) وجعله مستعليا على إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – حافا به من جوانبه جميعها فلا يكون له من الله – عز وجل – إلا السلام في تفاصيل حياته كلها.

وفي تكرار الاسم ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ زيادة إيناس له, وحتى يتعين أنه هو المراد بالحديث لا غيره فلا يُصرف الذهن إلا إليه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: (إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما أشير إليه فيما سبق فلا تكرار)[2]. ويقصد بقوله (فيما سبق) قوله تعالى في آية (١٠٥): ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: (إن إبراهيم من عبادنا المخلصين لنا الإيمان)[3], فهذه شهادة عظيمة من الله – تبارك وتعالى – لنبيه – عليه الصلاة والسلام – أنه من العباد المؤمنين، وفصل بين قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبين ما قبله؛ لأن ما قبله أثار سؤالاً تقديره: لماذا ترك الله عليه في الآخرين وكان له سلام من الله عظيم وعُدّ من المحسنين؟ فقيل: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هذا الثناء عليه مزيد إيناس له.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٥١٧/١٠.

(٢) روح المعاني: ١٧٦/٢٣.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: ٥١٨/١٠.

وإضافة (عباد) إلى ضمير العظمة الذي يعود إلى الله تبارك وتعالى يشعر بشرف هؤلاء العباد وعظمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إذ إنه منهم وعلى شاكلتهم فهم العباد الذين تخلوا عن شهواتهم ورغباتهم كلها واتجهوا بكل حواسهم وجوارحهم إلى الله - عز وجل - فاستحقوا أن يكونوا عباده.

وللإشعار بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قوي الإيمان راسخاً فيه عُبر عن إيمانه وإيمان الذين كان هو منهم بصيغة اسم الفاعل جمعاً ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

والتعبير بلفظ الإيمان يوحي بشرف هؤلاء إذ إن الإيمان هو أعلى درجات التقرب من الله والطاعة له، وفي هذا كله زيادة في الإيناس.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾:

وهذه بشارة أيضاً من الله - عز وجل - لخليله - عليه الصلاة والسلام - بولد هو (إسحاق) وأنه (مقضيٌّ بنبوته مقدرا يمينا كونه من الصالحين)[1], وذلك من الشكر له على إحسانه وطاعته[2], إضافة إلى إفاضته بركات الدين والدنيا عليه وعلى ولده (إسحاق). ويلاحظ تكرار حرف الجر (على) مما يفيد تنوع البركة وتعددها.

ونستطيع القول: إنه على قدر تلك الوحشة التي حصلت لإبراهيم عند تلقيه لذلك الأمر - ذبح ابنه الذي دعا الله ليرزقه إياه - وعند عمله على تنفيذه جاء إيناس الله له بفداء ابنه من الذبح وبجملة من البشائر الأخرى, وقد عبر عن ذلك كله بأساليب بلاغية موحية.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٣٣٦/٥ ، للقاضي/ أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، وضع حواشيه: عبداللطيف عبدالرحمن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٥١٨/١٠.

فكان البدء بندائه ذلك النداء اللطيف المحاط بالرحمة والود (يا) ثم مناداته باسمه ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾ لزيادة إيناسه, ثم التأكيد على أنه قد أدى ما أُمر به ووفاؤه أتم وفاء ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾, ووضعه في زمرة ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وجعل ما وقع له من الابتلاء هو البلاء البين الذي لا بلاء أعظم منه وأكد هذا المعنى وعبر عنه بأسلوب القصر, وخطاب الله – تعالى – له بفداء ابنه بفداء عظيم زيادة في طمأنته وإدخال السرور إلى نفسه وإبقاء الثناء عليه إلى يوم القيامة, وإحاطته بالسلام من الله – تعالى –, وامتداحه بأنه من عباد الله المؤمنين، وجاء هذا بنسبة (عباد) إلى الضمير العائد إلى الله – تبارك وتعالى – (نا), وبشارته بولادة ولد له وأنه قد قضى من الله قضاء أن يكون نبياً صالحاً, ثم بشارته بالبركة التي أحاطه بها الله – تعالى – هو وابنه (إسحاق) تلك الإحاطة التي شملت الدين والدنيا.

لقد كان الابتلاء عظيماً والوحشة التي حفته كانت كذلك, لكنه تعالى آنس عبده ونبيه إيناساً أزال عنه مرارة تلك الوحشة.

الفصل الثالث :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام وبنيه.

لقد وردت قصة نبي الله (يعقوب) – عليه السلام – وبنيه متكاملة في سورة (يوسف), ونجد فيها خمسة مواطن للإيناس:

أعلاها درجة: إيناس الله – تعالى – له بإعادة ابنه يوسف إليه بعد سنوات طوال من البعد ومن تيئيس من حوله له في إمكانية عودة ابنه إليه لتأكدهم أن ابنه قد مات.

ثم إيناسه تعالى ليوسف الفتى الصغير المرمي في غيابة الجب بالوحي إليه بأنه سينجو مما هو فيه وسيأتي حين سيخبر إخوته بما فعلوه به وهو صغير لا حول له ولا قوة.

ويلي هذا إيناس من يوسف – عليه السلام – لإخوته, عندما أصبح عزيز مصر ودخل عليه إخوته بعدما نالهم من الجوع والقحط، وبعد تفاقم مصاب أبيهم بسبب أخذ ابنه الآخر بتهمة السرقة في مصر. عندها كشف يوسف – عليه السلام – عن نفسه أمام إخوته فكانت لهم مفاجأة هائلة أعادت إليهم كل ذكريات الماضي، وشعروا معها بالحرج من أخيهم الذي آثره الله – تعالى – عليهم, بل شعروا أيضاً بالخوف من قدرته على الانتقام وقد أصبح ذا المكانة العالية وصاحب النفوذ القوي, لكنه – عليه السلام – لأخلاقه النبوية لم يجعل تلك الهواجس يطول مداها في نفوسهم فيقطعها بإعلان عفوه عنهم, وليس مجرد عفو بل أعظم من ذلك إنه حتى لن يلومهم أو يعنفهم, وطلب لهم المغفرة من الله عز وجل: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ثم يأتي إيناس يعقوب لبنيه: فبعد أن جاؤوه بالبشارة بأن يوسف لا يزال حيًّا, اعترفوا أمامه بخطئهم, وطلبوا منه أن يستغفر لهم, فاستجاب أبوهم لطلبهم لكنه لسبب ما أجل ذلك الاستغفار إلى وقت آخر, وقال: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ثم إيناس يوسف للجميع عند دخول مصر تلك الأرض الغريبة عنهم وتأمينهم فيها.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف:١٥]. و ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ

وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٤- ١٠٠)

لقد بدأت هواجس يعقوب – عليه السلام – ومخاوفه مند رأى ابنه الحبيب الصغير (يوسف) – عليه السلام – تلك الرؤيا التي فهم منها ذلك الأب الحنون أن هذا الطفل الصغير سيكون له شأن عظيم في مستقبل أيامه, فخاف عليه من غيرة إخوته وكيدهم له, ولهذا أمره ألا يخبر أحداً بما رأى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]. وقد وقع ما كان الأب متخوفاً منه – غيرة الإخوة لأخيهم الصغير وكيدهم له – لكن ما حملهم على ذلك كان سبباً آخر غير الرؤيا, إنه شعورهم بالغيرة منه لما لمسوه من حب أبيهم له حباً زائداً عن حبه لهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨], فكادوا له وانتزعوه من بين يدي أبيه بمكرهم لتبدأ سلسلة أحزان يعقوب – ذلك الأب الحنون – التي لا تنتهي إلا بعد أمد طويل: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣], فقال حين فجعوه بخبر فقدان ابنه الحبيب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

أما يوسف وما فعله به إخوته فقد: ﴿أَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ (لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم, فما كان إلا أن غابوا عن عينيه, فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب)[1], ويروى أنهم اجتمعوا عليه وأخذوا في ضربه وهو يستغيث ويستنجد بهم الواحد تلو الآخر لكن لم يجد منهم رحيماً وكادوا يقتلونه لكن أخاهم الأكبر منعهم فانطلقوا به إلى الجب

(١) البداية والنهاية: ٢٣٣/١ ، لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، اعتنى به: د/ عبدالحميد هنداوي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

ليطرحوه فجعلوا يدلونه فيه وهو يتعلق بهم وبشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه عنه فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت لكنه سقط في الماء ووصل إلى صخرة فقام عليها وأخذ يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فرد عليهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم الأخ الكبير[١].

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نتصور مدى الوحشة التي كان فيها يوسف – عليه السلام –, مما صنع به إخوته، ألمه وحزنه على فراق أبيه ووحدته في ذلك الجب الموحش. لكن ربه اللطيف الرحيم لم يتركه طويلاً وهو على تلك الحال بل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: (أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ويبشر بما يؤول إليه أمره)[٢], أوحى إليه – تعالى – ليؤنسه وهو في تلك الحال الشديدة فيزيل عن قلبه ما لفه من وحشة, فالوحي من الله فيه الرحمة والسكينة والطمأنينة لذلك أُسند (أوحى) إلى الله – تبارك وتعالى – بالضمير (نا) الدال على العظمة والقدرة. وأكد له أنه سينجو من هذه المحنة لمجيئه بالفعل (تنبئ) المؤكد بـ(اللام) و(النون) مما يفيد أنه سينبئهم بما فعلوا وهو في حال من التمكن منهم وأمن شرهم[٣].

ثم تمضي أحداث القصة حاملة في طياتها آلام يعقوب وأحزانه, إلى أن يقترب الأمد الذي كتبه الله – تعالى – لهذه الأحزان أن تنجلي ولتلك الآلام أن تنتهي. لقد خرج الإخوة من ديارهم بعد أن أصابها القحط كغيرها من الديار المجاورة في ذلك الزمان متوجهين إلى الأرض التي يقطنها يوسف – عليه السلام – بعد أن مكنه الله – تعالى – فيها وجعل بيده أمر إخراج الناس من ذلك القحط الذي نزل بهم بأقل الخسائر الممكنة. توجهوا إلى تلك الأرض وما كانوا يعلمون أنهم ذاهبون للقاء أخيهم الصغير الذي فعلوا به ما فعلوا ليتخلصوا منه إلى الأبد, كل ذلك ليتحقق ما بقي من وعد الله – تبارك وتعالى– لنبيه

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١٥٧/٧.

(٢) الكشاف: ٤٥٠/٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٣/١٢.

بأنه سينبئ إخوته بما عملوا وهم لا يشعرون, وكذلك لتنجلي أحزان يعقوب – عليه السلام – بعـــودة ابنه الحبيب إليه.

فعندما وصل الإخوة ودخلوا على أخيهم الصغير يوسف – عليه السلام – عرفهم وما عرفوه, وبعد أن أكرمهم في العطاء طلب منهم إحضار أخيه الشقيق في المرة القادمة، وإن لم يفعلوا ذلك فإنه لن يمدهم بالميرة, فغادروا وتمكنوا من إقناع أبيهم بأخذ أخيهم – شقيق يوسف – للذهاب معهم ليمتار, وهناك استطاع يوسف – عليه السلام – الإبقاء على أخيه عنده بعد أن اتهمه بالسرقة, وعاد الإخوة إلى أبيهم حاملين معهم له مزيداً من الأحزان, فكان جوابه كما كان يوم أن فُجع بفقد يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثم قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣] ولنتأمل تصوير القرآن الكريم لحال ذلك الأب الحزين المكلوم: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ابتعد عنهم ليخلو بأحزانه وآلامه, وقد بلغ به الحزن أن ذهب ببصره, وبالرغم من كل ما حل به من الحزن والأسى والألم إلا أن ذلك لم يحرك عواطف من حوله لمواساته وتصبيره, بل نجدهم يلومون عليه حزنه واستمرار تذكره ليوسف ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ قالوا له هذا رغم أنه ابتعد عنهم واختلى بنفسه وآلامه وأحزانه ومع ذلك لم يسلم من لومهم وتبكيتهم، فما كان منه إلا أن رد عليهم رداً جميلاً كعادته: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. إنه لم يشتك إليهم ليبكتوه إنما بث حزنه وشكواه لله رب العالمين, ثم استجمع نفسه وعزم على ألا يفقد الأمل فقال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي استخدامه للفظة (تحسسوا) معنى جميل لطيف, فكأنه طلب منهم هذه المرة استخدام أحاسيسهم وتحريكها ونفض تلك القسوة عنها.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ليصور مدى ما بلغوه من الحاجة و الانكسار. وهنا يرى يوسف – عليه السلام – أن الوقت قد حان ليكشف عن نفسه, فيبادرهم بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قال لهم ذلك ليعيد إلى ذاكرتهم ذلك الأخ الطفل (يوسف) الذي لم يكن يطلع على ما يفعلونه به أحد إلا الله – عز وجل –, وفعلاً تنبهوا ورأوا في ملامح ذلك العزيز ملامح أخيهم الصغير فما كان منهم إلا أن: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ في استفهام تقريري مؤكد, فأجابهم يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وهنا لم يعد للإخوة سوى الاعتراف بفضل الله – تعالى – على أخيهم الذي حاكوا له المكائد وتآمروا عليه ليتخلصوا منه، لقد آثره الله عليهم. لكن اعترافهم ذلك كان مشوباً بالخوف من يوسف العزيز الذي بيده القوة والسلطة ! إن يوسف الكريم وابن الأكرمين لم يكن ليدع إخوته تعصف بداخلهم كل تلك المخاوف وقتاً طويلاً بالرغم من كل ما فعلوه به وبذلك الأب الحنون فقد سارع بإيناس تلك الوحشة التي كانوا فيها بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لقد عفا عنهم عفو من لن يؤنب ومن لن يذكرهم بما صنعوا[1] ومن لن يعاتب[2] وهذا

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن : ٢٩٢/٧.

(٢) ينظر: الكشاف: ٥٠٢/٢.

هو المأخوذ من قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فالتثريب هو: (التقريع والتقهير بالذنب)[١]. ولحمل هذه الكلمة كل تلك المعاني أُثر استخدامها دون غيرها هنا. وتقدم الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمُ﴾ على الظرف ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وذلك طلباً للمسارعة في إدخال الإيناس عليهم. وقد خصص نفي تثريبه إياهم بـ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ومقصده من ذلك: أنه لن يثربهم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فكيف بغيره من الأيام[٢]، ذلك كله ليزيل ما في نفوسهم من الخوف والقلق.

ولا نجد أن الأمر يتوقف عند طمأنة نفوسهم وإزالة مخاوفهم بل نجد ذلك الأخ الكريم يزيد على ما صنع بالدعاء لهم: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مستخدماً الفعل المضارع ﴿يَغْفِرُ﴾ لتكون مغفرة الله – تعالى – لهم متصلة ومستمرة. ثم يختار من أسماء الله – تعالى – وصفاته ما يفيض بالرحمة ليختم بها ذلك الموقف: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ثم يحين الوقت الذي قدره – تعالى – لأحزان يعقوب وآلامه أن تنتهي فيه، بإيناسه برد ابنه الحبيب (يوسف) إليه بعد كل تلك السنوات من الفراق, لقد جعل – تعالى – يوسف يرسل مع إخوته قميصه دليلا على وجوده وليضعه على وجهه ليعود إليه بصره معجزة منه تعالى، وحين سارت القافلة عائدة أمر – تعالى – الرياح أن تحمل معها رائحة يوسف إلى أبيه قبل أن تصل القافلة مسارعة إلى إدخال الأنس إلى قلبه الحزين منذ سنوات: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ

---

(١) المفردات: (ثرب).

(٢) ينظر: الكشاف : ٥٠٣/٢.

إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وفور انتهاء يوسف من إيناس إخوته طلب منهم الذهاب بقميص له إلى أبيهم ليكون دليلاً على وجوده وطلب منهم إلقاءه على وجهه ليرتد إليه بصره لكنه لم يقل (يرتد إليه بصره) ولكنه قال: ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ وهنا إيجاز (يرتد إليه بصره ثم يأتي إليّ بصيراً) وذلك لتلهفه الشديد لرؤية أبيه والاجتماع به مرة أخرى.

وفي التعبير بهذا نكتة أخرى: إنه لم يقل (وأتوني بأبي وأهلكم أجمعين) وذلك إما لإجلال الأب عن أن يؤتى به من قبل الأبناء فقد يكون في ذلك نوع إجبار، وإما للجزم بأنه من الآتين لا محالة وثوقاً بحبه لقاء ابنه[1].

وعُجلت ليعقوب البشرى بأمر الله – تعالى –, حيث حملت الرياح رائحة القميص إليه, عندها قال لمن حوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ مُؤكداً كلامه بـ(إن) و(اللام) والسبب في ذلك هو ما ذكره لاحقاً في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾, فكان التأكيد لخوفه من اتهامهم له بالفند, و(الفند) هو: (ضعف الرأي)[2], وبالفعل كان ما توقع صدوره منهم صحيحاً, فقد ردوا عليه قائلين: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

ثم تأتي اللحظة التي يصبح ما كان يعلمه هو وحده من الله – تعالى – أمراً عياناً, فقد جاء البشير وألقى القميص على وجهه فعاد إليه بصره, ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾: – عُطف بـ(الفاء) للفترة الزمنية التي احتاجتها القافلة للوصول، و((أن) في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ مزيدة للتأكيد)[3], وتعريف ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾ لتخصيصه بذلك الإنسان الذي حمل القميص من يوسف إلى الأب. و(الفاء) في قوله: ﴿فَٱرۡتَدَّ

---

(١) ينظر: روح المعاني: ٦٨/١٣.

(٢) المفردات: (فند).

(٣) التحرير والتنوير: ١١٦/١٢.

بَصِيرًا﴾ أفادت سرعة ارتداد بصر يعقوب – عليه السلام – إليه, وجرس كلمة (ارتد) بالسكون الـدي على حرف الراء والتشديد الذي على حرف الدال يوحي بالهزة التي شعر بها كل من كـان ينظـر إلى ذلك المشهد، لقد كان الجميع في سكون يترقبون ثم فجأة عاد البصر إلى يعقوب – عليـه السـلام – فتحرك الجميع من عظم ما رأوا. وعندما عاد بصر الأب إليه قال على الفـور: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأتى بكلامه مؤكداً بـ(إن), وقدم الجار والمجرور ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ وذلك لسروره بما منّ الله به عليه من وصول بشائر الله – تعالى – إليه قبل وصول بشارة البشر ولثقته بتحقيق وعـد الله الذي عرفه قديماً من خلال الرؤيا التي رآها ابنه وهو صغير.

وينكسر أولئك الأبناء الذين أذاقوا أباهم من طعم الحياة أمره أمامه معترفين بخطئهم طـالبين منـه الاستغفار لذنوبهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ نادوه الآن بـ(أبانا) ومن قبل كانوا يقولون عنه: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨], و﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسـف: ٩٥] نادوه بهذا هنا استرحاماً واستعطافاً, فما كان من ذلك الأب الرحيم إلا أن آنسهم بأن قبل منهم اعترافهم بخطئهم ووعدهم الاستغفار لهم: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ فقدم الجار والمجرور (لكـم) على المفعول (ربي) ليزيدهم أنساً لكنه سوَّف ذلك الاستغفار إلى وقت ما ولسبب ما !! وختم كلامـه معهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وذلك زيادة في طمأنتهم وإيناسهم والتسرية عنـهم, وجـيء بالكلام مؤكدا بـ (إن) وضمير الفصل (هو).

ثم تأتي تتمة إيناس يعقوب – عليه السلام – فيجتمع بابنه الحبيب ويرى أمامه تحقق تلك الرؤيا التي رآها ابنه قديماً: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾. وفي اختيار (آوى) التي

هي بمعنى (ضم)[١] إيحاءات منها أنها تصور ما كان من يوسف – عليه السلام – المتلهف للقاء أبيه, لقد ضمه إليه ضم المحب الحاني الرؤوف بذلك الشيخ الذي بلغ من الكبر عتيا, وقدم الجار والمجرور (إليه) في الذكر على المتعلق (أبويه) وذلك لأهمية هذا المكان, فيوسف – عليه السلام – لم يكن ليرضى أن يضم أبويه إلا إليه إجلالاً وتعظيماً. ويروى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أن يوسف تلقى أباه قبل أن يدخل مصر إكراماً له وآواه إليه, ثم قال له ولمن معه ذلك القول[٢]. وفي قول يوسف هذا المقال لهم إيناس أيضاً, فقد أشعرهم بأنه لا خوف عليهم في الإقامة في هذه الديار الجديدة, فالمهاجر غالباً ما يكون في توجس عند التفكير في حياته الجديدة, فأراد بذلك القول إزالة تلك الهواجس من نفوسهم وطمأنتهم وإيناسهم, ويعزز هذا أيضاً إطلاق الكل (مصر) وإرادة الجزء لعلاقة الكلية, وهذا المجاز فيه دلالة على أن مصركلها طوع أمرهم يدخلون أي جزء منها شاؤوا. وقد أكرم يوسف أباه إكراماً يليق به فقد رفعه على العرش إجلالاً وإكباراً، ثم ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي ليوسف, لقد خروا له سجداً ليتحقق بذلك تأويل الرؤيا التي رآها قديماً, عندها توجه الابن البار إلى ذلك الأب الرحيم بقوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾.

إن رحمة الله – تعالى – واسعة فقد شملت الأب وجميع أبنائه, فنال كل واحد من الأنس نصيبا على قدر الوحشة التي أصابته. فقد أُونس يوسف وهو في البئر بوحي الله – تعالى – له, وأُونس يعقوب برد ابنه إليه وإكرامه وإجلاله، وأُونس الأبناء بعد اعترافهم بخطئهم بعفو يوسف ، عنهم واستغفار أبيهم لهم.

لقد استخدم لأسلوب الإيناس في هذه القصة العظيمة العديد من الطرق, فنجد التوكيد في مثل قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ في إيناس الله – تعالى – ليوسف: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا

---

(١) المفردات: (أوى).

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٠١/٧.

يَشۡعُرُونَ﴾ ، وقول يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ، و﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ و﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. والتقديم والتأخير، كتقديم (عليكم) على (اليوم) في ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، و﴿لَكُمۡ﴾ على ﴿رَبِّيٓ﴾ في: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾، و(إليه) على (أبويه) في: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾. ونجد العبارة الموحية، كقول يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، وقوله عن أبيه: ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾، وقوله للجميع: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، وتصوير القرآن للقاء الابن بأبيه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾.

ومهما يُقال في هذه الآيات فإنه لا يُحاط بعظمة معانيها وكثرة إيحاءاتها وجزالة عباراتها وبلاغة أساليبها.

الفصل الرابع:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم

ليونس عليه السلام.

أرسل تبارك وتعالى عبده ونبيه (يونس بن متى) – عليه السلام – إلى قوم نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله – عز وجل – فلم يؤمنوا وزادوا في كفرهم وعنادهم حتى سئم منهم فعزم على الرحيل عنهم ووعدهم حلول عذاب الله – تعالى – عليهم ونزوله بهم، فلما خرج من بين أظهرهم وأيقنوا بالهلاك آمنوا وجأروا إلى الله – تبارك وتعالى – فتقبل الله – عز وجل – منهم وصرف عنهم ما كان واقعا بهم. أما يونس – عليه السلام – فقد ركب على ظهر سفينة يريد السفر عليها، فلما توسطت في عرض البحر هاجت بها الأمواج، فتشاور الناس واتفقوا على التخفف من الحمولة وذلك برمي واحد من الركاب، فاقترعوا لذلك فخرجت القرعة على نبي الله يونس – عليه السلام – فلم يرضوا، وأعادوها مرارا وفي كل مرة تخرج عليه دون غيره، فرمى عليه السلام بنفسه فبعث الله إليه بحوت ليبتلعه وكان قد أُوحي إلى هذا الحوت ألا يخدش له لحما ولا يهشم له عظما، وعندما استقر يونس – عليه السلام – في بطنه وأيقن أنه لايزال حيا سجد لله – تعالى – وسمع تسبيح دواب البحر فأخذ هو أيضا في التسبيح والاستغفار قائلا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧] ، فصعدت هذه الكلمات واستقرت تحت العرش وسمعتها الملائكة فاستغفروا له وشفعوا، فأنقذه عز وجل، وجعل الحوت يلفظه على اليابسة، فأنبت – تبارك وتعالى- عليه شجرة من يقطين رحمة بحاله، حتى استعاد عافيته وعاد إلى قومه ووجدهم قد آمنوا بفضل الله تعالى[1].

قال تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية: ١/ ٢٦٧: ٢٧١.

قال تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٨].

قال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨- ٥٠].

ورد في سورة (الأنبياء) ذكر نص النداء الذي أشير إليه في سورة (القلم): ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، والتسبيح الذي في سورة (الصافات): ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾، وهو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقد ذُكر أنه كان ينادي بهذا وهو في الظلمات: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والظلمات هي: (ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت)[1]، وقد أوحى التعبير بـ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بمدى الضيق والشدة التي كان فيها يونس – عليه السلام – مما ألجأه أن ينادي نداء المستغيث الملهوف المعترف بذنبه وخطئه. فكانت رحمة الله – تعالى – له بأن استجاب له ونجاه من الغم ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، والعطف بـ(الفاء) وبناء فعلي "استجبنا " و"نجينا" للمعلوم وإسنادهما إلى ضمير الجلالة لإظهار عناية الله – تعالى – به ورعايته له إذ استجاب له سريعا ونجاه مما

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٧٦/٩.

كان فيه. و (ال) في ﴿ٱلْغَمِّ﴾ للاستغراق، وكأنه لا غم إلا الذي كان فيه، فنجاه – تعالى – من جنس الغم كله ، وهذا بتدارك نعمة ربه له ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [القلم: ٤٩]. وفي بلاغة التعبير بـ" تداركه " أن (التدارك: تفاعل من الدرك بالتحريك وهو اللحاق أي: أن يلحق بعض السائرين بعضا وهو يقتضي تسابقهم وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إياه)[1]. وتنكير ﴿ نِعْمَة ﴾ للتكثير، فنعم الله – تعالى – عليه كثيرة إذ نجاه من بطن الحوت ورعاه بعد لفظه واصطفاه مرة أخرى للرسالة وجعله من الأنبياء الصالحين إلى آخر تلك النعم. ومن تلك النعم أنه أُنبتت عليه شجرة من يقطين ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦]. ولزيادة الامتنان عليه أسند فعل ﴿أَنۢبَتۡنَا ﴾ إلى ضمير الجلالة ، وهذا الإسناد هنا على الحقيقة. وقد أنبت – تعالى – عليه شجرة اليقطين دون غيرها لأن أوراقها ناعمة وكثيرة وظليلة ولا يقرب هذا النوع من النبات الذباب ويؤكل ثمره على أحواله كلها[2]. وعُبر بشبه الجملة ﴿عَلَيۡهِ ﴾ لتصوير هيئة ذلك الإنبات إذ استعلاه هذا النبات فغطاه حماية له وهذا من لطف الله – تعالى – به.

وقد وُصف بأنه من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ، فمثل هذه النجاة لا ينالها إلا المؤمنون.

وحين استعاد عافيته اجتباه ربه وجعله من الصالحين ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]. وفي التعبير بـ﴿رَبُّهُۥ﴾ في قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ وإضافته إلى ضميره زيادة بيان لرضاه عنه وتجاوزه عما بدر منه. وأعاد إرساله إلى قومه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ

---

(١) التحرير والتنوير: ٩٨/٢٩.

(٢) ينظر: البداية والنهاية: ١/ ٢٧٠.

حِينٍ﴾[الصافات: ١٤٧، ١٤٨] ، وهذا من منة الله – تعالى – عليه أيضا إذ علم قلة صبره فجعل القوم يؤمنون فيعيش بينهم دون مقاساة دعوة عتاة مكذبين متكبرين.

لقد تآزر ما في السور الثلاث في بيان منة الله – تعالى – على يونس – عليه السلام – باستجابة دعائه ، ورعايته ، والعناية به ، والتوبة عليه ، واجتبائه. وفي سبيل هذا نجد التنوع في الأساليب البلاغية التي غرضها الإيناس ، كإسناد الأفعال إلى ضمير الجلالة ، واختيار ألفاظ موحية ، وإسناد (رب) إلى الضمير العائد على يونس عليه السلام.

الفصل الخامس:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم

لموسى عليه السلام.

إن المتأمل لقصة موسى – عليه السلام – التي وردت فصول منها كثيرة في العديد من سور القرآن الكريم – حتى أنه أكثر نبي ورد ذكره في القرآن الكريم – يجد أنها اشتملت على العديد من مواطن الإيناس.

كانت البداية بإيناس أمه برده إليها بعد أن أصبح فؤادها فارغاً خوفاً عليه من الهلاك بعد إلقائها إياه في اليم. ثم إيناسه بعد أن وصل أرض مدين طريداً خائفاً فسخر الله – تبارك وتعالى – له من يؤنسه ويزيل مخاوفه في تلك الأرض. ثم أنسه — تعالى – أعظم إيناس.. إيناس لم ينله أحد من البشر بكلامه – تعالى – له، قال تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ
ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا
يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ
بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ
خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً
أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى
﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾
هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ

إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ
لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ
فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ
أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى
ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا
نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٩- ٤٦].

قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ
﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٠- ١٥].

قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ
يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ٧- ١٢].

قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن
يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ
لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ
لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى
هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى

مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا
وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ
قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ
أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ
مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ
إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى
ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ
سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ
عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ
نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ
ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ
أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٧- ٣٥]

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه:٩، ١٠]:

(ذُكر أن ذلك كان في الشتاء ليلاً, وأن موسى كان أضل الطريق)[١], ولهذا كانوا بحاجة إلى النار ليستضيئوا بها وليتدفؤوا كما جاء في قوله تعالى في سورة (النمل): ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [٧]، وقوله تعالى في سورة (القصص): ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [٢٩]:

ويلاحظ أن الآيات الثلاث اتفقت في بعض العبارات بينما اختلفت في بعضها الآخر بالزيادة أو النقص. وربما يكون الغرض من هذا استيعاب المشهد بجميع تفاصيله, فقد يكون ما جاء في (النمل) هو أول ما قاله موسى – عليه السلام – حين رأى النار لاحت له من بعيد, فأخبرهم برؤيته النار وأطمعهم فيها بقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾, ثم يبدو أنهم راجعوه في ذهابه وتركه إياهم في ذلك المنقطع وفي تلك الظلمة مما جعله يقول لهم مصرا على ذهابه وبقائهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ كما ورد ذلك في سورة (طه) وفي سورة (القصص)[٢], ومما يؤيد هذا أنه في سورتي (طه) و (القصص) جاء بحرف الترجي (لعل) زيادة في إطماعهم وصبرهم على ذهابه وتركه إياهم.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٩٥/٨.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: ٩٢٢٨/١٥ ، خواطر فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩١م.

وعبر عن النار التي سيحضرها لهم بـــ(قبس) في (طه) و(شهاب قبس) في (النمل) و(القبس) هـــو: (الشعلة)[١], وعبر عنها في (القصص) بـــ(جذوة) وهو (الذي يبقى من الحطب بعد الالتهاب)[٢], وربما كان اختلاف التعبير راجعا إلى إنه حينما راجعوه وماطلوه قلّ أمله في لحوقه بالنار وهي لازالت مشتعلة وأنه بسبب تأخيرهم إياه قد يصل إلى النار وقد خمدت و لم يعد لها لهيب وأنه لن يحصل منها إلا علـــى جذوة.

أما تكرار قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ في المواضع الثلاثة فهذا دليل على شدة الشعور بالوحشة عنـــدهم في ذلك الموقف فما أن لاحت له النار من بعيد حتى استأنس بها وأراد إخبار أهله فاختار لهـــم اللفـــظ الذي به يُزيل ما يمكن إزالته من شعورهم بالوحشة والخوف (آنست) ترفقاً بهم وتلطفاً.

وكان الغرض الآخر من ذهابه إلى النار هو حاجته إلى من يرشده إلى الطريق الصحيح في سفره بعد أن ضل عنه, فعبر عن ذلك في (طه) بقوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ وفي (النمل) قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ وفي (القصص): ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾, وكلها تؤدي معنى الاسترشاد وطلب الهداية.

والحرف (على) في قوله تعالى في سورة (طه): ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ليس على حقيقتـــه وإنمـــا للاســـتعلاء المجازي, أي: أن من حول النار قد اقترب منها اقتراباً شديداً أشبه الاستعلاء, وذلك الدنو علـــى النـــار رغبة في الاستنارة بضوئها والاصطلاء بها[٣], وهذا فيه دلالة على شدة البرد.

وتنكير (خبر) في آيتي (النمل) و (القصص) لعدم تيقنه – عليه السلام – من أن من سيجدهم علـــى النار سيخبرونه بكل ما يريد معرفته ، فربما يكونون ضالين الطريق مثله.

---

(١) المفردات: (قبس).

(٢) السابق: (جدو)

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/١٠٢.

وفي(طـــه): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [١١-١٣]: (فكانت هذه النار هي أول الإيناس لموسى في هذا المكان الموحش)[١]. يقال أنه - عليه السلام -: (رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضواء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار)[٢].

وعطف بـ(الفاء) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ لكونه استغرق وقتاً حتى وصل إليها. وبُني الفعل للمجهول في ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ باعتبار حال موسى من عدم معرفته لمن يناديه هذا من جهة, ومن جهة أخرى لتشويق السامع إلى متابعة القصة.

ولنتأمل حال موسى - عليه السلام - في تنقله ما بين الوحشة والإيناس, فحين كان ضالاً في الصحراء المظلمة الباردة كان في وحشة وضيق, وبينما هو كذلك إذ به يرى ناراً تلوح من بعيد فيستأنس بها ويستبشر ويبشر أهله وينطلق نحوها, لكنه يفاجأ حين يصل بمنظر عجيب غير الذي كان يتوقع ، منظر يدخل الخوف والرهبة إلى نفسه ، لكن ربه الذي أراد به الخير كله لا يجعل تلك الحالة التي كان عليها تطول, فيناديه نداء المحبة والإيناس, يناديه باسمه (موسى) ليؤنسه (فالذي يناديه يعرفه تماماً, لذلك ناداه باسمه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وما دام الأمر كذلك فطمع الخير فيه موجود)[٣]. ثم ينقله إلى حال من الأنس أعظم.. حال لم ينلها أحد من البشر ، إن الله - تعالى - يكلمه ويعرفه بذاته ويؤنسه بذلك:

---

(١) تفسير الشعراوي: ٩٢٢٩/١٥.

(٢) معالم التنزيل: ٢١٣/٣.

(٣) تفسير الشعراوي: ٩٢٢٩/١٥.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾: جاء الخبر مؤكداً بـ(إن)، (لتحقيقه لأجل غرابته دفعاً لتطرق الشك عن موسى في مصدر هذا الكلام)[١].

و(تكرير الضمير في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة)[٢]. (وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ لإيناس موسى؛ لأن الربوبية عطاء, فخطابه بـ﴿رَبُّكَ﴾ أي الذي يتولى رعايتك وتربيتك, وقد خلقك من عدم, وأمدك من عدم, ولم يقل: إني أنا الله؛ لأن الألوهية مطلوبها تكليف وعبادة وتقييد للحركة)[٣].

والضمير في (ربك) لموسى – عليه السلام – لإرادة تخصيصه, وذلك أنه نبي رسول وهذه الفئة الخاصة من البشر لها تربية من الله – تعالى – خاصة[٤].

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾: (أمره الله – تعالى ذكره – بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي, إذ كان وادياً مقدساً)[٥].

﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾: عرفه أين هو في تلك اللحظة لزيادة إيناسه, وجاء هذا الخبر مؤكداً.

وجاء في (الشعراء): ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [١٠،١١], وجاء في (النمل): ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [٨], وفي (القصص): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [٣٠]: فكأن ما جاء في (النمل) هو إجمال لما جاء

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/١٠٣.

(٢) الكشاف: ٣/٥٤.

(٣) تفسير الشعراوي: ١٥/٩٢٣١.

(٤) ينظر: السابق: ١٥/٩٢٣١.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن: ٨/٣٩٧.

في (طه), أما في (القصص) فقد حدد المكان أولاً ثم ذكر الكلام الذي نُودي به موسى لأن ما جاء في (طه) هو حكاية لما حدث لموسى وقيل له, أما في (القصص) فهو ذكر للخبر على طريق السرد. أما ما ورد في (الشعراء) فقد ورد في (طه) متأخراً: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [٢٤].

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾: اجتبيتك للرسالة[١], و(اصطفيتك للنبوة)[٢].

وفي هذا الخبر مزيد إيناس لموسى – عليه السلام – وقد جاء الفعل ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ ماضياً للدلالة على أن اختيار الله – تعالى – له كان أزلياً, فلأجل هذا الاختيار تولاه عز وجل بالحفظ والرعاية والصناعة حتى قبل أن يولد ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾: بالتأكيد أن موسى وهو في ذلك الموقف المهيب كان منصتاً بجوارحه كلها, ومع ذلك أمر بـ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾, وما هذا إلا للتأكيد عليه لمتابعة الإنصات واستمراره فإن ما قد قيل إنما هو كالمقدمة لتهدئة روعه وإيناسه وأن الكلام الذي سيُقال له مزيد عناية وأهمية: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [١٤]؛ لذلك أعاد عليه التعريف بنفسه مع توحيده, وجاء التعريف هذه المرة بالألوهية: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾: (صاحب التكاليف والمعبود المطاع في الأمر والنهي)[٣], بينما كان التعريف في الآية قبل السابقة بالربوبية: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ (ليطمئنه ويؤنسه بأنه المربي العطوف)[٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٨/٤٠٠.

(٢) الكشاف: ٣/٥٥.

(٣) تفسير الشعراوي: ١٥/٩٢٣٦.

(٤) السابق: ١٥/٩٢٣٦.

ثم أتى بأول التكاليف من الله الذي لا إله إلا هو: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ وقد خص ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ بعد أن عمم ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾, فالعبادة: (الطاعة مع الخضوع)[١], بينما الصلاة جنس من أجناس العبادة, وأفاد هذا التخصيص بعد ذاك التعميم التأكيد على أهمية الصلاة كجنس من أجناس العبادة؛ لما فيها من الصلة الروحانية العظيمة بين العبد وربه وما تدخله إلى النفس من الطمأنينة والخشوع والأنس.

ثم يوجه تعالى إلى موسى استفهاماً تقريرياً: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ، (والحكمة في هذا السؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة)[٢]. واختيار﴿ تِلۡكَ ﴾ للإشارة إلى العصا لغرض التعظيم, كما كرر النداء ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ لزيادة التأنيس[٣].

فأجاب موسى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾: كان الجواب على ذلك السؤال يتم بكلمة واحدة: (عصا) لكن موسى الذي يعرف أن من يتكلم معه هو الله – تبارك وتعالى – أراد الإطالة لما كان يشعر به من الأنس[٤], ولهذا صرح بذكر المسند إليه ﴿ هِي ﴾ ، (وإذا كان الإيناس من الله فعلى العبد أن يستغل هذه الفرصة ويطيل أمد الائتناس بالله عز وجل)[٥].

---

(١) اللسان: (عبد).

(٢) معالم التنزيل: ٢١٤/٣.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٦٥٢/١٦.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي: ٩٢٤٨/١٥.

(٥) السابق: ٩٢٤٨/١٥.

﴿عَصَايَ﴾: (نسبها عليه السلام إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام)[١].

ونسبة موسى – عليه السلام – العصا إليه تدخل علينا شعوراً بمدى الألفة بين موسى وتلك العصا التي كانت معه, فلطول ملازمته إياها وملازمتها إياه أصبحت بينهما علاقة ودّ بالرغم من أنها جماد, فهكذا هم الصفوة من عباد الله – تعالى – يتصفون بمعاني الوفاء والرحمة و الإحساس كلها حتى مع الجمادات.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: الإجمال في قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ (يحتمل أن يكون رجاء أن يسأله سبحانه عن تلك المآرب فيسمع كلامه عز وجل مرة أخرى وتطول المكالمة وتزداد اللذاذة التي لأجلها أطنب أولاً)[٢].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [١٩-٢١]: في تكرار النداء ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ مزيد إيناس.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: استعملت (إذا) الفجائية لتصوير الحال التي كان عليها موسى من التفاجؤ. و(الحية) هي: (الحنش ويكون للذكر والأنثى)[٣], ووصف حركتها بالسعي الذي هو المشي السريع[٤] – مع أن من صفاتها الزحف لا المشي – مجاز، فقد شُبهت في سرعة حركتها بمن يمشي سريعاً فهي استعارة تصريحية تبعية. وأفاد هذا التصوير تهويل شأنها بتهويل شكلها وحركتها ليتمكن المتلقي من تصور الشعور الذي تملك موسى عند رؤيته لذلك المنظر, لقد خاف موسى خوفاً شديداً, وجاء تصوير

---

(١) روح المعاني: ١٦/٦٥٠.

(٢) السابق: ١٦/٦٥٢, ٦٥٣.

(٣) ينظر: اللسان: (حيا).

(٤) المفردات: (سعى).

هذا المشهد في (النمل والقصص): ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠] و[القصص: ٣١], فنرى أن السياق في (طه) لم يذكر هذا «إنما يكتفي بالإشارة الخفية إلى ما نال موسى – عليه السلام – من خوف: ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيداً»[1]. ثم نجد أيضاً الاختلاف في السور الثلاث في ذكر ماتلا ذلك, ففي (طه) قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[٢١], وفي (النمل) قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١٠، ١١], وفي(القصص) قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [٣١]. ففي (طه): ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾: فأشار فقط إشارة إلى أن إحساساً من الخوف داخل موسى, فطمأنه ربه – تعالى – ونهاه عن الخوف, ولم يصف ما آلت إليه (العصا) إلا بأنها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾. بينما في (النمل) و(القصص) جاء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فأشار إلى حالة الرعب التي أصابته – عليه السلام – والخوف الذي ألم به بوصف سلوكه الظاهري بأنه ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وذلك أنه وصف ما آلت إليه (العصا) بوصف مفزع ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ فاحتاج الأمر في السورتين الأخيرتين إلى تكرار النداء: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾, فقد أصبح موسى بعيداً عن المكان الذي كان يقف فيه بسبب توليه ولإيناسه أيضاً وطمأنته.

وقد أورد في سورة (طه) مبرر أمره بأخذها وعدم الخوف وهو أنه تعالى سيعيدها إلى سالف عهدها من الصورة التي كانت عليها: (عصا). بينما ذكر في (النمل) مبرر عدم الخوف: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾, وفي (القصص): ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾: وهما يقربان من أن يكونا مكملين لبعضهما, فهو

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٣٢/٤، لسيد قطب، ط١٥، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

من الآمنين لأنه لا يخاف لدى الرب الرسل, وفي هذا كله إيناس له – عليه السلام – من ربه الكبير المتعال.

وجاء في (طه): ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [٢٢-٢٤], وفي (النمل): ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [١٢], وفي (القصص): ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [٣٢]:

في (طه): ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾, وفي (النمل): ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾, وفي (القصص): ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾: أمر الله – تبارك وتعالى – موسى – عليه السلام – أن يضع يده اليمنى تحت عضده الأيسر من خلال إدخالها في جيب قميصه. وعُبر عن العضد وما تحته من الجنب والإبط بالجناح[1], وذلك لوجوده في جانب جسد الإنسان يميناً ويساراً تشبيهاً بجناح الطائر على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والآيات الثلاث مكملة للهيئة التي طُلب من موسى فعلها, فلكي يضم يده إلى جناحه عليه إدخالها في جيب قميصه, وعُبر عن هذا الإدخال في (القصص) بـ(اسلك)، فـ(السُّلوك: مصدر سلك طريقاً وسلك المكان)[2], و(السَّلك بالفتح: مصدر سلكت الشيء في الشيء فانسلك أي أدخلته فيه

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٨ /٤٠٨.

(٢) اللسان: (سلك).

فدخل)[١], وقد يفهم من هذا أنه اختير التعبير بـ (السلك) لما يوحي به من السهولة واليسر في الإدخال.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: أي بيضاء لها نور من غير عيب من مرض كالبرص[٢]. وورد هذا التعبير القرآني في السور الثلاث, والمقصود منه تعليل طلب ضم يده إلى جناحه من ناحية، ومن ناحية أخرى طمأنته عليه السلام, فإنه إن لم يُخبر مسبقاً بما ستؤول إليه يده من البياض المنير المشرق فقد يدخل إلى نفسه الروع والخوف مرة أخرى كما حدث مع آية العصا عندما اهتزت كأنها جان.

في (طه) جاء قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾, وفي (الشعراء): ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [١٠، ١١], وفي (النمل): ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾, وفي (القصص): ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾:

ذُكر في (طه) علة إظهار موسى – عليه السلام – على تلكما الآيتين, والعلة في ذلك كانت لأجل موسى نفسه ليرى من آيات الله – تبارك وتعالى – آيات كبرى, بينما في (النمل) و (القصص) ذكر أن تلكما الآيتين – بالإضافة إلى سبع غيرهما كما جاءت في (النمل) – من أجل فرعون وقومه للتأكيد على صدق الرسالة. بينما لم يرد ذكر الآيتين في (الشعراء) بل ذُكر الأمر مباشرة بإتيان قوم فرعون. وهذا كله ليطمئنه بأنه مؤيد وسيظل كذلك بالآيات من الله – عز وجل – لما كان في نفسه من الخوف الشديد من فرعون وملائه.

---

(١) اللسان: (سلك).

(٢) ينظر: معالم التنزيل : ٣/ ٢١٥.

ثم إنه ذُكر في (طه) الأمر لموسى بالذهاب لفرعون بمفرده لأنه طغى, فما أن سمع موسى ذلك حتى قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [٢٥-٣٥].

وفي (الشعراء) لما جاء بذكر ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ كان رد موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[١٢-١٤].

بينما ورد في (القصص) قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [٣٣،٣٤]:

فيلاحظ في (طه) أن كلام موسى كان تلفه الراحة ويكتنفه الهدوء, وجاء مرتباً, فابتدأ بأعماق نفسه وما هي بحاجة إليه لتستعين به على هذه المهمة الشاقة, ثم طلب إزالة ما بجسده من عيب قد يعيقه عن أداء مهمته على أكمل وجه وهي العقدة التي كانت في لسانه والتي يتسبب عنها عدم قدرة من يسمعه على فهمه, ثم انتقل إلى حاجته إلى من يقف إلى جانبه في أداء هذه المهمة ثم علل طلبه ذلك بأنه رغبة منه في تسبيح الله – تعالى – كثيراً وذكره كثيراً.

بينما نجد أن الخوف يلف آيات (الشعراء): فهو يخاف من أن يكذبه قوم فرعون, وقد يترتب على ذلك الخوف أن يضيق صدره ولا ينطلق لسانه؛ لذلك سأل الله – تبارك وتعالى – أن يرسل معه أخاه هارون, وكذلك هو يخاف أن يبادروه بالقتل للذنب القديم الذي لم ينسوه. ومشاعر الخوف نفسها نجدها في آيات (القصص) غير أنه قدم خوفه من القتل على خوفه من أن يكذبوه, وربما ذلك لما ورد في السورة المباركة من ذكرٍ مفصل لحادثة قتله للمصري وخروجه على إثر ذلك من مصر إلى مدين

وما تلا ذلك من أحداث, كما ذُكر هنا سبب طلبه من الله – تعالى – إرسال أخيه هارون معه, وذلك حتى يكمل النقص الذي فيه وهو أن هارون – عليه السلام – أفصح منه.

فجاء رد الله – تبارك وتعالى – في (طه): ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [٣٦], وفي (الشعراء): ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [١٥], وفي (القصص): ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [٣٥]: لما كان كلام موسى – عليه السلام – في (طه) دعاء, ولما كان سياق الآيات فيه ما فيه من إيناس موسى نجد أن رد الله – تبارك وتعالى – كان رداً يتناسب مع ذلك, حيث قال تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾, كما أنه أعاد نداءه باسمه للغرض نفسه.

أما في (الشعراء) فنجد أن رد الله – تبارك وتعالى – كان رداً موجزاً (كلا) نفيٌ لجميع تلك المخاوف التي كانت تجول بخاطر موسى, ثم أعاد عليه وعلى أخيه الأمر ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وطمأنهما بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾.

وفي (القصص) نجد أن الله – تبارك وتعالى – يُعلم نبيه أنه استجاب له طلبه في إرسال أخيه هارون معه ليكون ردءاً فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾, ثم يذكر له ما يبدد مخاوفه من اعتداء فرعون وقومه عليه وعلى أخيه فيقول: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ ويؤكد على ذلك بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

وينتهي إيناس موسى – عليه السلام – وتطمينه إلى أن الله – تعالى – معه ومع أخيه في سورتي (الشعراء) و (القصص) وقد انتهى من قبل في (النمل). بينما نجد في (طه) استفاضة في تفاصيل المحاورة بين موسى وربه – تبارك وتعالى –, فتُذكر مخاوف موسى التي أُجملت في (الشعراء) و(القصص),

ويذكر فيها كثرة مراجعة موسى لربه في إرساله إلى فرعون وقومه إلى أن طمأنه ربه – تبارك وتعالى – كل الطمأنة وهدأ من روعه وشرح صدره للأمر العظيم المكلف به. وقبل ذلك نجد أن الله – جل في علاه – حين ذكر لموسى أنه قد أجاب دعواته ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ نجده يخبره بأنها ليست هذه هي المرة الأولى التي منَّ بها عليه وأجاب دعواته, فقد سبق أن امتن عليه بمنن أخرى من غير سؤال منه ولا طلب, وذلك لأمر عظيم: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾, فقد امنن عليه تعالى بتلك المنن لأنه يريد أن يصنعه لأمر عظيم، تقول الآيات: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [٣٧- ٤٦].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وقد ورد ذكر هذا المشهد في سورة (القصص): ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [٧،٨], ويلاحظ أن الأسلوب في السورتين مختلف, فقد فصل في (القصص) في حين أجمل

في (طه)؛ لأن الغرض من ذكر ما ذُكر في (طه) هـــو لإخبار موسى – عليه السلام – بما امتن به عليه من المحافظة عليه من القتل والنجاة من الغرق في اليم ووصوله إلى يد عدوه وعدم مقدرة عدوه على قتله رغم أنه بين يديه؛ لذلك تناسب إيراد الخبر مقتضباً وبألفاظ قوية مثل: (اقذفيه) و (فليلقه) وذلك زيادة في الامتنان.

بينما في (القصص) كان الغرض هو بيان كيف مكّن الله – تعـــالى – لـــبني إســـرائيل في الأرض, فجاءت الأخبار مفصلة وبأسلوب متئد.

وقوله تعالى في (طه): ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ جاء تفصيله في (القصص): ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩], فمنعه تعالى من القتل بمحبة ألقاها في نفس كل من يراه, وكانت أولهم ﴿ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾.

وفي (طه): ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، وفي (القصص): ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١١-١٣]. نلاحظ أن الخطاب في (طه) لموسى: ﴿أُخْتُكَ﴾ و﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾ و﴿أُمِّكَ﴾, بينما الكلام في (القصص) كله على الغيبة: ﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ و﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ و﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ﴾ و﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾.

وعُبر في سورة (طه) بـــ﴿رَجَعْنَاكَ﴾, وفي سورة (القصص) بـــ﴿رَدَدْنَاه﴾, وهناك فرق بين (الرجـــوع) و(الرد), فـــ(الرجوع): يفيد العود إلى حيث كانت البداية[١], و (الرد): «صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله»[٢], فكان اختيار (الرجوع) في مقام إيناس موسى والامتنان عليه أبلغ, ففي الإرجاع امتنان على موسى بإعادته إلى حيث كان وهو بيت أمه آمناً. أما في (القصص) فلأن الأسلوب كان إخباراً عن القصة من بدايتها وتفصيل حال أم موسى وما كانت عليه من حزن وغم وخوف على وليدها ناســـب التعبير بـــ(الرد) لأنه يفيد ردَّ ابنها إليها بذاته وهذا ما تقر به عينها وفي هذا إيناس لها.

وفي قوله في (طه): ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ منة على موسى أيضاً بأنه أزال الحزن عن أمه فالنعمة على الآباء نعمة للأبناء: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل: ١٩].

وفي (طه) جاء قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾, وهو ما جاء تفصـــيله في (القصص): من الآيـــة [١٤]: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾ حـــتى الآيـــة [٢٥] ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾:

ففي قول شعيب – عليه السلام – لموســـى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ طمأنـــة لموسى وإدخال الأمن إلى نفسه الوجلة الخائفة.

وفي (طه): ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [٤٠], وفي (القصص): ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ

(١) ينظر: المفردات: (رجع).

(٢) السابق : (ردَّ).

سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [٢٦ -٢٩].

ثم جاء في (طه): ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾: أي (أنعمت عليك يا موسى هذه النعم, ومننت عليك هذه المنن, اجتباء مني لك, واختياراً لرسالتي والبلاغ عني)[1].

وفي (طه): ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [٤٢- ٤٦], وقد جاء مثل هذا المعنى في سورة (الشعراء) في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [١٥].

فهنا نجد الطمأنة والإيناس ليس لموسى وحده, بل لأخيه هارون أيضاً, فقد أشركه تعالى مع أخيه في الرسالة, فكان في نفس هارون خوف أيضاً من فرعون وملئه, فطمأنهما تعالى بأنه معهما يسمع ويرى, وفي المجيء بـ(معكما) و (معكم) مزيد إيناس؛ لما فيها من إعلامهما بأن الله - تعالى - معهما ولن يتخلى عنهما. وحذف مفعول ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ و ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ ليتيح تقديره بكل ما يُسمع ويُرى وفي هذا دليل على إحاطته تعالى بكل شيء.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٨ /٤١٨.

وأخيراً نلاحظ أنه في (طه) رُكز على جانب الإيناس, فجاءت الأساليب والألفاظ والعبارات لخدمة هذا الغرض, بينما لم يكن الأمر كذلك في بقية السور وهي (الشعراء والنمل والقصص) ومع ذلـــك لم تخل من إيناسه عليه السلام وإن لم يكن ذلك بالدرجة نفسها.

الفصل السادس:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم

لمريم -عليها السلام- عند حملها وولادتها.

لقد اصطفى تبارك وتعالى مريم – عليها السلام – على نساء العالمين، وجاء ذكر ذلك في سورتي (آل عمران و مريم). وكان اصطفاؤه – تعالى – لها لأمر عظيم ، لتكون آية بما سيخلقه الله – تعالى – في رحمها من بشر من غير وجود الأسباب الطبيعية لذلك. ووردت تفاصيل هذه المعجزة في سورة (مريم). والمتأمل لما ورد في القرآن الكريم عن مريم يدرك الدرجة الرفيعة التي بلغتها من الطهر والعفاف والخير والصلاح، وإن الحمل من غير زوج لمصيبة عظيمة لمن هي أقل منها بكثير طهرا وصلاحا !! فكيف يكون الأمر معها؟!! لقد كانت مصيبتها عظيمة، استوحشت منها أيما استيحاش !! لذا استحقت الإيناس من الله – تبارك وتعالى – فقد أوجد فيها آية من آياته. قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥- ٣٧] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٢- ٤٩].

وقـــال تعـــالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ١٦- ٢٦].

لقد صُورت شخصية مريم من خلال ما ذُكر عن ميلادها ونشأتها وحياتها، فعُرف من خلال ذلك مدى رعايته – تعالى – لها وعنايته بها، فهي المصطفاة على نساء العالمين، قال تعـــالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن

يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، وقال عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾. لقد أعدها تعالى إعدادا خاصا لتكون أهلا للاصطفاء، وأهلا لجعلها آية.

وقد ورد في السورة نفسها أيضا إخبار الملائكة لها بالمعجزة التي ستحدث من خلالها، وبشروها بصفات ابنها الطيبة، و لم يرد عنها إلا ذلك الاستفهام الإنكاري التعجبي من هذا الأمر، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. وقد أُكدت بشارة الله – تعالى – لها على لسان الملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، والمقصود بالكلمة (عيسى) عليه السلام، وتُجوز في استعمال (كلمة) عن (المسيح) لكونه تكون بها من غير أب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ إذ إن الكلمة لا تتصف بهذا[1]. واستعملت (منه) لابتداء الغاية مجازا[2]، فهي مبتدأة دون واسطة ما اعتيد عليه من أسباب[3]. ثم قال: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فذُكر أولا بلقبه (المسيح) ليفيد علو درجته، ثم ذُكر اسمه (عيسى)[4] ، ثم قيل: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لتعلم أمه أنه

---

(١) ينظر: كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ٢٥، للإمام / شمس الدين محمد بن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن ، القاهرة.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٢١٢/٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/ ٩٦.

(٤) ينظر: التفسير الكبير: ٢٢٣/٨.

يولد من غير أب فلا ينسب إلا إليها[١]. وفي هذا رحمة من الله – تعالى – بها، لإيقافها على ما سيحدث لها لتكون على بينة من الأمر فلا تُفاجأ به.

ثم تُذكر لها صفاته: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وكذلك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وكل ما ذُكر بشائر لها، فوليدها سيكون ذا وجاهة في الدنيا ومنزلة عالية عند ربه[٢]، ومن الذين يقربهم تعالى إليه يوم القيامة فيسكنهم في جواره[٣]. ثم أُشير إشارة سريعة إلى معجزة تكلمه في المهد، التي ستكون دليل براءة أمه وطهارة ساحتها. كما بُشرت بأنه سيكون من الصالحين، وأنه رسول من رب العالمين إلى بني إسرائيل.

وقد ورد خلال هذه الآيات أنها استفهمت فقط استفهاما إنكاريا تعجبيا عن حملها دون أن يمسها بشر: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فأُجيبت: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

بينما ورد تفصيل خبر حملها، ومعاناتها جراء ذلك، وولادتها، وحزنها وغمها مما كانت فيه، ثم حدوث معجزة تكلم ابنها معها ثم مع قومها في سورة (مريم). وفيها نجد تصوير ما كانت تشعر به من الخوف والوجل والحزن والغم، وما تبع ذلك من إيناس الله – تعالى – لها لتخفيف ما كانت تشعر به من آلام نفسية وجسدية.

---

(١) ينظر: الكشاف: ١/٣٦٣.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/ ٢٧٠.

(٣) ينظر: السابق: ٣/٢٧٠.

لقد تنحت مريم عن أهلها جانبا، وجعلت بينها وبينهم حجابا؛ طلبا للخلوة لئلا تُشغل عن العبادة[1]: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾، وهناك أرسل تعالى إليها جبريل – عليه السلام – متمثلا في صورة بشرية سوية: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾، فنجد ردة فعلها يملؤها الفزع وتلفها المفاجأة من بروز بشر لها من حيث لا تتوقع، فتبادره بالاستعاذة منه: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؟!! فيهدئ من روعها قائلا: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ باستخدام أسلوب القصر، ليؤكد لها أنه ليس شيئا غير ذلك، وجيء بـ(إنما) التي تستعمل فيما لا ينكره المخاطب ولا يجهله، أو لمن يترل هذه المترلة وهو هنا لإنزال مريم مترلة غير المنكر لما سبق لها من الاعتياد على رؤية الكثير من الكرامات.

وفي ﴿رَبِّكِ﴾ جاءت الإضافة إلى ضميرها لتعظيم شأنها، ولطمأنتها وتخفيف هول المفاجأة. ثم أبلغها الرسالة التي أُرسل بها إليها من الله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، وهنا تكون دهشتها، ويكون تعجبها واستنكارها، فتعبر عنه بصيغة الاستفهام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾؟!! فيجيبها الملك بما تدرك منه أنه لا فائدة من مراجعتها الأمر أو عدم تقبلها له فـ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾.

ثم يذكر السياق حملها بعيسى – عليه السلام – وتباعدها به عن أهلها، ولا يأتي ذكر لكيفية ذلك الحمل، بينما يُذكر ذلك في سور أخرى، ففي سورة (الأنبياء) جاء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٢١/٥٢٠.

فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [٩١]، وفي سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [١٢].

ونعود إلى سورة (مريم) حيث يفصل السياق ولادتها وما تلا ذلك: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، ولنا أن نتخيل حجم المعاناة التي كانت فيها مريم، ولشدة معاناتها تمنت لو كانت ماتت قبل تلك اللحظة ونُسيت ولم يعد لها ذكر. وعند هذه اللحظة يحين موعدها مع إيناس الله - تبارك وتعالى - لها، لقد أنطق وليدها ليكون هو مصدر طمأنتها وتهدئة روعها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، فعندما كانت في تلك الحالة من الحزن والألم والخوف والوجل تُفاجأ أن مولودها يناديها من تحتها، وجيء بقيد ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ للدلالة على أنه ناداها حال وضعها له قبل أن ترفعه مبادرا إياها الكلام إيناسا لها وتسلية[١]. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ تفسير للنداء[٢]. وعلل النهي عن الحزن[٣] بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، فما هي فيه جدير بالمسرة لا بالحزن لما خصها به تعالى من الكرامة[٤]. وبُدئت الجملة بحرف التحقيق (قد) تأكيدا للخبر، و (جعل) هنا بمعنى: (أوجد)[٥]، و(السري) هو: جدول الماء[٦]، فقد جعل تعالى الماء يجري تحتها، وذلك الماء قد أوجده عز وجل لها

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/١٦.

(٢) ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ٣٢٩/٣ ، لمحمد علي الشوكاني، عالم الكتب.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٥٣٤/١٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/١٦.

(٥) المفردات: (جعل).

(٦) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٢٨/١٦.

إيجادا في تلك اللحظات[١]، فلو كان موجودا حين وصولها إلى جذع النخلة ما كانت هناك حاجة إلى إعلامها به على سبيل التسرية عنها والإيناس لها والتخفيف من حزنها؛ لأنها ستكون قد رأته مسبقا. وفي التعرض لعنوان الربوبية "ربك" وإضافته إلى ضميرها زيادة في تشريفها وتكميل لتسليتها[٢]، فالذي وهب لها هذه الهبة لن يتخلى عنها، فهي أمته التي اصطفاها على نساء العالمين لتكون هي وابنها آية.

ثم أردف قائلا: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ٢٦﴾، طلب منها أن تهز جذع النخلة ليتساقط الرطب لتأكل منه. وعُدي الفعل (هزي) بـ(إلى)، لأنه ضُمن معنى الميل أي إلى جهتك[٣]. وعُبر بـ(تساقط) الذي على وزن (تفاعل) للدلالة على المبالغة في التساقط[٤]، ويقصد بـ (جنيا): مجني، وهو المأخوذ حديثا فيظل على طراوته مع طيب طعمه[٥]. ثم بعد أن توفر لها الطعام الطيب والماء الطاهر طلب منها: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾، طلب منها أن تأكل وأن تشرب وهي قريرة العين هادئة النفس، فهي في رعاية الله – عز وجل –. وقدم الأكل على الشرب مع أن السري مقدم على الرطب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى الشرب[٦]. وحزن مريم لم يكن بسبب فقد الطعام والشراب بل من الحال التي كانت فيها فجاءت تسليتها بالطعام والشراب من حيث إنهما معجزتان لها[٧]. فكما ذُكر سابقا أن السري لم يكن موجودا حينما وصلت إلى ذلك المكان، بل أوجده تعالى لها إيجادا بعد ذلك. ويروى أن جذع النخلة الذي ألجأها المخاض إليه ثم أُمرت بهزه كان نخلة

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: ٣/ ١٩٣.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٥٣٤/١٦.

(٣) ينظر: السابق: ٥٣٤/١٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/١٦.

(٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٣٢/١٦، وينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/١٦.

(٦) ينظر: فتح القدير: ٣/ ٣٢٩.

(٧) ينظر: الكشاف: ١٣/٣.

يابسة[١]، وعندما هزتها تساقط عليها منها الرطب معجزة لها. وقوله: ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ كناية عن السرور وهناء العيش والأنس بالطفل والتدليل على ضمان سلامته ونباهة شأنه[٢].

ثم أتم تعالى إيناسها بضمانه لها الدفاع عنها.. عن طهارتها وعفافها، فهذا هو مربط الفرس.. هذا هو الأمر الذي يكاد قلبها ينخلع له فرقا، فيقال لها: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أُمرت بالصمت التام أمام الناس كلهم فليس عليها أبدا أن تقول شيئا ولو يسيرا دفاعا عن نفسها؛ لأنه – عز وجل – قد تكفل بذلك. وفي قوله: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ تعبير بـ(القول) (قولي) للدلالة على الحال[٣]. وخُص بالذكر اسم الله – تعالى – (الرحمن) لرحمته – تعالى – بها إذ تكفل بتبرئة ساحتها مما سترمى به، بإنطاقه لعيسى – عليه السلام – للدفاع عنها. وجاء ﴿إِنسِيًّا﴾ نكرة في سياق النفي فأفاد العموم، أي: لن أكلم أحدا أبدا[٤].

وبهذا رأينا عظمة الإيناس الذي أنست به مريم عليها السلام، فقد خفف عنها آلامها الجسدية والنفسية لأنه راعاهما معا.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١٦/٣٣٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/٢٨.

(٣) ينظر: السابق: ١٦/٣٠.

(٤) ينظر: السابق: ١٦ /٣١.

الباب الثاني:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق أحوال المخاطبين :

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق إيذاء النبي ﷺ.

الفصل الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق حياة النبي ﷺ الشخصية.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق الغزوات.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق التشريع.

تـــوطـــــئـــــة:

إن المقصود بالمخاطبين هنا هم النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام بداية ثم بقية المسلمين آخراً إذا لم يكن للآيات محل الدراسة خصوصية في توجهها إلى معين.

وقد احتوى هذا الباب جوانب من حياة النبي العامة والخاصة التي كانت وحشته فيها ظاهرة، كالذي كان يلقاه من إيذاء المشركين وسخريتهم وصدهم حتى بلغ بهم أن أخرجوه من أرضه وموطنه. وكذلك الإيذاء الذي لحق به وبأهل بيته من المنافقين فيما أشاعوه من خبر الإفك.

ونجد في الغزوات ما اشترك معه الصحابة فيه كما في الخندق وصلح الحديبية، وما تعلق بالصحابة فقط كما في أحد وتبوك.

وحيث إن الصحابة كانوا يلاقون في مسيرة حياتهم ما يتسبب في لحوق الوحشة والألم بهم فإن القرآن كان يترل بشرائع تخفف عنهم هذه الآلام وتزيل عنهم تلك الوحشة، إنه شرع الله الحكيم الذي لم يأتِ إلا لإسعاد البشرية.

الفصل الأول:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق إيذاء النبي ﷺ.

لقد لحق بالنبي عليه الصلاة والسلام الكثير من إيذاء قومه، وواجهوه بذلك منذ اللحظة الأولى. وكانوا يتحينون الفرص للنيل منه. من ذلك حادثة انقطاع الوحي عنه لفترة من الزمن فكان ذلك سبباً في شماتتهم به- فدته نفسي- وسخريتهم منه.

فقد (مكث رسول الله ﷺ أياما لا يترل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾)[1].

وورد في كتب السير أن النبي ﷺ كان في وحشة وكربة جراء انقطاع الوحي عنه، حتى إنه من ضيق نفسه ﷺ كان يهون عليه التردي من شاهق ولا أن ينقطع الوحي عنه[2]. وهنا أنزل تعالى سورتين عظيمتين لإيناس نبيه وحبيبه ﷺ والرد على الشامتين وإسكاتهم وإخراس أفواههم، إنهما سورتا (الضحى والشرح). قال تعالى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١- ١١].

وقال تعالى:

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ١- ٨].

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ٢٣٠ ، للعلامة/ جلال الدين السيوطي، قدم له وراجعه: الشيخ/ حسن تميم، ط٨، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٧٨، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. وينظر: البداية والنهاية: ٢/ ٢٧٥.

إن سورة (الضحى) قد صدرت بالقسم في قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ تشويقا لما يرد بعد القسم، وللإشعار بأن ما سيأتي بعد القسم أمر من الأمور المهمة التي يجب أن يتنبه لها وأن يشحذ الذهن لتلقيها. وفي إطالة القسم مزيد من التشويق وبث الاستعداد لتلقى الأمر الهام.

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾: جاء في اللسان: (الضحى حين تطلع الشمس فيصفو ضوءها)[١].

و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: ﴿سَجَىٰ﴾: (أي: سكن)[٢]، وفي اللسان: (إذا أظلم وركد في طوله)[٣].

أقسم عز وجل بأشد الأوقات ضياء، وبأعتم ساعات الليل، وقد ورد في كتب التفسير تأويلات عديدة للسبب الذي من أجله خصصهما بالقسم، إلا أن أقربها إلى جو الإيناس المراد من هذه السورة والسورة التي تليها (الشرح) هو ما جاء في التفسير الكبير: (كأنه تعالى يقول: الزمان ساعة فساعة، ساعة ليل وساعة نهار، ثم يزداد، فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، ومرة بالعكس، فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى، بل للحكمة، كذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح، فمرة إنزال ومرة حبس، فلا كان الإنزال عن هوى، ولا كان الحبس عن قلى)[٤]. فكأن زمن إنزال الوحي أضوأ ساعات النهار وزمن إعتام الليل وشدة ظلمته هو زمن انقطاع الوحي وعدم تنزله.وكذلك أن الوحي في تلك الفترة كان قد أجهده – صلى الله تعالى عليه وسلم – إجهادا كبيرا، فكان لابد له من راحة يُستأنف بعدها الوحي حيث يكون – عليه الصلاة والسلام – أكثر نشاطا وقدرة على استقبال الوحي وأشد تلهفا له[٥].

---

(١) اللسان : (ضحا).

(٢) المفردات: (سجى).

(٣) اللسان : (سجا).

(٤) التفسير الكبير: ٣١ / ١٩١.

(٥) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن الكريم : ٥١٦ ، للشيخ محمد متولي الشعراوي ، دار العودة ببيروت، ١٩٨٩م.

وتقديم ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ على ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ لإضفاء جو التفاؤل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام. وقد وقع ما وقع في نفسه ﷺ من الوحشة والضيق ربما لأنه لم يكن على علم بحكمة انقطاع الوحي عنه ، كما أن المحب لا يطيق فراق حبيبه ولا يحتمله[1]. (فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده بلا زاد وبلا ري وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود، وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه) [2].

ويتضح الطباق بين قوله: ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ و ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ وهذا الطباق قد أبرز المعنى وأوضحه ، وهو المفارقة الشديدة والهوة البعيدة بين الحالين إذ إن الأول وقت مضيء منير ، والثاني وقت معتم مظلم وكأن هذا الطباق يشير إلى الحالة التي كان عليها الرسول – صلى الله تعالى عليه وسلم – بعد إعادة تنزل الوحي من فرح وسرور وبهجة، وكأن توقف الوحي جعل الحياة حول النبي معتمة وإعادته جعلها مضيئة منيرة.

وجاء القسم بـ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ بالاسم المعرف ، بينما القسم بالوقت الذي تشتد فيه ظلمة الليل ويسكن عُبر عنه بالظرف ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، ربما يرجع ذلك إلى درجة بروز كل منهما، فالضحى مشرق مضيء، وبعكسه زمن سجو الليل شديد العتمة الساكن.

وآثر التعبير القرآني التعبير بـ(إذا) بدلا من (إن)؛ لأن سجو الليل أمر محقق الوقوع؛ فهذه سنة الله الواقعة في الدنيا التي خلقها للبشر فما هي إلا نهار تملؤه الحركة ثم يعقبه ليل يملؤه السكون، و(إذا)[3] من شأنها أن تستعمل فيما هو كثير الحدوث متيقن الوقوع، أما (إن) فتستعمل فيما هو من شأنه أن يكون

---

(١) ينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ٢٦٦، لـ / محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م. وجاء فيه أن بعض المحبين قال :

ما أحسن الصبر وأما على ... أن لا أرى وجهك يوما فلا

لو أن يوما منك أو ساعة ... تباع بالدنيا إذا ما غلا

(٢) في ظلال القرآن: ٣٠ / ٣٩٢٥.

(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني : ٣٦٧ ، صنعة الحسن بن قاسم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان.

قليل الحدوث أو نادر الوقوع أو يشك في وقوعه؛ لذا صاحب (إذا) الفعل الماضي لفظا ﴿سَجَىٰ﴾ الـــذي يشعر بحتمية الوقوع.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾: جواب القسم. واختير التعبير بـــ(ودع) دون غيرها من الكلمات الدالـــة على الترك أو الهجر لمشاكلة قول المشركين الذين زعموا ذلك، وقد كان من المتعارف عليه لدى العرب أن التوديع يكون لتشييع المسافر[1]، فقد شبهوا حال النبي – عليه الصلاة والسلام – بحال من سافر عنه من يحب وابتعد رغما عنه، و لم يستخدم (الهجر) مثلا لأن المرء هو الذي يقرر هجر الآخر أو الشـــيء لتحقيق مصلحة من المصالح.

والتعبير بالماضي في (ودع) و (قلى) للتأكيد على نفي حدوث أي توديع أو قلى في كل حين مـــن الأزمنة الماضية لا كما زعم المشركون.

وإيثار التعبير بلفظ الربوبية في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ بدلا من لفظ الألوهية ولما يشعر به هذا اللفظ من معنى التربية والحنو والعطف والرعاية التي هو ﷺ في أمس الحاجة إليها في تلك اللحظات. وإضافة (رب) إلى (كاف الخطاب) التي تعود إليه ﷺ توحي بالعظم والكرامة والشرف، وهذه المعاني تأتي من إضـــافته إلى ربه العظيم، وكأن هذه الإضافة أتى بها الله عز وجل بمترلة النصرة لنبيه الكريم والإعزاز له في وقت شعر فيه ﷺ بالضعف وشماتة الأعداء.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: (القلى: شدة البغض)[2]، وحذف (كاف الخطاب) من آخر الفعل قيـــل للاختصـــار اللفظي لظهور المحذوف[3]، إلا أن هناك رأيا آخر في قيمة هذا الحذف يتمثل في أن: (حذف الكاف من

---

(١) ينظر: المفردات: (ودع).

(٢) السابق: (قلى).

(٣) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٣ / ١٩٧٥ ، للإمام / عبد الله النسفي ، قدم له الشيخ : قاسم الرفاعي ، راجعـــه وضـــبطه وأشرف عليه الشيخ : إبراهيم رمضان ، ط ١ ، دار القلم ،بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨هـــ- ١٩٨٩م.

(قلى) مع دلالة السياق عليها تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول: (قلاك) لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض. وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون وداع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء)[١].

ووصل جملة: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ بما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى ، كما أن الجملتين اشتركتا في نفي توديع الله – سبحانه وتعالى – وبغضه لنبيه ﷺ وإثبات الحب والمودة له – عليه الصلاة والسلام – وإدخال الأنس والطمأنينة في قلبه ﷺ.

ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يكتف بنفي التوديع للرسول – صلى الله عليه وسلم – وإنما نفي القلى مع أن نفي التوديع يشمله ذلك (للإتيان على إبطال مقالتي المشركين إذ قال بعضهم: ودعه ربه، وقال بعضهم قلاه ربه يريدون التهكم)[٢]، وكأنه – تعالى – أتى بنفي القلى احتراسا وتكميلا حتى لا يتوهم أحد من المشركين أن الله – سبحانه وتعالى – قد نفي التوديع فقط، لكن القلى يمكن أن يقع منه – تعالى – لنبيه ﷺ فحينما نفى القلى منع ذلك الفهم الخاطئ.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾: وصلت الجملة بما قبلها، وذلك لاتفاق الجملتين في الخبرية، وذكر الزمخشري في حكمة اتصال الآية بما قبلها أنه: (لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى: أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل) [٣]. و(اللام) في ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ (لام ابتداء) لتأكيد معنى الجملة[١].

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية : ٢٦٩، لـ د/ عائشة بنت عبدالرحمن، ط٢، دار المعارف، القاهرة.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠ /٣٤٩.

(٣) الكشاف: ٤/ ٧٦٦.

وجاء النص القرآني: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ مؤكدا بـ (اللام) واسمية الجملة، وذلك لما كان رسول الله ﷺ في حالة من الضعف والانكسار، أصبح وكأنه متردد وفي شك من أن عاقبة أمره أفضل من الحالة التي كان عليها من الحزن بسبب انقطاع الوحي، فلما جاء النص القرآني مؤكدا منع ذلك التردد وقطع ذلك الشك وأكد أن ما ينتظر الرسول ﷺ من خير أكثر مما سبق.

﴿الْآخِرَةُ﴾ و﴿الْأُولَىٰ﴾: اختلف في معنييهما كثيرا، فهناك من المفسرين من قيدهما وهناك من جعلهما على العموم، والتعميم أليق بسياق الإنعام والإحسان. فالآخرة تشمل جميع ما سيكون بعد نزول هذه السورة المباركة وصولا للدار الآخرة، حيث قد وردت مقيدة بالدار الآخرة في مواضع كثيرة، منها:

﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ٣٢].

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[يوسف: ١٠٩].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[النحل:٣٠].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[القصص: ٧٧].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٢٩].

بينما لم ترد في الآية الكريمة مقيدة. و(الأولى) هي الزمن الذي سبق نزول السورة وحاله – عليه الصلاة والسلام – فيه[٢].

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨ / ٤٨١، لمحمود بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ/ عادل عبدالموجود، والشيخ/ علي معوض، وشارك في تحقيقه: د/ زكريا النوتي، ود/ أحمد الجمل، وقرضه: أ. د/عبدالحي الفرماوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٨ / ٤٨١.

وكذلك (اللام) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ و﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾: (لام الجنس، أي: كل آجل أمره هو خير من عاجله في الدنيا وفي الأخرى) [١].

وآثر التعبير بـ(خير) دون (أفضل) مثلا لما تحمله كلمة (الخير) من المعاني التي لا توجد في سواها، فـ(الخير) هو: كل مرغوب فيه نافع[٢].

واللام في قوله: ﴿لَّكَ﴾ للاختصاص وهذا يشعر باختصاص النبي ﷺ بالخير دون غيره، وكان من الممكن مجيء الآية دون ذكر ﴿لَّكَ﴾ ولكن لا يخفى ما في ذلك من التعميم غير المقصود؛ لذلك جاء ﴿لَّكَ﴾ ليتحقق الغرض من التخصيص وهو المبالغة في الأنس والود والرحمة.

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾: جاء الفعل (يعطي) في قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ مصحوبا بلام الابتداء المؤكدة، وذلك للإشعار بأن عطاء الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وإرضاءه – تعالى – له أمر مؤكد محقق لا يشك في حصوله.

وحذف المسند إليه، والتقدير: (ولأنت سوف يعطيك)[٣]، وهذا الحذف للمسارعة إلى المطلوب وهو إدخال الأنس والبشرى في قلب رسول الله ﷺ بأن الله – سبحانه وتعالى – سيعطيه حتى يرضى كما أن في ذكر المسند إليه في هذا المقام إطالة يأباها السياق إذ قد أشير إلى هذا المسند في أكثر من موضع قبل هذا مثل قوله: (ودعك – ربك – لك) وأشير إليه بعد هذا أيضا في قوله: ﴿يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٥١.

(٢) ينظر: المفردات: (خير).

(٣) الكشاف: ٤/ ٧٦٧.

وعبر بالفعل المضارع المصحوب بـ(سوف) في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾، وذلك للإشعار بأن عطاء الله لنبيه محمد ﷺ سيكون عطاء مستمرا متجددا باستمرار الزمن وتجدده فهو العطاء الذي لا ينفد ولا يتوقف وفي هذا إيناس وطمأنة للنبي الكريم ﷺ. وآثر (سوف) على (السين) لأن في (سوف إطماع كقولهم: سوفته أي أطمعته فيما يكون وليس كذلك السين)[١].

ويلاحظ أنه عبر بـ (الإعطاء) دون (الإيتاء)، على الرغم من أن (الإيتاء) أقوى من (الإعطاء) في إثبات المفعول؛ لأن فعل (الإيتاء) لا مطاوع له بينما فعل (الإعطاء) له مطاوع[٢]، ربما يكون السبب في هذا أن الله – تعالى – ينقل النبي – عليه الصلاة والسلام – من حال رضا إلى حال رضا أعظم منه، فيكون التعبير بـ (الإعطاء) يفيد البشارة.

ويلاحظ حذف المفعول الثاني في قوله: ﴿يُعْطِيكَ﴾ وذلك للتعميم، وهذا الحذف قد جعل القارئ أو السامع لهذه الآية تذهب نفسه كل مذهب في تحديد المحذوف فيتخيل ما يتخيل ويتصور ما يتصور فالمحذوف لا يحيط به الوصف ولا تتحمله عبارة، فحذف المفعول (ليعم كل ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأمته)[٣].

(وتعريف ﴿رَبُّكَ﴾ بالإضافة دون اسم (الله) العلم لما يؤذن به لفظ (رب) من الرأفة واللطف، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة رب إلى ضميره)[٤].

وعطف قوله: (ترضى) على قوله: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بـ (الفاء)، للإشعار بأن رضى رسول الله ﷺ قد حدث على الفور من إعطاء الله – سبحانه وتعالى – له مما يوحي بأن الله – سبحانه وتعالى – قد

---

(١) الفروق اللغوية: ٢٥٦، لأبي هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) ينظر: البرهان: ٤ / ٨٥، ٨٦.

(٣) التحرير والتنوير :٣٠ /٣٥١.

(٤) السابق: ٣٠ / ٣٥١.

أعطى رسوله الكريم عطاء جزيلا فبمجرد حصول هذا العطاء للرسول حدث الرضا منه – عليه الصلاة والسلام – مما يؤكد دخول الأنس في قلبه والطمأنينة بهذا العطاء.

﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾: لقد أطلق الفعل (ترضى) دون تقييد ليفسح المجال لأكثر من تقدير وتذهب النفس في تقديره كل مذهب فقد يكون التقدير: فترضى عن المُعطَى ، وقد يكون التقدير: فترضى عن الله عز وجل ، وقد يكون المراد التقديرين معا، وهو الأولى بالسياق. وهذا الحذف قد حقق الإيجاز إذ إن السياق يحتمل كل هذه المعاني ففي قوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما يشير إلى أنه – عز وجل – سيرضي نبيه – عليه الصلاة والسلام – في قابل الأيام وصولا إلى الدار الآخرة ، وهو عليه الصلاة والسلام بما رسخ في أعماق قلبه من حب الله – تعالى – الذي لا يعدله حب وتعلقه به بما لا يعدله تعلق راض عن الله تعالى.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: ﴿أَلَمْ﴾: الاستفهام تقريري، أريد منه – والله تعالى أعلم – تذكير نبيه وحبيبه – عليه الصلاة والسلام – بما كان عليه من الحال، وما أسداه عليه تعالى من النعم، وذلك حتى يتيقن عليه الصلاة والسلام أن ربه – تعالى – الذي أولاه رعايته منذ القدم لم يتركه ويتخل عنه بعد أن اختاره واصطفاه ، (ويمضي سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع)[1].

﴿يَجِدْكَ﴾: (ما ينسب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم المجرد إذ كان الله منزها عن الوصف بالجوارح والآلات)[2].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٩٢٧.

(٢) المفردات: (وجد).

و﴿يَتِيمًا﴾: (اليتم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه)[١]. وتنكير ﴿يَتِيمًا﴾ يوحي بالضعف وقلة الحيلة. وفي تخصيص (اليتم) بالذكر العديد من الحكم، منها:

١- حتى لا يكون اعتماده من أول صباه وإلى آخر عمره على أحد سوى الله عز وجل.

٢- إن اليتيم بسبب فقده أبويه تظهر عليه المعايب والنواقص المعنوية والمادية لأن المتكفل به مهما كان حرصه عليه لن تكون رعايته كالوالدين، فحين لم يظهر على النبي – عليه الصلاة والسلام – شيء من ذلك كان من الإرهاصات الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام[٢].

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: (أوى إلى كذا انضم إليه)[٣]. والضم يكون ماديا ومعنويا، وقد آوى الله - عز وجل - نبيه ماديا ومعنويا فما جعل لليتم عليه من أثر. وحذف المفعول في قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ والتقدير (فأواك) وقد حقق هذا الحذف الإيجاز، ولم يذكر المحذوف لتفخيم شأن الإيواء[٤].

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: وتنكير ﴿ضَآلًّا﴾ يشعر بالكثرة والتنوع فأنواع الحيرة التي كان فيها الرسول ﷺ قبل البعثة كانت كثيرة متنوعة إذ (الضلال عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى مكان مقصود سواء سلك السائر طريقا آخر يبلغ إلى غير المقصود أم وقف حائرا لا يعرف أي طريق يسلك، وهو المقصود هنا لأن المعنى: أنك كنت في حيرة من حال أهل الشرك من قومك فأراكه الله غير محمود وكرهه إليك ولا تدري ماذا تتبع من الحق... وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل، فإن الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النبوءة باتفاق علمائنا)[٥].

---

(١) المفردات: (يتم).

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٣١ / ٢٠٠.

(٣) المفردات: (أوى).

(٤) ينظر: معالم التنزيل : ٤ / ٤٩٩.

(٥) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٥٣.

وقد حذف القيد من قوله: ﴿ضَآلاًّ﴾ والتقدير: وجدك ضالا عن التوحيد والشرائع السماوية[١].

كما يلاحظ حذف القيد من قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ والتقدير: فهداك إلى التوحيد والشرائع، وقد كان هذا الحذف للعموم، عموم ما كان النبي – عليه الصلاة والسلام – ضالا عنه، وعموم هداية الله – سبحانه وتعالى – له.

وبين قوله: ﴿ضَآلاًّ﴾ و﴿هَدَىٰ﴾ طباق، وهو هنا بين اسم وفعل وقد أوضح هذا الطباق المعنى وأبرزه وهو فضل الله – سبحانه وتعالى – ورأفته بنبيه ﷺ، إذ أخرجه من حال إلى حال تختلف عن الحال السابقة فبعد أن كان ضالا هُدي إلى طريق الصواب والخير.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ﴾: وتنكير ﴿عَآئِلاً﴾ يوحي بشدة العوز وكثرة الفقر والاحتياج، فالرسول ﷺ بعد أن كان يتيما أصبح الفقر يحاصره من كل جانب ومع هذا فلم يضيعه الله و لم يتركه عائلا محتاجا، بل سخر له من يعوله في صباه وهو عمه أبو طالب ومن وقف بجانبه في شبابه بالمال وهي أم المؤمنين السيدة خديجة – رضي الله عنها – فقد وقفت إلى جانبه ﷺ تمده ماديا ومعنويا.

وبين قوله: ﴿عَآئِلاً﴾ و﴿أَغْنَىٰ﴾ طباق أبرز المعنى وأوضحه، وقد أشعر هذا الطباق برحمة الله سبحانه وتعالى وعنايته برسوله الكريم إذ بعد أن كان في حال فقر وعوز أصبح في حال غنى وعدم احتياج.

ووصل بين الجمل الثلاث (يجدك يتيما – وجدك ضالا – وجدك عائلا) وذلك لما بينهن من التوسط بين الكماليين لاتفاقهن في الإنشائية لفظا ومعنى إذ صدرت هذه الجمل الثلاث بالاستفهام التقريري وإن كان ظاهرا في الجملة الأولى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ ومحذوفاً مقدراً في الجملتين الأخريتين والتقدير (وألم

---

(١) ينظر: معاني القرآن الكريم وإعرابه: ٥/ ٢٥٩، للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري، شرح وتحقيق: د/ عبدالجليل عبده شلبي، خرج أحاديثه: الأستاذ/ علي جمال الدين محمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م. وينظر: معالم التنزيل: ٤/ ٤٩٩.

يجدك ضالا فهدى وألم يجدك عائلا فأغنى)، كما أنهن اشتركن في إظهار ود الله ورحمته بنبيه – صلى الله عليه وسلم – وإدخال الأُنس والطمأنينة في قلبه ﷺ.

وعطفت الجمل الثلاث (آوى – هدى – أغنى) على ما قبلها بـ(الفاء) للإشعار بأن اهتمام الله – سبحانه وتعالى – بنبيه ﷺ من إيواء وهداية وإغناء حدث سريعا عقب ولادته واتصافه باليتم والضلال والفقر فلم يُترك طويلا بهذه الصفات أو يهمل؛ حتى لا يكون اعتماده من أول صباه وإلى آخر عمره على أحد سوى الله عز وجل.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾:

تبارك الله في علاه !! فرغم أن الآيات مسوقة لإيناس النبي – عليه الصلاة والسلام – وإظهار مدى حب ربه له ورحمته به؛ إلا أن القرآن الكريم لا يفوت فرصة إلا ويكون فيها التوجيه والإرشاد لما فيه الخير. فحينما استحضر ذهن النبي – عليه الصلاة والسلام – تلك الصورة القديمة وأصبحت ماثلة في خياله جيء بتوجيهات تناسبها لتكون أوقع في النفس من حيث امتثالها.

فحين تجول بخاطره – عليه الصلاة والسلام – ذكريات اليتم ومرارته يكون أكثر إشفاقا على كل يتيم، وحين تعود إلى نفسه ذكرى الحيرة والضلال يقف إلى جانب كل حائر وضال ليهديه إلى ما هُدي إليه، وحين يستحضر معيشة العيلة ويقارنها بما هو عليه من الحال في ذلك الوقت يلهج لسانه وقلبه بذكر نعم ربه عليه ويحمده ويثني عليه الخير كله.

ويلاحظ أن المدود في السورة الكريمة كما في قوله: ﴿قَلَىٰ﴾-﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ - ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ - ﴿فَهَدَىٰ﴾ - ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ تعاونت مع ألفاظ السورة ومعانيها في تصوير رحمة الله – سبحانه وتعالى – ووده إياه ورأفته به ورعايته تعالى له وعنايته به ﷺ، كما أن هذه المدود كانت وسيلة مساعدة في إدخال الأنس والبشرى والطمأنينة في قلبه ﷺ.

وحروف الهمس في السورة: (كالسين) في قوله: ﴿سَجَىٰ﴾-﴿سَوۡفَ﴾ -﴿ٱلسَّآئِلَ﴾.

(والكاف) في قوله: ﴿وَدَّعَكَ﴾ - ﴿رَبُّكَ﴾-﴿لَّكَ﴾- ﴿يُعۡطِيكَ﴾-﴿يَجِدۡكَ﴾-﴿وَجَدَكَ﴾.

(والتاء) في قوله: ﴿تَرۡضَىٰٓ﴾- ﴿يَتِيمًا﴾ - ﴿تَقۡهَرۡ﴾ - ﴿تَنۡهَرۡ﴾.

و(الفـــــاء) في قولـــــه: ﴿ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ - ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ - ﴿فَهَدَىٰ﴾ - ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾ - ﴿فَأَمَّا﴾ - ﴿فَلَا﴾ - ﴿فَحَدِّثۡ﴾.

و(الحاء) في قوله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ﴾ - ﴿حَدِّثۡ﴾.

و(الثاء) في قوله: ﴿حَدِّثۡ﴾.

و(الخاء) في قوله: ﴿لَّلۡأٓخِرَةُ﴾ - ﴿خَيۡرٞ﴾؛ كلها تشعر بالدفء والاحتواء الربـــاني لرســـول الله ﷺ، وترسم الحنو والعناية، كما ساعدت الكلمات المشتملة على الحروف المهموسة على جبر خاطر رســـول الله ﷺ. وزاد على هذا تكرار الربوبية في السورة والذي يوحي بمزيد العطف والرأفة والرعاية الممتدة غير المحدودة.

وننتقل إلى سورة الشرح، وقد (نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى، وكأنها تكملة لها، فيها ظل العطف الندي، وفيها روح المناجاة للحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، وفيها البشرى باليسر والفرج، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق)[١].

وهذه السورة (مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة، وبيان أن المراد بالتحديث به هـــو شكرها بالنصب في عبادة الله والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته)[٢].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٢٩.

(٢) نظم الدرر في تناسق الآيات والسور : ٣٠/ ١١٥، للإمام المفسر / برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي ، ط١، توزيع مكتبـــة ابن تيمية ، القاهرة.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: الاستفهام تقريري، (وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه)[١].

﴿نَشْرَحْ﴾: الشرح: (أصل الشرح بسط اللحم ونحوه،...، ومنه شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه)[٢]. والتعبير بالجمع ﴿نَشْرَحْ﴾ لعظم الفاعل عز وجل، ثم لعظم أثر الفعل على من وقع عليه وهو النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿لَكَ﴾: ذكرها هنا مع أن الكلام كان يستقيم بدونها لإفادة (التقرير وتأكيد الاختصاص)[٣] إذ قصر سبحانه وتعالى الشرح على صدر رسوله ﷺ قصرا حقيقيا تحقيقيا من باب قصر الصفة على الموصوف، وطريق هذا القصر التقديم وهذا القصر يشعر بحب الله – سبحانه وتعالى – لنبيه محمد ﷺ، إذ إنه – تعالى – هو الذي قام بالشرح وإن الشرح قد وقع منه تعالى لصدر نبيه الكريم خاصة وإنه لا يتعداه إلى أحد غيره، وفي هذا من الإيناس وإدخال البهجة والسرور على القلب ما لا يخفى، وقد أفاد هذا القصر الإيجاز، وذلك لأن جملة القصر أفادت معنى جملتين، إثبات الشرح والانفراج لصدر الرسول ﷺ ونفيه عن صدور من سواه، كما أنه أفاد تمكين الكلام وتقريره في الذهن. وكذلك توسط بين الفعل والمفعول (للإيذان من أول الأمر بأن الشرح من منافعه – عليه الصلاة والسلام – ومصالحه مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه الشريف ﷺ وتشويقا له – عليه الصلاة والسلام – إلى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن)[٤].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٦٠.

(٢) المفردات: (شرح).

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/ ٦٢، لـ د / عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، ط٧ ، دار المعارف ، كورنيش النيل ، القاهرة.

(٤) روح المعاني: ٣٠/ ٥٤١.

﴿صَدۡرَكَ﴾: شرح الصدر هنا قد يقصد به الشرح الحقيقي الـذي ورد ذكـره في كتـب السـير والتفاسير، والذي اختلف في عدد مراته ومكانه وزمانه، وأنه حين شق أخرج منه كل سوء ووضع فيه كل خير[١]. وقد يقصد به الشرح المعنوي وهو فسحه بأن اتسع للعلوم والحكم واتسع للنبوة والـدعوة واحتمال المكاره والصعاب[٢]. وقد يقصد به المعنيان معا.

وخص الصدر هنا دون القلب – إن كان المقصود المعنى المعنوي للشرح – ربما لأن الصـدر وعـاء القلب، فمتى ما شرح الوعاء اتسع ما به وانشرح. أو أنه مجاز مرسل لعلاقة المحلية أو المجاورة، فالقلـب هو الذي يشرح وليس الصدر لأنه مجرد وعاء وأضلع تحيط بالقلب وهذا المجاز قد أفاد المبالغة في الشرح والتفريج إذ لم يكن الشرح خاصا بالقلب وإنما قد تجاوزه وعم كل ما أحاط به ومـا جـاوره، كمـا يوضح هذا المجاز العلاقة والرباط المتين الذي يربط بين الصدر والقلب، فالتجاور بينهما قوي لدرجة أن التعبير بأحدهما يغني عن ذكر الآخر.

وفي إضافة الصدر إلى ضمير الخطاب في قوله: ﴿صَدۡرَكَ﴾ ما يشعر بشرف هذا الصـدر وشـرف صاحبه، فهذا الصدر مشروح من قبل الله – عز وجل – وهو محل قلب الرسول ﷺ الذي يمتلئ بالإيمان القوى والإخلاص الشديد لله – تعالى – ورسالته.

وقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾: (كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسـه الزكيـة مـن الكمالات وإعلامه برضى الله عنه وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر)[٣].

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾: وعطف قوله: ﴿وَوَضَعۡنَا﴾ على ما قبله لما بينهما من التوسط بين الكماليين لاتفاقهما في الإنشائية (استفهام) لفظا والخبرية معنى وإن كان مذكورا في الأول

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٠١، ٢٠٢، وينظر: التفسير الكبير: ٣٢/ ٢٠٥.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤/ ٧٧٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠ /٣٦٠.

ومحذوفا مقدرا في الثاني، كما أن في هذا العطف مزيدا من التعجيل بالمسرة لرسول الله ﷺ وإدخال البشرى على قلبه.

و﴿عَنكَ﴾ متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه والتقيد بالجار والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيذان من أول الأمر بأن وضع الوزر من منافعه - عليه الصلاة والسلام - ومصالحه مسارعة إلى إيناسه وإدخال المسرة إلى قلبه - عليه الصلاة والسلام - وتشويقا له إلى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن، ولما أن في وصفه نوع طول، فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم[1].

وإضافة الوزر إلى كاف الخطاب في قوله: ﴿وِزْرَكَ﴾ يشعر بالاختصاص، أي: إن الوزر الموضوع هو الوزر الخاص به ﷺ، وفي هذا تكريم له ﷺ إذ خصه الله بذلك دون غيره. وهو أدخل في إيناسه.

والتعريف باسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يوحي بكثرة الوزر — وهي أعباء الدعوة - وثقله، فالوزر الذي كان يحمله الرسول ﷺ كان حملا كثيرا ثقيلا ومع هذا فقد وضعه الله عنه، وهوما يشعر برحمة الله ورأفته بنبيه وشدة عطفه - تعالى - عليه ﷺ.

ويلاحظ التصوير في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ إذ شبه الله - سبحانه وتعالى - حاله وهو يزيل الشدائد والكربات عن النبي ﷺ وكل ما يتحرج منه ﷺ من عادات أهل الجاهلية التي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه بحال من يحط ثقلا عن حامله ليريحه من عناء ذلك الثقل، بجامع إزالة العناء في كل، ثم استعير التركيب الموضوع للمشبه به ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ للتركيب الموضوع للمشبه (إزالة الشدائد والكربات) على سبيل الاستعارة التمثيلية، وهذه الاستعارة توضح مدى اهتمام الله - سبحانه وتعالى - بنبيه ﷺ، وتؤكد علمه - عز وجل - بمعاناته ﷺ.

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم : ٦/ ٤٤٣، ٤٤٤.

وفي إسناد (النقض) إلى ضمير (الوزر) في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ مجاز عقلي لعلاقة السببية، إذ إن الوزر لم يكن هو إلا سببا في النقض وليس الفاعل الحقيقي.

واشتمال بعض كلمات التركيب على حروف الإطباق كالضاد في قولـه: ﴿وَوَضَعۡنَا﴾ - ﴿أَنقَضَ﴾، والظاء في قوله: ﴿ظَهۡرَكَ﴾؛ يساعد في الإشعار بما كان يحمله ﷺ من أعباء وأثقال تنوء منـها الجبـال، وإطباق الحروف يمثل إطباق الهم على فؤاد رسول الله ﷺ وكأنه قد أطبقت الدنيا على صدره وأنـه لا يستطيع التنفس من كثرة ما يحمله من أثقال والتي بفضل الله ورحمته قد أزيلت ووضعت عنه (ووضعه عنه مغفرته وتعليم الشرائع وتمهيد عذره بعد أن بلغ)[١].

و لم يتوسط بين الفعل والمفعول الجار والمجرور ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾، ربما ليتقارب حرفـا (الضـاد والظاء) في زمن الخروج والنطق بهما، فيشعر بالثقل في نطقهما فيتوصل بـذلك إلى الشـعور بالثقـل المعنوي المراد الإحساس به.

ويتعانق تصوير آخر في قوله: ﴿أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ مع التصوير السابق إذ شبه النبي ﷺ وما يحملـه مـن أثقال معنوية قد سبقت الإشارة إليها بحال شخص قد أنقض الحمل ظهره ثم حذف المشبه به وذكر شيئا من لوازمه وهو إنقاض الظهر على سبيل الاستعارة المكنية وفي إسناد النقض إلى ضمير الـوزر تخييـل، وهذا التصوير يوضح صعوبة الأثقال والهموم التي كان يتحملها الرسول ﷺ.

فعلى الرغم من أنها كانت أحمالا معنوية إلا أنها كانت تقصم الظهر ويسـمع لعظامـه فرقعـة وصرير، (وهو صوت الانتقاض والانفكاك كما يسمع من الرحل المتداعي إلى الانتقاض من ثقـل الحمل)[٢].

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٦/ ٤٤٤.

(٢) السابق: ٦/ ٤٤٤.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: يقال في عطف جملة ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ما قيل في عطف جملة ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ على جملة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

(وعطف و﴿وَوَضَعْنَا﴾ و﴿وَرَفَعْنَا﴾ بصيغة الماضي على فعل ﴿نَشْرَحْ﴾ بصيغة المضارع لأن ﴿لَمْ﴾ قلبت زمن الحال إلى الماضي فعطف عليه الفعلان بصيغة الماضى لأنهما داخلان في حيز التقرير فلما لم يقترن بهما حرف ﴿لَمْ﴾ صير بهما إلى ما تفيده ﴿لَمْ﴾ من معنى المضي)[1]. وفي تغيير صيغة التعبير من المضارع إلى الماضي تلوين للخطاب، وقد أدى هذا التلوين إلى إثارة الانتباه ولفت الذهن والتهيؤ لكل ما يقال وسماعه بتركيز وقد لوحظ مثل هذا التلوين في سورة الضحى، كما لوحظ تحقيق الهدف منه في السورة نفسها. وهو إدخال الإيناس على قلب النبي ﷺ.

ويلاحظ التصوير في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا﴾ إذ شبه حسن الذكر بالرفع بجامع السمو في كل، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الرفع رفع بمعنى حسن الذكر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وقد جعل هذا التصوير (الذكر) شيئا ملموسا محسوسا ماديا، ووضح علو ذكره ﷺ وارتفاع مترلته بين الأنبياء ليكون ﷺ أكثر أنساً وابتهاجاً.

وإضافة (ذكر) إلى ضمير الخطاب الذي يعود إلى الرسول ﷺ في قوله ذكرك يوحي بعظمة كل من المضاف والمضاف إليه. ومن عظيم رفع ذكره أن اسمه مقترن باسم الله – تعالى – في كلمة الإسلام وهي كلمة الشهادة. (فإذا قال الله لعبده ورسوله: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بلغ بهذا أقصى المدى من الإيناس والرفعة لما يحف بلفظ الذكر من علو قدر)[2].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٦٢، ٣٦٣.

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/ ٦٨.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾: الفاء: عاطفة على كلام محذوف تقديره: (خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله)[١].

وفي مجيء النص القرآني ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مؤكدا طمأنة للرسول ﷺ وإيناس له ووعد له بالتيسير والفرج، وليس هذا عن شك منه ﷺ وإنما جاء هذا التأكيد وكأنه رد على من شمت برسول الله ﷺ من قريش حينما انقطع الوحي فترة من الزمن، وتعريض بهم (وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنه خبر عجيب)[٢].

﴿مَعَ﴾: (للمصاحبة بين أمرين لا يقع بينهما مصاحبة واشتراك إلا في حكم يجمع بينهما)[٣]، و﴿مَعَ﴾ يقتضي الاجتماع في المكان أو في الزمان[٤].

و﴿ٱلْعُسْرِ﴾ و﴿يُسْرًا﴾ متناقضان، وبالرغم من ذلك جعلا في حكم المتصاحبين، وأكد على ذلك بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾، وما ذلك إلا بشارة للنبي – عليه الصلاة والسلام – بتقارب حدوث اليسر مع زمن حدوث العسر تقاربا لا يكاد يشعر معه بالفارق الزمني.

و(ال) في قوله: ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ للعهد أى: إن العسر المراد هو العسر الذي عهده الرسول ﷺ من ضيق وألم وأحزان.

وتنكير ﴿يُسْرًا﴾ أفاد الكثرة، فهو يسر كثير من الله – عز وجل – حتى يستبشر رسول الله عليه الصلاة والسلام ويكون أكثر أنساً وسروراً.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٧٧١.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٦٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٤٢٧.

(٤) ينظر: المفردات: (مع).

وبين قوله: (عسر- يسر) طباق، وهذا الطباق أفاد إبراز منة الله - تعالى - على رسول الله ﷺ بالفرج واليسر بعد الضيق والعسر، كما يوضح هذا الطباق الحالة النفسية التي أصبح عليها الرسول ﷺ بعد أن ضاق صدره واغتم بسبب ما ادعاه المشركون من توديع الله له وقلاه إياه، ثم تحوله إلى الأنس والسعادة والسرور عند عودة تترل الوحي عليه.

وفي القول الثاني: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إطناب، وقد جاء هذا الإطناب بطريق التكرار، وهذا التكرار قد أدى إلى المبالغة في تأكيد المعنى وتمكينه في الذهن وترسيخه.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾: (الفاء): عاطفة، و(إذا): ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط. ﴿فَرَغْتَ﴾: الفراغ: (خلاف الشغل)[١].

﴿فَٱنصَبْ﴾: (النصب: التعب)[٢].

والمقصود أن الله – تعالى - أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام – بأن يجعل فراغه مما كان مشتغلا به من أمر دينه ودنياه إلى النصب والاشتغال فيما يقربه إليه[٣].

وحذف المتعلق من فعل ﴿فَرَغْتَ﴾، وقد حقق هذا الحذف الإيجاز كما أشعر هذا الحذف بالعموم إذا أصبح الفعل يعم كل ما يقوم به الرسول ﷺ من أعمال.

(وتقديم ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ على ﴿فَٱنصَبْ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتتعاقب الأعمال)[٤].

---

(١) المفردات: (فرغ).

(٢) السابق: (نصب).

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١٢ / ٦٢٩.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٦٨.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ٱنصَبۡ﴾ ﴿ٱرۡغَب﴾ الحث والتحريض فالله – سبحانه وتعالى – يحث نبيه الكريم أن ينصب على الأعمال العظيمة وإيلاء العمل بعمل آخر، كما يحثه على الرغبة في الله – تعالى – والتوجه إليه بكل ما لديه من حس وشعور وذلك اعترافاً بمنة الله تعالى عليه وجميل صنعه معه.

ويتضح القصر في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ إذ قصر الرغبة على الله – سبحانه وتعالى – قصرا حقيقيا تحقيقيا طريقه تقديم الجار والمجرور من باب قصر الصفة على الموصوف، ليوحي بأن الرسول ﷺ عليه أن يتوجه بحواسه كلها إلى الله – سبحانه وتعالى – وحده، وقد أفاد هذا القصر الإيجاز وتأكيد المعنى المراد وتقويته، إضافة إلى ما في دوام الرغبة إلى الله – تعالى – من دوام الاستئناس بالقرب منه عز وجل.

وحروف الصفير في السورة:

(كالصاد) في قوله: ﴿صَدۡرَكَ﴾ – ﴿فَٱنصَبۡ﴾، و(الزاي) في قوله: ﴿ وِزۡرَكَ﴾، والسين في قوله: ﴿ عُسۡرٍ﴾ – ﴿يُسۡرٗا﴾؛ تساعد في الإشعار بما أحسه النبي ﷺ من أنس وفرح وسرور وفرج بعد شرح الله صدره ووضع حمله ورفع ذكره، إذ إن صوت الصفير يعبر عن دندنات الأنس والسرور والفرح ونغماته.

أما شيوع حروف الهمس كـ (الكاف) و(الشين) و(السين) و(الفاء) و(الحاء) و(الصاد) فيساعد في الإشعار بالراحة والدفء والإيناس الذي شعر به الرسول ﷺ بعد تيسير عسره.

وهكذا رأينا كيف أن السورتين مليئتان بالأُنس والود والرحمة، عُبر عن ذلك بصور شتى، فمن اختيار ألفاظ للقسم تشابه الحالة النفسية التي كان عليها المصطفى ﷺ إلى استخدام أساليب الذكر

والحذف والتقديم والتأخير، إلى إخراج الاستفهام عن معناه، إلى التعريف والتنكير... إلخ. حتى الأحرف وُظفت لتحقيق هذا الغرض.

وكما ذُكر سابقاً من تعرضه عليه الصلاة والسلام للكثير من أنواع الإيذاء من قومه وصدهم إياه أملاً منهم أن يتوقف عن نشر دعوته، كتقولهم عليه أقاويل كلها كذب وافتراء من وصفه بالسحر والكهانة والشعر، وتكذيبهم بالقرآن ، وتكبرهم عن الإيمان بالله تعالى... إلخ، وذلك كله مما كان يؤلم النبي ﷺ ويدخل الوحشة إلى نفسه. وكثيراً ما كان يترل القرآن للرد عليهم والدفاع عنه ﷺ ومدحه والثناء عليه ببيان عدم تقصيره في إبلاغ رسالة ربه إضافة إلى بيان مكانته عند ربه ورفيع درجته.. من ذلك ما ورد في سورة (الطور) التي ذُكر فيها الكثير من أنواع إيذاء المشركين له وهوما ترتب عليه توصيته عليه الصلاة والسلام بالصبر على كل ذلك ثم إيناسه بذكر مترلته عند الله – تبارك وتعالى – تلك المترلة التي لم يحظ بها أي نبي غيره، قال تعالى:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

إنه – تعالى – في هذه الآية الكريمة يُسَرِّى عن نبيه ﷺ فيأمره بالصبر لحكمه – تعالى – لأنه تحت رعايته، كما يأمره تعالى بالتسبيح بحمده في وقت قيامه.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ٱصۡبِرۡ﴾ النصح والإرشاد، فالله – سبحانه وتعالى – أمر نبيه ﷺ بهذا ليسليه ويدخل الإيناس في قلبه وهذا يشعرنا برأفة الله – سبحانه وتعالى – بنبيه ورعايته له.

وإلقاء الحرف المطبق (الصاد) مع الحرف الشديد (الباء) يشعر بالحالة النفسية التى كان عليها رسول الله ﷺ من حزن وضيق وألم وكأن إطباق الحرف الأول (الصاد) وشدة الثاني (الباء) وجهريته يصوران إطباق الهم على صدره، وأنه لا يستطيع الفكاك منه إلا برحمة الله سبحانه وتعالى، هذا من ناحية

التركيب الصوتي. وأمَّا من ناحيـــة المعنى الذي يتضمنه اللفظ فيلاحظ أنه يعطي المعنى المـــراد إذ الصبر (الإمساك في ضيق)[١] ، وهو (حبس النفس)[٢].

(واللام في قوله: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (على) فيكون لتعدية فعل (اصـــبر) كقولـــه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠] ، و يجوز فيهـــا معـــنى (إلى) أي: اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم فيكون في معنى قولـــه: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩]، ويجوز أن تكون للتعليل فيكون ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ هو ما حكم به من إرساله إلى الناس، أي: اصبر لأنك تقوم بما وجب عليك. (فللام في هذا المكان موقع جامع لا يفيد غير اللام مثله)[٣].

وإضافة ﴿حُكۡمِ﴾ إلى (رب) تفيد التخصيص، فباستقرار هذا المعنى – أن هذا هو حكم الله وأمره – في قلب النبي – عليه الصلاة والسلام – سيجعله يتقبل كل ما يحدث له ويصبر ويحتسب امتثالا لأمر الله ورجاء ثوابه.

وفي إضافة (رب) إلى ضمير الخطاب الذي يعود إلى رســـول الله ﷺ في قولـــه: ﴿رَبِّكَ﴾ إدخـــال للإيناس في قلب رسول الله ﷺ وتطييب لخاطره وتضميد لجروحه، فالرب – تبارك وتعـــالى – ربـــه ومولاه والذين كفرو لا مولى لهم. ولهذا اختير لفظ (الربوبية) بدلا من لفظ (الألوهية) لما فيه من معنى التربية والرعاية وحسن التعهد، وهذا المعنى يتناسب مع قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾.

---

(١) المفردات : (صبر).

(٢) السابق:(صبر).

(٣) التحرير والتنوير: ٩٢/٢٧

وقد عطف ﴿ٱصۡبِرۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، وذلك لأنه (لم يبق في نصحهم نفع)[١]، وناسب الأمر بالصبر بعد الأمر بتركهم على ما هم عليه (لكونه في مقام الإعراض عن الكفار وكون إعراضه عنهم أصعب عليه من مقاساة إنذاره وإن نشأ عنها تكذيبهم واستهزاؤهم)[٢].

ثم أُنس – عليه الصلاة والسلام – أعظم إيناس بعد كل ما ذُكر مما كدر خاطره وأوحش نفسه بأن قال تعالى له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾، فجيء بهذا الخبر مؤكدا بـ (إن) ووُجه إليه الخطاب مباشرة – عليه الصلاة والسلام – وذلك زيادة في الأنس وإظهار لمدى المحبة والخلة من الله تعالى ، (إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان، هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله. حتى بين التعبيرات المشابهة. لقد قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣].. وقيل له: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه: ٣٩].. وقيل له: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[طه: ٤١].. وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة. ولكنه قيل لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأُنس خاص. وهو يلقي ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل.. ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص)[٣].

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾:

عطف الأمر بالتسبيح على الأمر بالصبر لأن التسبيح والعبادات عامة مما يؤنس النفس ويقويها ويزيدها إيماناً. واختلف في المراد بالتسبيح، فهناك من يرى أنه القول باللسان بصيغ مختلفة

---

(١) التفسير الكبير: ٢٨/ ٢٢٨.

(٢) نظم الدرر:٢٧/٣٧.

(٣) في ظلال القرآن: ٦/٣٤٠٢.

كـ:سبحان الله وبحمده ، وسبحانك وبحمدك. وآخرون يرون أن التسبيح هنا يراد بـه الصـلاة ، ثم اختلف في تحديد هذه الصلاة أهي صلاة مفروضة أم من النوافل.

وكذلك كان الاختلاف في قوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ ، فذكرت تخصيصات كثيرة للمراد بالقيام[١]، ولكن الآية الكريمة لم تبين زمن القيام ولا كيفيته؛ لذلك فالأولى– والله تعالى أعلم – أن يترك القيـام هكذا دون تقييد كما ورد في الآية، فيكون المقصود به كل قيام أو كل همّ لقيام. وقد جاء «﴿تَقُوم﴾ مضارعا لأنه أريد به الدوام والاستمرارية».

وإضافة (الحمد) للاسم الظاهر ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للتخصيص والتعظيم، أي: لتخصيص الحمد بحمد الله – تعالى – ولتعظيمه فهو ليس كأي حمد بل هو حمد له عز وجل.

وإضافة (رب) إلى (كاف الخطاب) توحي في هذا المقام باختصاصه – عليه الصـلاة والسـلام – بإغداق صفات الربوبية عليه من دونهم..أولئك الذين أبوا الاستجابة ورفضوا الهدى والإيمان.

وآثر التعبير القرآني لفظ (الحمد) بدلا من لفظ (الشكر) لأن (الشكر هو الاعتراف بالنعمة علـى جهة التعظيم للمنعم، والحمد الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به أيضا ويصح على النعمة وغير النعمة، والشكر لا يصح إلا على النعمة)[٢]. إن ما مُنحه عليه الصلاة والسلام من مكانة وما رُفع إليه من درجة هما ما لم يحزهما أحد من البشر؛ لذا فقد وُجه عليه الصلاة والسلام إلى حمـد الله – تعـالى – الذي أولاه هذه النعمة، وإلى تسبيحه في أحواله كلها.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ خص بعض وقت من الليل بالتسبيح لما ينعكس من أثر عبـادة الليل على عمل المرء صباحا من البركات.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١١ /٥٠٠،٥٠١.

(٢) الفروق اللغوية: ٣٥.

ويأتي الأمر بالتسبيح مرة أخرى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ والذي أريد به إدخال الإيناس على قلب رسول الله ﷺ بدوام ذكره تعالى. (ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ فعلى مدار اليوم. عند اليقظة من النوم. وفي ثنايا الليل. وعند إدبار النجوم في الفجر. هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب. والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب. فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟)[1].

ويتضح الإيجاز في قوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ إذ حذف المضاف والتقدير: ووقت إدبار النجوم ، وهذا الحذف مع تحقيقه للإيجاز أدى إلى المسارعة إلى المطلوب، وهو بيان الوقت المراد آخر الليل؛ لما يكون فيه من صفاء نفس فتكون أكثر قرباً من الله عز وجل لتستمد منه الأُنس والسعادة والراحة.

يلاحظ الإيجاز الشديد في الآيات، ومع ذلك فقد حوت إيناساً عظيماً للنبي عليه الصلاة والسلام. إنها البشارة العظيمة أتت في كلمات يسيرة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾، إضافة إلى ما آزرها من أساليب في الآيتين لتأكيد ذلك المعنى. ويلاحظ أنه رُكز على الجمل الإنشائية: «اصبر - سبح – سبحه» والتي خرجت عن غرضها الأصلي إلى غرض التوجيه والإرشاد لما فيه من بث الراحة والأنس في نفسه عليه الصلاة والسلام.

ويستمر إيذاء قومه له، حتى يبلغ بهم أن يخرجوه من أرضه التي كان يحبها ولا يريد عنها بديلاً..

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٤٠٢.

فيُروى أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما خرج مهاجراً ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة اشتاق إلى مكة، أتاه جبريل عليه السلام وقال له: (أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟) قال: (نعم)، قال: فإن الله تعالى: يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1] [القصص: ٨٥].

ويروى كذلك أن النبي ﷺ لما خرج تلقاء الغار نظر إلى مكة وقال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أُخرجت منك ما خرجت)، وفي رواية أخرى: قال: (أنت أحب بلاد الله إليَّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك) ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[2][محمد: ١٣].

لقد أصابت النبي ﷺ وحشة عظيمة عند خروجه من موطنه الحبيب إليه والحبيب قبل هذا إلى الله تعالى. ولعلمه عز وجل ما حل بنبيه من الألم والحزن وأن ذلك كله في سبيله تعالى آنسه بوعده رده إلى ذاك الموطن الحبيب إليه، ليس هذا فحسب بل وعده وعداً مبطناً بإهلاكه – عز وجل– لأولئك القوم الذين كانوا السبب في خروجه عليه الصلاة والسلام من موطنه وما تبع ذلك من حزنه وألمه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. أي: إن الذي أعطاك القرآن[3]، وقيل: أوجب عليك العمل بالقرآن[4]، لرادك إلى الموضع الذي خرجت منه وهو مكة فاتحاً لها[5].

فلإرادة إيناس النبي– عليه الصلاة والسلام– وتأكيد الخبر الذي سيُلقى إليه ابتُدأت الجملة بـ (إن).

---

(١) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول: ١٦٦، وينظر: معالم التنزيل: ٤٥٩/٣.

(٢) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول: ١٩٢،١٩٣، وينظر: البداية والنهاية: ٤٨٠/٢، وينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣١٣/١١.

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن :١١٥/١٠.

(٤) ينظر: معالم التنزيل: ٤٥٨/٣.

(٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن : ١١٧/١٠، ١١٨، وينظر: معالم التنزيل: ٤٥٨/٣.

وعُدل في المسند إليه إلى الاسم الموصول (الذي) بدلاً من لفظ الجلالة وذلك لإرادة التركيز على جملة الصلة، فالله عز وجل الذي أنزل عليك القرآن وأوجب عليك العمل به وما كان خروجك من موطنك الذي تحب إلا لتبليغه للناس كافة هو المتكفل بردك منصوراً عزيزا.

و﴿لَرَآدُّكَ﴾: (الرد: صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله)، و(الارتداد: الرجوع في الطريق الذي جاء منه)[1]، فقد يكون اختيار التعبير بالرد هنا لإفادة هذين المعنيين: رد النبي عليه الصلاة والسلام بذاته ورجوعه إلى الطريق الذي جاء منه ليصل إلى مكة مرة أخرى ، فيأنس بعودته إليها.

ونُكر﴿ مَعَادٍ﴾ لإفادة التعظيم لعودته – عليه الصلاة والسلام– إلى مكة يوم الفتح غالباً قاهراً ظاهراً في عز للإسلام وذل للمشركين[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، أي: كم من رجال هم أشد من أهل مكة قوة وبأسا وأكثر جمعاً وعدة أهلكناهم[3]!!.

واختيار ﴿وَكَأَيِّن﴾ للدلالة على الكثرة في العدد، فالكثرة غير موهنة لقدرته تعالى. وعبر بـ﴿قَرْيَة﴾ وأراد أهلها، فأفاد هذا التعبير الدلالة على أن ذاك العدد الكبير من الرجال الذين أهلكهم تعالى كانوا مجتمعين غير متفرقين يضمهم مكان واحد، ولا يخفى ما في الاجتماع من المنعة والقوة والشدة، ومع توفر تلك المقومات كلها إلا إن قدرة الله – عز وجل– أحاطت بهم وأهلكتهم، وفي هذا بشارة له عليه الصلاة والسلام بالنصر والظهور عليهم.

---

(١) المفردات: (رد).

(٢) ينظر: الكشاف: ٤٣٦/٣.

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن : ٣١٢/١١، وينظر: معالم التنزيل: ١٨٠/٤.

﴿قَرْيَتِكَ﴾: وفي إضافة (قرية) إلى الضمير العائد على النبي – عليه الصلاة والسلام – إيماء إلى العلاقة العاطفية العميقة التي تربط النبي ﷺ بتلك القرية، ولهذا عند إسناد الإخراج إليها ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾ كان وقعه أعظم، فكأنها جازته على حبه لها الإخراج منها.

لكن حين أراد الإخبار عن الإهلاك أسنده إلى ضمير الجماعة المُهلكة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، وبهذا يومئ إلى أن تلك القرية المحبوبة لن يصيبها شر، بل هو مقتصر على أهلها الظالمين وتظل القرية آمنة سالمة لمن يحبها.

لقد أُنس عليه الصلاة والسلام بوعده العودة من حيث خرج مهاجراً وأكد له هذا الوعد بمؤكدات، واستخدم لذلك ألفاظ موحية تدل على ذلك. وفي الآية الثانية أُنس ببشارته أن القوم الظالمين الذين كانوا سبباً في خروجه من قريته التي يحبها سيُهلكون وستبقى له قريته. إلا إن ما في الآية الأولى هو الأكثر إيناساً لما فيها من التصريح برده إلى موطنه الذي يحب وتأكيد ذلك.

لقد حوت الآيات سواء كانت في (الضحى أو الشرح أو الطور أو القصص أو محمد) أساليب عدة لإيناس النبي عليه الصلاة والسلام.. ذلك النبي العظيم ومن هو أحب الخلق إلى الله تعالى.

لقد تآزرت الأساليب والتراكيب والعبارات والكلمات وحتى الأحرف في إزالة الوحشة عن النبي ﷺ وإدخال الأنس والسرور إليه، وهذا ما لمسناه جلياً خلال الصفحات السابقة.

ومن الملاحظ أن قوله تعالى في (الطور): ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ على وجازته هو الأكثر إيناساً.. فإن كان في (الضحى) نفى توديعه وقليه وبشره بأن كل آجل أمره خير مما مضى، وأنه سيغدق عليه العطاء حتى يرضى.. وإن كان في (الشرح) أثبت له شرح صدره ووضعه عنه كل ما يثقله حمله من الهموم والأحزان ورفعه لذكره في الأولين والآخرين وإثباته أن أمره كله صائر من العسر إلى اليسر.. وإن كان في (القصص ومحمد) وعده بإهلاك أعدائه وعودته إلى موطنه.. فإن قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حوى كل

هذه المعاني وأكثر مما لا يعلمه إلا الله؛ لأنه لا يمكن لأحد إدراك كنه كونه بعـــين الله!! ولا يمكننـــا إلا الإحساس بإيحاءات هذا التعبير من توليه تعالى لأمر نبيه كله دقه وجله ظاهره وباطنه قديمه وحديثـــه.. فتبارك عز وجل الذي جمع المعاني العديدة في عبارة وجيزة.

الفصل الثاني:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق حياة النبي ﷺ الشخصية.

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وفي غزوة بني المصطلق سنة ست من الهجرة أقرع بين نسائه، فخرج سهم (عائشة) رضي الله عنها فخرج بها.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، رجع قافلا، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا، فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت (عائشة رضي الله عنها) لبعض حاجتها وفي عنقها عقد، فانسل منها من غير أن تدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت تلتمسه فلم تجده، فرجعت إلى المكان الذي ذهبت إليه أولا، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه، فلما رجعت إلى العسكر لم تجد أحدا، فتلففت بجلبابها، ثم اضطجعت في مكانها لأنها توقعت أن تفتقد فيرجع إليها، عند ذلك مرَّ بها صفوان بن المعطل السلمي فقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ، ما خلفك يرحمك الله؟)، قالت السيدة (عائشة): (فما كلمته، ثم قرب البعير، فقال: اركبي، واستأخر عني، فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا)، و لم تكن رضي الله عنها تعلم بشيء من ذلك.

وفي المدينة اشتكت السيدة (عائشة) شكوى شديدة، و لم يذكر لها النبي ﷺ شيئا مما سمع، وكذلك أبواها، ولاحظت أن النبي ﷺ لم يعد لطيفا معها كعادته عندما تشتكي، وكان إذا دخل عليها وعندها أمها تمرضها قال: (كيف تيكم؟!)، فوجدت في نفسها، واستأذنت منه - عليه الصلاة والسلام- أن تمرض في بيت أبيها، فسمح لها. وعندما نقهت من وجعها بعد بضع وعشرين ليلة، خرجت في ليلة لبعض حاجتها ومعها أم مسطح، وإذ بها وهي تمشي أن تعثرت في مرطها، فقالت: (تعس مسطح)، فردت عليها (عائشة رضي الله عنها) قائلة: (بئس لعمرو الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا)، فأخبرتها بمقولة أهل الإفك، الذي كان ابنها ممن خاضوا فيه. فرجعت إلى البيت وهي تبكي حتى

شعرت أن البكاء سيشق كبدها، وعاتبت أمها في عدم إخبارها بما حدث، فقالت لها أمها: (أي بنية خففي عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها).

وقالت السيدة (عائشة): (وكان كبر ذلك عند عبدالله بن أبي ابن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وقمنة بنت جحش).

وقالت: (دخل علي رسول الله وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، قالت: فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك فقلص دمعي، حتى ما أحس منه شيئا، وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما! قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن يُنزل الله فيّ قرآناً يقرأ به في المساجد، ويُصلى به، ولكنيّ قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئا يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبرا، فأما قرآن ينزل فيّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك). ثم قالت: (فلما لم أرَ أبويّ يتكلمان قلت لهما: ألا تجُيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه؛ قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما استعجما عليّ، استعبرت فبكيت؛ ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا. والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني. قالت: ثم التمست اسم (يعقوب) فما أذكره؟ فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسُجّي بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين

رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، فقد عرفت أني بريئة؟ وأن الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما؛ فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سُري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجُمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك. قالت: قلت: بحمد الله؟ ثم خرج إلى الناس، فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك)[1]. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ١١- ٢١].

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٣٢٥-٣٣٠.

إنه لأول وهلة يقرأ فيها القارئ قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي تخبر عما حدث يشعر بمدى الألم النفسي الذي أصابها وكان قد أصاب من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وأبويها رضي الله عنهما. ما أعظم ما أصابهم من الألم وما أشده! وندرك أيضاً مدى تواضعها لله – عز وجل – حيث لم تكن تتوقع أن تُبرأ بقرآن يترل من السماء!

لكن شأنها وشأن النبي عليه الصلاة والسلام قبلها عظيم عند الله الكبير المتعال، لقد أثلج صدورهم جميعا وآنسهم بما أنزل من قرآن يُتلى إلى يوم الدين.

وكان لمن خاض في حديث الإفك ثم تاب نصيب أيضاً من الإيناس، فقد عفا عنهم تعالى بفضله ورحمته وتاب عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾:

استُهل ما نزل من قرآن تبرئة لأم المؤمنين (عائشة رضي الله عنها) بجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائيا، ومع هذا جاءت مؤكدة بـ(إن) والجملة الاسمية لأنه أنزل المخاطبين مترلة المنكر للأمر، إذ إن الآية تقرر أن من اختلق حديث الإفك هم من المحسوبين على الأمة.

وعبر بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وجملة الصلة ﴿جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ للاهتمام بهذه القضية، قضية المجيء بالإفك، وكونها سببا لترول الآيات.

﴿جَآءُو﴾: (المجيء): القصد، وجاء بكذا استحضره[١]، فكأن المراد هنا: قصدوا استحضار «قصة الإفك» من غير أن يكون لها أصل، وفي هذا إثبات لبراءة أم المؤمنين ليعود الأنس إلى نفسها، فتأمل الدقة في هذا الاختيار للفعل.

و﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: أسوأ الكذب، سمي به لكونه مصروفا عن الحق ومقلوبا عن الوجه الصحيح[٢].

فأتى التعبير بـ (الإفك) مطابقاً لحال القول الذي افتروه.

وفي ﴿جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ استعارة، حيث يخيل للقارئ أن (الإفك) شيء مادي محسوس يمكن الإمساك به وجره من المكان المستخفي فيه إلى مكان يظهر فيه، فهي استعارة مكنية.

وعبر عن الذين جاؤوا بالإفك بـ (عصبة) تحقيرا لهم ولقولهم، فهم مجموعة قليلة لا يعبأ بقولها إلى جانب تزكية جميع الأمة لأم المؤمنين (عائشة رضي الله عنها)[٣]. وجيء بهذا الاختيار للتخفيف عن النبي ﷺ وعن أم المؤمنين رضي الله عنها الآلام التي أصابتهما من قول تلك العصبة.

و﴿مِّنكُمْ﴾: صفة لعصبة. فلم يحدد القرآن الكريم أفراد هذه العصبة، بل اقتصر على وصفهم بأنهم أفراد من هذه الأمة، وترك التصريح بهم حماية لوحدة صف الأمة، وستراً عليهم ليكون أحرى لرجوعهم وتوبتهم.

ثم استؤنف الخطاب: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ وهو خطاب للنبي - عليه الصلاة والسلام - وأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله عنهم جميعاً. وفصلت عما قبلها لكمال الانقطاع.

---

(١) ينظر: المفردات: (جاء).

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ٣/٣٣١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/١٣٧.

و﴿بَلۡ﴾ في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ للإضراب؛ لأنها تلتها جملة اسمية دالة على الثبوت والدوام ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

والجملة ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ تذييل؛ لأن في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم﴾ إفادة معنى كونه خيراً لهم، فلما أُريد تأكيد هذا المعنى جيء بالإضراب والتذييل.

وتنكير ﴿شَرّٗا﴾ و﴿خَيۡرٞ﴾ لتعظيم شأنهما، فإن كان في الأمر شر لهم فهو شر عظيم له نتائج وخيمة، فلما كان ليس شراً نُكر ﴿خَيۡرٞ﴾ للتفخيم من شأن الخير الذي نالهم جراء هذه المصيبة. وبالتأكيد أن هذه الجملة ﴿لا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ﴾ أدخلت المسرة إلى قلوبهم والأنس إلى نفوسهم وهي تؤكد أن ما حدث فيه خير عظيم لهم على عكس ما كانوا يظنون.

وفصلت جملة ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ لكمال الانقطاع.

واختير التعبير بـ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ دون (رجل) مثلا، لأن هذه الكلمة أشمل في الدلالة على عموم الخائضين من الرجال والنساء.

وجاء ﴿ٱكۡتَسَبَ﴾ على وزن (افتعل) من (كسب) التي تستعمل في الذنب، فتكون مشيرة إلى أن جزاء الإثم يكون مرتباً على ما حصل فيه تصميم وعزم قوي صدقه العمل بما فيه من الجد والنشاط[1].ويوحي هذا اللفظ بأن كل فرد منهم كأنه قد سعى سعياً حثيثاً لاكتساب الإثم.

وجاء ﴿ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ معرفة لتحديد كمية الإثم الذي اكتسبه كل واحد من العصبة، فهم غير متساوين في العقوبة، كما لم يكونوا متساوين في المسارعة لاكتساب الإثم.

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٢٢٣/١٣.

وبعد أن أثلج صدر كل متأذٍ من هذا الإفك بالإخبار عن عقوبة كل المتورطين في هذا الشأن جزاء لما اقترفوه من إيذاء لأطهر القلوب وأنقاها، بعد هذا يتبدى عدله عز وجل فيخص ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ بعقوبة خاصة تناظر اختصاصه بخلق ذاك الإفك وإشاعته.

والفعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾ إذا عُدي بنفسه اقتضى معنى الولاية، و(الولاية) تعني: تولي الأمر[1].

فعرفه بالموصول: ﴿ٱلَّذِى﴾ والصلة ﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ ليوحي بمدى الوزر الذي تحمله.

لقد اختصه تعالى بنوعية عذاب مخالف لنوع عذاب الآخرين، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، (لأنهم لم يقولوا شيئاً إلا كان عليهم مثل وزره من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا)[2].

وفي تنكير المسند إليه ﴿عَذَابٌ﴾ ووصفه بـ﴿عَظِيمٌ﴾ تهويل للأمر وزيادة في التخويف والترهيب ليكون عبرة لغيره.

لقد عُرف ما لكل واحد من الخائضين من الإثم وذلك لتسلية أم المؤمنين رضي الله عنها، فهو تعالى يدافع عنها ويأخذ بحقها ممن تجرأ عليها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

الخطاب للمؤمنين الذين خاضوا في حديث الإفك دون الذي تولى كبره.

فبعد أن أعلن أن لكل امرئ من الخائضين ما اكتسب من الإثم في آية (١١) وبعد أن عوتبوا في الآيتين اللتين تلتاها (١٢، ١٣)؛ أعلن في هذه الآية: أن لن يمسهم العذاب العظيم لخوضهم فيما خاضوا فيه والسبب في هذا فضل الله – تعالى – ورحمته عليهم في الدنيا والآخرة. وعبر عن هذا المعنى باستخدام (لولا) الشرطية التي هي حرف امتناع لوجود.

---

(١) ينظر: المفردات: (ولي).

(٢) نظم الدرر: ٢٢٣/١٣.

وجاءت كلمتا: (فضل ورحمة) مصدرين للتأكيد على معانيهما وترسيخ إيحاءاتهما وإثبات الإحساس بظلالهما. كما جاء المصدران مضافين إلى (الله) عز وجل، وإلى ضميره، وفي التعريف بهذه الإضافة رفع لمكانة هذه (الرحمة) وذلك (الفضل)، وأنه لولا هاتان المنتان من الله - عز وجل - لمسهم العذاب الأليم.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: طي ونشر، فيعمهم فضل الله – تعالى - في الدنيا، وتشملهم رحمته في الآخرة. وهذه منة عظيمة من الله – تعالى - إذ تكرم عليهم بإغداق فضله عليهم في الدنيا وإدخالهم في رحمته في الآخرة.

و﴿لَمَسَّكُمۡ﴾: الفعل جاء جوابا لـ (لولا)، واقترن بـ (اللام) لكونه مثبتاً، فـ(اللام) واقعة في جواب (لولا). و(المس) يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، ويقال أيضا في كل ما ينال الإنسان من أذى[1]. وبشرة جلد الإنسان تتسم بحاسة اللمس، فإذا ما وقع العذاب الحسي على المرء شعر به وتألم منه، لهذا اختار التعبير بـ(مس) لأنه عن العقاب المادي.

و﴿فِي﴾ تعليلية. ﴿أَفَضۡتُمۡ﴾ بمعنى: (خضتم)[2]. والتعبير بـ (أفاض) أبلغ من (فاض)، يقال: فاض الماء إذا سال منصباً، وأفاض إناءه إذا ملأه حتى أساله[3]. فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى. وفي ﴿أَفَضۡتُمۡ﴾ استعارة تبعية، حيث شبه هيئة الخوض في حديث الإفك بهيئة إفاضة الماء في إناء حتى يمتلئ ويسيل من جنباته، وهذا اختيار بليغ للاستعارة؛ لأن عصبة الإفك قد خاضوا في هذا الخبر خوضاً كثيراً يشبه هيئة فيضان الماء من جنبات الإناء الممتلئ الذي لم يعد في وسعه استيعاب المزيد.

---

(١) ينظر: المفردات: (مس).

(٢) ينظر : معالم التنزيل : ٣/ ٣٣٢.

(٣) ينظر : المفردات : (فاض).

و﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: تقديره: «لمسكم عذاب عظيم فيما أفضتم فيه»، لكن عُدل إلى ما في النظم الكريم لأهمية اسم الموصول وصلته في تحديد سبب مس العذاب العظيم لهم، وفي هذا مزيد امتنان عليهم، وهو أدخل في باب الإيناس.

﴿عَذَابٌ﴾: نكرة موصوفة بـ﴿عَظِيمٌ﴾، فهذه الصفة وذلك التنكير لزيادة الامتنان عليهم أيضاً. وجاءت الصفة على وزن (فعيل) من صيغ المبالغة للإيحاء بحجم العذاب الذي كان سيمسهم لولا فضل الله ورحمته.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾:

ثم نجد أن الآيات أخذت في تصوير كيفية خوضهم في حديث الإفك، ثم جيء بموعظة لهم، وهذا كله بعد أن أعلن العفو عنهم. ولأنه قد يُتصور أنه لم يُعف عنهم أعيد إعلان العفو مرة أخرى باستخدام الأسلوب نفسه، فأعيد المجيء بـ (لولا) الشرطية لكن في هذه المرة جعل جواب (لولا) محذوفاً تقديره: لعاجلكم بالعقوبة[1]. ولم يصرح بذكر الجواب لعدم مناسبة المقام لذلك، فبعد أن أدخل عليهم الإيناس بالعفو عنهم لم يُرد إعادة تخويفهم مرة أخرى.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾: صُدرت الجملة بـ (أن) وهي للتأكيد إضافة إلى (الجملة الأسمية) لتأكيد دوام اتصافه تعالى في ذاته بهاتين الصفتين الجليلتين على الدوام والاستمرار[2].

وفي إظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في موضع الإضمار للإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة[3]. وقد جاء لفظ الجلالة في الجملة المعطوف عليها مضافا إلى ﴿فَضۡلُ﴾ وجاء هنا اسم (أن)،

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: ٣/٣٣٣.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١٨/٤٣٥.

(٣) ينظر: روح المعاني: ١٨/٤٣٥.

ففي الأولى: عظم شأن الفضل بإضافته إلى لفظ الجلالة (الله) ليعلم أنه لا فضل إلا فضله، عز وجل، وفي الثانية: جاء لفظ الجلالة مسنداً إليه ليختص بنسبة حكم المسند له دون غيره.

﴿رَءُوفٌ﴾: على وزن (فعول) و﴿رَّحِيمٌ﴾ على وزن (فعيل) وهما من صيغ المبالغة. و(الرؤوف): (الرحيم لعباده العطوف عليهم بألطافه. والرأفة أخص من الرحمة وأرق)[1]. وجاء (رؤوف) و(رحيم) نكرتين بالتكفير والتعظيم والتكريم.

ومن هنا يتبين أن سبب عدم نزول العذاب بهم يرجع إلى:

١- فضل الله. ٢- رحمته. ٣- أن الله رؤوف. ٤- أن الله رحيم.

ونلاحظ تكرار﴿رَحْمَتُهُۥ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾ ثم ذكر ما هو أرق منهما في المعنى وأخص منهما في الصفة، وهو ﴿رَءُوفٌ﴾ إضافة إلى ﴿فَضْلُ﴾ الذي هو زيادة في منة الله عليهم ورحمته بهم.

يلاحظ أن الإيناس في هذه الآيات تميز بطريقة مختلفة، فقد امتزج بالترهيب والتخويف والعتاب والوعظ. فنجد أنه لإيناس أم المؤمنين (عائشة رضي الله عنها) ذُكر أنه قد لحق بكل من خاض في حديث الإفك إثم على قدر خوضه، ثم خُص الذي تولى كبره بالتصريح بأن له عذاب عظيم.

وعندما أُعلن العفو عنهم جاء بأسلوب فيه نوع من الشدة.. فيه تخويف وترهيب مبطن، وذلك عن طريق استخدام (لولا) الشرطية، وهذا لأجل الحرص على عدم تكرار مثل ما حدث في المجتمع المسلم.

---

(١) اللسان: (رأف).

الفصل الثالث :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم في سياق الغزوات.

من المعلوم أن المعارك والحروب هي في حد ذاتها من أشكال الشدة والقسوة في هذه الحياة، إلا إنها بالنسبة للمؤمن هي من أسباب التقرب إلى الله تعالى، إذا كان الهدف منها إعلاء كلمته ونشر دينه.

وهذا كان هدف الغزوات في عهد النبي ﷺ وصحابته الكرام، ومع ذلك لم تخلُ من مواقف وأحداث كانت سبباً في وجود الوحشة. فمثلاً نجد وحشة كان السبب فيها مخالفة أوامر النبي ﷺ كما حدث في أحد وتبوك، أو وحشة كانت نتيجة شدة الحال التي أصابت المسلمين من تسلط الأعداء كما في الخندق وصلح الحديبية.

ونبدأ بالحديث عن أحد، فإنه لما أُصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبوسفيان بن حرب بالعير، مشى إليه رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموه في شأن أخذ الثأر بيوم بدر، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ، وخرجت بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وألا يفروا. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ استشار الصحابة في الخروج للقاء القوم أو البقاء في المدينة والتحصن بها، وكان عليه الصلاة والسلام يرى البقاء في المدينة، وكان رأي عبدالله بن أُبي بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ، بينما رأى من فاته بدر من الصحابة الخروج وأكثروا على النبي- عليه الصلاة والسلام- في ذلك، حتى دخل عليه الصلاة والسلام إلى بيته ولبس لأمته ثم خرج إلى الناس، وقد ندموا وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ورجعوا عن قولهم، فقال عليه الصلاة والسلام: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل) ، فخرج عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه، وكان ذلك لخمس عشرة ليلة مضت من شوال في السنة الثالثة. وفي الطريق إلى أحد انخزل عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الجيش بحجة أن النبي ﷺ لم يتبع مشورته.

وسار النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل الشعب من أحد، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وجعل خمسين من الرماة على جبل الرماة وأمر عليهم عبدالله بن جبير، وقال له: (انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك). أما قريش فتعبأت في ثلاثة آلاف رجل. واقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقتل وحشي حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أنزل الله - تعالى- نصره على المسلمين وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة للمشركين لا شك فيها[١].

فمالت الرماة على العسكر لاغتنام الغنائم، وخلوا ظهر المسلمين مكشوفاً لخيل المشركين، فانتهز المشركون هذه الفرصة وصعدوا الجبل ونالوا من المسلمين[٢].

ثم صرخ صارخ: ألا إن محمدا قد قُتل، فانكشف المسلمون وتفرقوا، وخلص العدو إلى رسول الله فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته. وقام نفر من الصحابة يدافعون عن النبي عليه الصلاة والسلام، ثم عرف الناس أن النبي - عليه الصلاة والسلام - لا يزال حيا[٣]، ففرحوا بذلك أشد الفرح. ورجع النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة والصحابة، وبهم ما بهم من آلام الجسد والنفس، بعد أن دفنوا شهداءهم في أرض المعركة[٤].

ومن خلال النظر في الآيات التي نزلت عن أحد في سورة (آل عمران)، نجد أن الإيناس قد جاء في عفو الله تعالى عن الرماة الذين عصوا أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - فلم يثبتوا في مواقعهم، وهوما

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٦٨-٨٨.

(٢) ينظر: البداية والنهاية: ٣/١٥٨-١٦٠.

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٨٨-٩٣.

(٤) ينظر: البداية والنهاية: ٣/١٦٠-١٨٧.

أدى إلى نيل المشركين من المسلمين، وجاء أيضا في عفو الله عز وجل عمن تولى عن العدو في ساحة المعركة حتى نال العدو من النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

أمر النبي- عليه الصلاة والسلام- الرماة الذين وضعهم على جبل الرماة قائلا: (اثبتوا مكانكم ولا تبرحوا، وإن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم) ، ووعدهم النصر إن أطاعوا أمره. وقد صدقهم تبارك وتعالى ما وعدهم إياه النبي - عليه الصلاة والسلام - من النصر في أول المعركة عندما ثبتوا مكانهم ممتثلين لأمر النبي ﷺ، ثم لما كان منهم الفشل والتنازع والعصيان لذلك الأمر بتركهم مواقعهم طلباً للحصول على الغنائم المتناثرة في أرض المعركة، انقلب ذلك النصر إلى هزيمة، فكان أولئك النفر هم الذين وصفهم تعالى بـ:﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾، بينما ثبت آخرون في مواقعهم فوصفوا بـ:﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾. فعند ذلك العصيان والاختلاف حدثت الهزيمة ونال المشركون من المسلمين، وعُبر عما حدث من الهزيمة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي:

صرفكم عن المشركين بعد أن هزمتموهم ورد وجهكم عنهم لمعصيتكم أمر الرسول ومخالفتكم طاعته وإيثار الدنيا على الآخرة عقوبة لكم على ما فعلتم[١].

وبالطبع فإن كل ما سبق ذكره مما يدخل الوحشة إلى نفوس أولئك العاصين والروع إلى قلوبهم، خوفا من عقوبته تعالى وبعدهم عن ساحته، فقد أحسن إليهم سبحانه وتعالى، لكنهم قابلوا هذا الإحسان بالإساءة والعصيان والمخالفة.

ثم سرعان ما يزيل الكريم المنان تلك الوحشة عنهم، فيؤنسهم بإعلان عفوه عنهم: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، مؤكدا ذلك بـ (اللام) و(قد)، وجيء بالفعل (عفا) ماض لتقرير وقوع العفو وأنه قد تحقق تحققاً فعلياً. وفي (عنكم) خطاب لهم، ليتسق مع كل الآية لكونها جاءت على صيغة الخطاب، فكما حدثت الوحشة من خلال الخطاب، جاء الإيناس عن طريق الخطاب كذلك.

ثم يتطرق السياق إلى الحديث عن فئة أخرى من المؤمنين هم من كانوا في ساحة المعركة وما حدث منهم من الفرار عند ظهور المشركين عليهم والتفرق عن النبي - عليه الصلاة والسلام - ولم يبق حوله إلا القليل يدافعون عنه، فتمكن المشركون من الوصول إليه وإيذائه[٢]. وقد تُوصل إلى الحديث عن هذه الفئة عن طريق ما ورد في آخر هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لترتبط مع بداية الآية التالية: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾، فلما ظهر المشركون أخذ جيش المسلمين في الفرار والنبي عليه الصلاة والسلام يدعوهم في أخراهم: (إلىّ عباد الله، إلىّ عباد الله)، وكانوا لشدة فرارهم لا يلتفت أحد منهم إلى أحد[٣].

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/٤٦٨-٤٧٦.

(٢) ينظر: السابق: ٣/٤٧٦.

(٣) ينظر: السابق: ٣/٤٧٦، ٤٧٧.

فيقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ ، فقد تولى ذلك الجمع لاستزلال الشيطان لهم ببعض ما عملوا من الذنوب[1]. فاتضح من هنا أن اكتساب الذنوب مورث للوقوع في ذنوب أخرى أعظم.

إن أولئك الذين تولوا يوم التقى الجمعان صارت لديهم ذنوب متراكمة أفرز بعضها بعضا، ذنوب قديمة تكاثرت حتى نتج عنها ذلك الذنب الكبير (التولي أمام العدو)، وفي كون هذا الأمر يترل به قرآن يثبت حدوث تلك الذنوب منهم بما فيها ذلك الذنب الكبير (التولي في المعركة)؛ فإنه لأمر مدخل للروع والخوف من عقوبة الله القوي العزيز، لكن رحمة الله – تعالى – التي وسعت كل شيء تشملهم، فتُعلن في القرآن صريحة مؤكدة ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾، فنجدها مصدرة بـ (اللام) و(قد) مع اختيار التعبير بالفعل الماضي (عفا)، وكل هذا للتأكيد على أن (العفو) قد تحقق، ولهذا جيء في آخر الآية السابقة الذكر بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فقد تفضل عليهم بهذا العفو.

ويُلاحظ أنه قد أظهر المسند إليه: لفظ الجلالة (الله) هنا، بينما في الآية التي مرت سابقاً لم يكن كذلك، قد يكون هذا الإظهار هنا لأن الذنب المذكور أعظم، فهو نتيجة ذنوب متراكمة كانت مدخلاً للشيطان إلى أصحابها ونتجت عنها إطاعتهم له، فكان الذنب أعظم فاحتاج إلى عفو أعظم، فأُظهر المسند إليه لزيادة التأكيد على عفو الله لهم، بينما الآية التي سبقت كان ما فيها من ذنب قد وقع بسبب اتباع الهوى من حب الغنيمة الفطري في النفس.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾، ففصلت عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، إذ إن الجملة الأولى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ أثارت سؤالاً تقديره: لماذا عفا الله عنهم؟ فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/٤٨٨.

حَلِيمٌ﴾، فجاء هذا الجواب مؤكدا بـ (إن) مع الإظهار في موضع الإضمار، وذلك في إظهار المسند إليه (الله) وسوغ الإظهار؛ كون هذه العبارة فيها تذكير للمؤمنين بصفتين عظيمتين لله عز وجل، هما (غفور- حليم)، بعد أن كان قد أصابهم ما أصابهم من الوحشة والخوف من أليم عقاب الله تعالى، لما صدر منهم من ذنوب كثيرة وكبيرة، فجيء بـ ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لإدخال الأُنس إلى نفوسهم عند استشعار المعاني العظيمة التي تحويها هاتان الصفتان الجليلتان (الله حليم عن العصاة: لا يعاجلهم بالعقاب)[١]. (والحليم في صفة الله عز وجل معناه: الصبور) و(الذي لا يستخفه عصيان العصاة ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو منته إليه)[٢].

ومن هذا العرض يتضح أن الإيناس في الآية الأولى قد تُوصل إليه بتأكيد الجملة واستخدام الفعل الماضي مع اختيار أسلوب الخطاب. وتُوصل إليه في الآية الثانية بتأكيد الجملة واستخدام الفعل الماضي أيضاً، إضافة إلى الإظهار في موطن الإضمار وختم الآية بالتأكيد على صفتين جليلتين لله تعالى تتناسبان مع حجم الذنب المقترف.

فاختلاف درجتي الإيناس في الآيتين لاختلاف درجتي الذنب المقترف الذي أوجد الوحشة في النفس.

ويلي غزوة أحد في الترتيب التاريخي ما كان من أحداث فيما عرف بالخندق أو الأحزاب، حيث كانت في شوال سنة خمس من الهجرة. فيُروى أن نفراً من اليهود خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فسرَّ هذا قريشاً ونشطوا لما دعوهم إليه، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان

---

(١) أساس البلاغة: (حلم).

(٢) اللسان: (حلم).

فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه عليه الصلاة والسلام مع الصحابة ترغيباً لهم في الأجر، وجهد فيه المسلمون جهداً شديدا. ولما فُرغ منه أقبلت قريش ومن تبعها وأقبلت غطفان ومن تبعها وأحاطوا بالمسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم، وعظم عند ذلك البلاء بالمسلمين، واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين.

وظل الأمر على ذلك قريباً من شهر، لم تقع حرب بل حصار ورمي. إلى أن أراد تعالى للأمر أن ينتهي، فكان أن أسلم رجل يُقال له نعيم بن مسعود من بني غطفان، وكتم أمره إلى أن أتى النبي- عليه الصلاة والسلام- وأخبره بإسلامه، فطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يخذل الأحزاب عن المسلمين، فتمكن نعيم رضي الله عنه من ذلك، ودبت الفرقة بين المشركين. فأرسل ﷺ حذيفة بين اليمان ليستطلع له ما عزم عليه القوم، وها هوذا حذيفة رضي الله عنه يروي ما حدث: والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: (مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة- أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام، ثم أخبر أنه دخل في القوم وعرف أنهم مرتحلون، فعاد بالخبر إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

ولما أصبح الرسول ﷺ انصرف مع المسلمين عن الخندق ورجعوا إلى المدينة[1].

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٢٣٦-٢٥٧.

ومن خلال هذا العرض الموجز لأحداث غزوة الخندق، تبين بعض ما أصاب المسلمين من الجهد والخوف والقلق والوحشة، كما جاء وصف ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٩- ١١].

لقد نادى تعالى المؤمنين طالباً منهم تذكر نعمته عليهم عند إحاطة الأعداء بهم، مازجاً بين تذكيره إياهم ما امتن عليهم به وبين ما كان من الأعداء من الإحاطة بهم وبين الحالة النفسية التي كانوا عليها.

لقد أوجز في البداية خبر مجيء الأعداء فقال: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾، ثم ذكر ما حل بهم من عنده سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، ثم عاد ففصل هيئة مجيء أولئك الأعداء: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، وبين بعده ما كانوا عليه من الحالة النفسية المتأزمة: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾.

وربما جاءت الآيات على هذا النسق ليربط بين الجنود التي جاءت إلى المسلمين معادية مقاتلة وبين الجنود التي أرسلها تعالى عليهم لتكون سبباً في هزيمتهم ونصر المسلمين عليهم لإحاطة علمه تعالى بما كان عليه المسلمون من الشدة في الحال. بينما فصل في الآية التي تلتها هيئة إحاطة الأعداء بالمسلمين ليربط به ما بلغوه من الشدة حتى زاغت أبصارهم وكادت قلوبهم تنخلع من أماكنها واشتد بهم الحال حتى أصبحوا كأنهم في زلزلة.

وذكر كل هذا لتكون منة الله تعالى عليهم حاضرة في أذهانهم، مستشعرة إياها نفوسهم، فكلما تذكروا تلك الأحداث وما كانوا فيه من الشدة تذكروا نعم الله ومننه عليهم ، فيتحول بهم الأمر إلى الأنس والسعادة لقربه تعالى منهم ونصره إياهم.

وفي أثناء تلك الحال التي وصفها القرآن يؤنسهم بإنزال قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ (١).

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

نزلت هذه الآية في تلك الظروف السالف ذكرها، لترغيب المؤمنين في الصبر على الأذى لأن عاقبته دخول الجنة.

وحينما يسمع الصحابة قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ وهم على تلك الحال التي وُصفت من الكربة والضيق والشدة، فإن الأمل سيعود إليهم وسيأنسون إلى أن نصر الله قريب غير بعيد.

والجملة مستأنفة وافتتحت بـ ﴿أَلَآ﴾ التي تفيد التنبيه على تحقق المذكور بعدها، وأتي بها هنا للفت انتباه السامع لما سيأتي ذكره بعدها. ففي صدر الآية ما فيه من الشدة والصعوبة، فتكون النفس في ترقب لمعرفة نهاية هذه الصعوبة وتلك الشدة.

وفي ﴿نَصۡرَ ٱللَّهِ﴾ إيجاز قصر، إذ يشمل هذا التعبير كل ما يمكن أن ينصر الله -عز وجل- به عباده مما يخطر لهم ببال ومما لا يخطر.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢/ ٣٥٣-٣٥٥، وينظر: معالم التنزيل: ١/١٨٧، وينظر: لباب النقول في أسباب النزول: ٤١.

وإضافة ﴿نَصۡرَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة على التميز والاختلاف عن أي نصر آخر، فهو النصر الذي من عند الله القوي العزيز، وكم في هذا من الإشعار بالقوة والعزة والمنعة التي يستتبعها الشعور بالأنس والسعادة.

﴿قَرِيبٌ﴾ (المراد بالقرب القرب الزماني)[1] وهذا ليتفاءل الصحابة بدنو أجل النصر، فيتضاعف ثباتهم ويقوى صبرهم. ويأنسون إلى هذا.

إن هذه الآية على وجازتها زفت البشرى إلى النبي – عليه الصلاة والسلام – والصحابة بقرب نصر الله منهم، واستعمل لهذا مؤكدات عدة لتقوية الحكم وتأكيد تحققه: (ألا) و(إن) والجملة الاسمية ﴿نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وكذلك إضافة النصر إلى الله عز وجل فيه ما لا يخفى من إدخال الأنس والمسرة في القلوب الوجلة.

أمّا ما كان عليه المنافقون فقد وصف في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب: ١٢].. إنه الظن السيئ بالله ورسوله، واعتقادهم أنه ما أريد مما هم فيه إلا إحلال الشقاء بهم.

وعلى العكس من هذا كان حال المؤمنين الواثقين بنصر الله، لقد زادهم ما حدث إيماناً بالله ورسوله واستسلاماً لقضائه عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٢] ، إنه المدح والثناء على ما بدر من المسلمين من الإيمان والتسليم.

ثم يترل نصر الله الذي وعدهم أنه قريب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. لقد أسندت الأفعال إلى لفظ الجلالة للتدليل على عظم حدوثها في

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٢٥٩/١.

الوقت الذي ظن فيه من ظن أن الهزيمة واقعة لا محالة ، لكن الله عز وجل بقوته وعزته كفى المؤمنين القتال، وهذا ما قد ذكر سابقاً من أنه أرسل عليهم الريح والجنود التي لم تُرَ.

والتعبير بـ ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ فيه دلالة كبيرة على ما كان عليه الذين كفروا من الغضب والحنق على ما حلّ بهم مما لم يحسبوا له حسابا أو يكون لهم ببال. وفي قوله: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ تأكيد على عدم حصولهم على أية منفعة مما كانوا يتوقعون.

وفي هذا منة على المؤمنين بأن حُرست لهم خيرات المدينة التي جاء الكفار طامعين في الاستحواذ عليها.

كما امتن تعالى على المؤمنين بعدم دخولهم الحرب وحمايتهم من تبعاتها وعواقبها ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

ثم إن ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ يمنح المؤمن استمداد القوة والعزة من إلهه- جل وعلا- القوي العزيز، فلا قوة إلا قوته، ولا عزة إلا عزته، ولا قوي ولا عزيز إلا من تفضل عليه تعالى بمنحه إياهما.

إنه من الملاحظ في هذه الآيات أنها ارتكزت في إيناس النبي والمؤمنين على التذكير بالأحداث لغرض الامتنان عليهم، وما يتولد عن هذا الامتنان من مشاعر الأنس والسعادة خاصة باستشعار قرب الله – عز وجل – ونصره وتأييده.

ثم ننتقل إلى السنة السادسة من الهجرة، ففي شهر ذي القعدة سار النبي – عليه الصلاة والسلام- بالمؤمنين إلى مكة يريدون العمرة، بعد أن رأى عليه الصلاة والسلام في منامه أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه، فكانت تلك الرؤيا بشارة كبيرة للمؤمنين، وقبل وصولهم سمع بهم أهل مكة، فخرجوا لمنعهم، فسلك النبي – عليه الصلاة والسلام – بالمؤمنين طريقا آخر، حتى إذا سلك في ثنية المدار بركت

ناقته- عليه الصلاة والسلام - فعرف أنها مأمورة. ومن حينها بدأت المفاوضات بينه - عليه الصلاة والسلام - وبين أهل مكة، حتى استقر الأمر في النهاية باتفاقية صلح الحديبية. وشعر المؤمنون أن في شروط ذلك الصلح انهزاما لهم وانكسارا للإسلام، وأنهم عائدون خائبون على عكس حالهم الذي قدموا عليه من التفاؤل والفرح بدخول المسجد الحرام. وقبل الصلح حدثت بعض الأحداث التي ترتبت عليها بيعة الرضوان(١).

ومن هذا العرض الموجز ومن الرجوع إلى كتب السيرة يتضح مدى الألم الذي شعر به الصحابة ومدى الحزن الذي ألم بهم، وحين كانت تلك حالهم وهم قافلون إلى المدينة منكسرون، إذ بالقرآن الكريم يتنزل على النبي ﷺ بآيات كانت البلسم لما في النفوس والشفاء لما في القلوب. قال تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام:٣/٣٣٦- ٣٥٢.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى
قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ
ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل
لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ
أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن
يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى
قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ
أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم
مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ
صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم
مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ١-٢٩].

صدرت السورة الكريمة بـ﴿إِنَّا﴾ تأكيدا للخبر، وأضيفت إليها (نا) الفاعلين للتفخيم والتعظيم.

وعبر بالفعل الماضي (فتح) للإشعار بتحقق حدوث الفعل؛ إذ إنه أمر منذ الأزل ، حتى يحقق لهم الإيناس بهذه البشارة.

واتصال الفعل بالضمير (نا) ليتناسب مع الضمير المتصل بـ (إن) في صدر الجملة ويتسقا معا في إضفاء الفخامة على الخبر وتعظيمه، والغرض من هذا إشعارهم بعظمة هذا الأمر عند الله تبارك وتعالى، فهو لن يخيب أملهم وسيحقق لهم ما وُعدوه من الفتح.

وقد حذف المفعول به للفعل: ﴿فَتْحًا﴾، وجاء في الآثار أن المقصود بالفتح هو صلح الحديبية. ولما كان المفعول قد يقدر بكل ما حدث في الحديبية من الصد عن دخول مكة ثم بيعة الرضوان ثم المهادنة مع المشركين والاتفاق على شروط بينهما حُذف إيجازا.

وفي قوله: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قصر، إذ قصر تعالى الفتح على نبيه ﷺ قصرا حقيقيا تحقيقيا، وقد اتخذ التقديم طريقا للقصر، وهذا القصر من باب قصر الصفة على الموصوف، والقصر يوحي بشدة حب الله سبحانه وتعالى لرسوله وإكرامه وتفضيله، إذ جعل هذا الفتح المبين خاصا به قاصرا عليه لا يتعداه إلى غيره، فيكون بهذا أكثر أنساً.

وقوله: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ مفعول مطلق، جيء به لتأكيد خبر الفتح وتقويته. وتنكير ﴿فَتْحًا﴾ يوحي بتعظيم ذلك الفتح لما فيه من جبر لكسر المؤمنين وإيناس لقلوبهم.

ووصفه بـ ﴿مُّبِينًا﴾ ذلك لأن الصحابة - رضي الله عنهم - كان قد وقع في نفوسهم من الحزن والانكسار ما الله - تعالى - به عليم، حيث لم يعلموا ما قد طُوي عليه ذلك الصلح من المصالح العاجلة والآجلة، فجاء بالمفعول المطلق موصوفا ليجلي لهم ما خفي عليهم أو عنهم، حتى يستبشروا ويأنسوا.

وتعقب البشارة بالفتح بشارة أخرى لا تقل عظمة عنها، وهي غفران الله - سبحانه وتعالى - لذنب النبي – عليه الصلاة والسلام – ذلك الغفران الذي يعم كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكذلك إتمام نعمته - تعالى – عليه وهدايته الصراط المستقيم. يقول تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

فعُبر بالفعل المضارع (يغفر) وذلك للإشعار بتجدد المغفرة من الله تعالى واستمرارها لرسوله الكريم ﷺ طيلة حياته، وهذا أدخل في إيناسه عليه الصلاة والسلام.

وتقدم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ على الفاعل لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وهذا فيه ميزة للنبي ﷺ وخصوصية له آنسته وأسعدت قلبه.

وجيء بالفاعل اسما ظاهرا ﴿ٱللَّهُ﴾ وعدل عن الضمير المستتر؛ وذلك اهتماما بالمسند وبمتعلقه؛ لأن خبر (مغفرة الذنب المتقدم والمتأخر) كان خبرا جديدا على النبي ﷺ[١].

كما أن في التعريف بالعلمية إدخال للأنس والطمأنينة على قلب رسول الله ﷺ وإحاطته بالبشرى والسكينة.

وقوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ عم كل ذنب للنبي ﷺ تقدم على نزول الآية أو حدث بعدها، إذ إن﴿مَا﴾ للعموم.

والتعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿يُتِمُّ﴾ يوحى باستمرار هذا الفعل ودوامه.

و(النعمة): كلمة واحدة حملت في طياتها معاني كثيرة يصعب حصرها، فالنعمة: (الحالة الحسنة)[٢]. و(نعمة الله): (منه وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه)[٣]. وإضافة (نعمة) إلى (ضمير الغائب) العائد إلى (الله) – سبحانه وتعالى – في قوله: ﴿نِعۡمَتَهُۥ﴾، أفادت تعظيم هذه (النعمة) فهي من الله تبارك وتعالى ، وأفادت هذه الإضافة إيناسه عليه الصلاة والسلام والامتنان عليه.

واختيار حرف الجر (على) في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾ يوحى بأن نعمة الله – تعالى- سابغة على النبي ﷺ فائضة عليه حسيا ومعنويا وتحيط به من كل جانب.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦ /١٢٤.

(٢) المفردات: (نعم).

(٣) اللسان: (نعم).

وفي قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عُدى الفعل (يهدي) إلى مفعول ثان و لم يتوصل إلى ذلك بحرف الجر (إلى)، وقد يكون ذلك لأنه لو جيء بـ (إلى) لفهم منها (انتهاء الغاية)، وليست الهداية إلى الصراط المستقيم هي نهاية الغاية، بل لايزال هناك طلب الجنة والخلود فيها ورضوان الله تعالى. وقد يكون لأجل أن يحمل الفعل (هدى) معنى الفعل(آتى) الذي يتعدى إلى مفعول ثان بنفسه؛ لأنه حين يُراد أن يُقال إن أحد الطرفين أعطى الطرف الآخر شيئا وليس للطرف الآخر إلا قبوله يُعبر بـ (آتى) فيقال: آتيته كذا فأخذه، وذلك لشرف الشيء المؤتى.

وتنكير ﴿صِرَاطًا﴾ ووصفه بـ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾؛ لتفخيم شأنه، لأن الهادي إليه هو الله – سبحانه وتعالى – وليس غيره، والمهدي إليه هو أكرم خلقه عنده عبده ونبيه عليه الصلاة والسلام.

ويتضح التصوير في قوله: ﴿صِرَاطًا﴾، إذ شبه النظم القرآني الدين الحق بالطريق المستقيم بجامع اليسر والسهولة[1] في كلٍ والتوصل إلى المطلوب، ثم حذف المشبه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه، ثم استعير المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذه الاستعارة توحي بصراحة هذا الدين ووضوحه وخلوصه من كل شائبة.

---

(١) (الصراط) هو: الطريق السهل، و(الطريق): لا يقتضي السهولة، و(السبيل):اسم يقع على ما يقع عليه الطريق (ينظر:في هذا الفروق اللغوية:٢٤٦. فـ (السبل) عام يأتي لما هو معنوي كـ (سبيل الله، سبيل الطاغوت ، سبيل المؤمنين، سبيل المجرمين، سبيل المفسدين، سبيل الرشد، سبيل الغي، سبيل الذين لا يعلمون، سبيل الرشاد، سبل السلام). ويأتي لما هو مادي:(لبسبيل مقيم).و لم يرد في القرآن وصف الطريق بأنه مستقيم إلا مرة واحدة في قوله تعالى على لسان الجن: ﴿قَالُوا يَقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠)، وهو في سياق وصفهم لما سمعوا من القرآن الكريم فوصفوه بأنه يهدي إلى طريق مستقيم، وذلك لأنهم لم يسمعوا القرآن كاملاً، وكذلك لم يصفوه بأنه يهدي إلى صراط مستقيم لكونهم لابد أن سيجدوا صعوبة في التمسك بهذا الدين والتقيد به لأسباب عديدة مثل هوى النفس بالرغم من أن الله – تعالى – قد قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨). بينما جاء التعبير عن حال الذين أوتوا العلم حين وصفوا = = القرآن الكريم بأنه: ((يهدي إلى صراط العزيز الحميد)) لكونهم أغزر علماً وأكثر صفاء نفس . وحين يأتي (صراط) معرفا بأل غير مقيد بوصف أريد به المعنى المادي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٨٦)، وقد يكون آثر التعبير به هنا للدلالة على أن تلك الطرق التي كان يقعد عليها الملأ من قوم شعيب كانت مذللة من كثرة السائرين عليها، لذلك هم اختاروها لتكون الفرصة سانحة لهم للالتقاء بأكبر عدد ممكن من الناس.

وعطف النظم الكريم بين الجمل الثلاث ﴿لِّيَغْفِرَ -يُتِم- وَيَهْدِيَكَ﴾ وذلك لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتفاقهن في الخبرية لفظا ومعنى، كما أنهن يشتركن في أن كلا منهن يمثل نعمة ومنّة جليلة من الله – عز وجل، وبهذا تتكاثر نعم الله– تعالى– على نبيه وتتضح أمامه فيكون أكثر أنساً بها.

وتأتى الآية التالية لتستكمل فيها باقي المنح التي منحها الله سبحانه وتعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – وهي النصر العزيز، يقول تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ عُبر بالفعل المضارع بدلا من الفعل الماضي في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ﴾ للإشعار بأن نصر الله – سبحانه وتعالى – لنبيه سيستمر ويتجدد منه تعالى كلما احتاج إليه وفي كل موقف.

ويلاحظ الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ وذلك تمكينا للاسم المظهر (لفظ الجلالة) وإظهاراً لعظمته وجلاله في هذا الموقف المهيب: نصر الله لمحمد ﷺ النصر العزيز. ولم يرد في القرآن الكريم كله وصف النصر بالعزيز إلا في هذه الآية وذلك لما للنبي ﷺ من المكانة عند ربه جل وعلا.

وتنكير ﴿نَصْرًا﴾ أفاد تعظيمه، إذ إنه من عند الله عز وجل, ووصفه بـ ﴿عَزِيزًا﴾ يوحي بأن هذا النصر نصر ليس مثل أي نصر، فقد يحقق الإنسان النصر مستعينا بالأسباب المادية، إلا إنه لا يكون نصرا عزيزا إلا إذا كان الناصر هو الله – عز وجل – فنصر الله – تبارك وتعالى – هو وحده النصر العزيز.

إن هذه الوعود العظيمة من الله لنبيه — وهو وأصحابه في تلك الحالة من الحزن، فهو على الرغم من ثقته بوعد الله له بالفتح كان مستاء من موقف الصحابة.. من حزنهم وعدم قدرتهم على تصور ما كان يحمل ذلك الصلح في طياته من نصر — هي بشارة له عليه الصلاة والسلام وبشارة لصحابته لإيناسهم

وزيادة في إعادة الثقة إليهم بنصر الله – تعالى – وعدم تخليه عنـــهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

وبعد أن انتهى من بشارة النبي – صلى الله عليه وسلم – انتقل إلى الحديث عن الصحابة رضوان الله تعالى عنهم ليؤنسهم مع ما كان في إيناس النبي – عليه الصلاة والسلام – من إيناس لهـــم، وكـــذلك العكس، إلا إنه لما كانت مكانة النبي – صلى الله عليه وسلم – عند ربه معلومة لديهم، وليس بغريـــب أن يؤتيه ما جاء ذكره في تلك الآيات السابقات، ولما لهم من الفضل والمكانة وأن حزنهم يحـــزن الـــنبي وسرورهم يسره – عليه الصلاة والسلام – خُصوا بذكر أمور تدخل البهجة لنفوسهم وتؤنسهم بعـــد الاستيحاش.

فالتعريف بضمير الغيبة في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ للإيضاح والتقرير، فـــالله – سبحانـــــه وتعالى – يوضح أنه هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، ويقرر ذلك في الأذهان ليستأنسوا بمـــنن الله عليهم.

وأما التعريف بالموصولية ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ فيوحي بالعظمة والجلال، فإنزال الله السكينة في قلوب المـــؤمنين يشعر باهتمامه – تعالى – بهم ولا يخفى ما في هذا من شرف وعزة، وهوما يترتب عليه إدخال الأنـــس عليهم.

و﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: (السكون: ثبوت الشيء بعد تحرك)[١]، و(السكينة: الطمأنينة)[٢]. فقلوب المـــؤمنين كانت في اضطراب وقلق وحزن بسبب ما حدث مما لم يكونوا يتوقعوه، ونفوسهم كانت تجـــيش بهـــا

---

(١) المفردات: (سكن).

(٢) اللسان : (سكن).

الأحاديث والاستفهامات لعدم إدراكهم مغازي ما يحدث، فامتن الله – تعالى – عليهم بسكينة قلوبهم وطمأنينة نفوسهم إيناساً لهم.

ولما كانت تلك الأمور معنوية خفية لا تُرى إلا ظواهرها أُسندت إلى ضمير الغيبة ﴿هُوَ﴾.

وفي كون ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ منزلة من الله – تعالى – ﴿أَنزَلَ﴾ تشريفا لها، فهي شيء شريف عزيز مرتفع نزل بأمر الله عز وجل، وهذا فيه دلالة على مكانة الصحابة – رضوان الله عنهم – حيث خصوا بهذا من الله تبارك وتعالى في تلك اللحظات التي اضطربت فيها قلوبهم وقلقت فيها نفوسهم.

﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿فِي﴾: الإنزال يكون على الشيء وليس فيه، لكن عُبر هنا بـ ﴿فِي﴾ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ليدل على أن السكينة خالطت قلوب المؤمنين واستقرت فيها.

وإيثار التعبير بـ﴿قُلُوبِ﴾ دون (أفئدة) ليتناسب ذلك مع الحالة التي كانت عليها أفئدتهم من التقلب والحركة والاضطراب.

وإضافة قلوب إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تشعر بالاختصاص والتفضيل، فإنزال السكينة يكون في قلوب المؤمنين لا قلوب غيرهم، وفي هذا إيناس لهم وطمأنينة وإدخال للفرحة في قلوبهم.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: (جعل ذلك الازدياد كالعلة لإنزال السكينة في قلوبهم؛ لأن الله علم أن السكينة إذا حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم)[1]. (وجعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق؛ لأن الواحد من أفراد الجنس إذا انضم إلى أفراد أُخر زادها قوة، فلذلك علق بالإيمان

---

(١) التحرير والتنوير:١٢٦/٢٦.

ظرف ﴿مَّعَ﴾ في قوله: ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾[1]) ، ولذلك جيء بـ﴿إِيمَٰنًا﴾ نكرة ليوحي بكثرة هذا الإيمان وعظمته.

وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قصر، إذ قصر ملك جنود السماوات والأرض على الله - سبحانه وتعالى - قصرا حقيقيا تحقيقيا طريقه تقديم الجار والمجرور من باب قصر الصفة على الموصوف، وهذا القصر يدخل مزيدا من الإيناس والطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين ليستيقنوا أن الأمر كله بيد الله — تعالى - يفعل ما يريد، كما يشعر هذا القصر باتساع ملك الله - تعالى - وشمول سلطانه وتأكيد حوزته لجميع الجنود.

وبين قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباق، وهذا الطباق قد أبرز المعنى وأكده، وهو ملكية الله - سبحانه وتعالى - للأشياء وحوزته إياها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تذييل، والتذييل فيه تأكيد للمؤمنين أن ما حدث لهم كان بعلمه تعالى وبمقتضى حكمته.

والتعبير بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمًا﴾ يشعر بإحاطة الله - سبحانه وتعالى - وشمول علمه بالأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن.

وبناء الجملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على ما بنيت عليه من (كان) و(اسمها وخبرها)، لعظم الخطب في نفوس المؤمنين، فأريد أن يبين لهم أن علم الله - تعالى - أزلي قديم، وأن ما من شيء يجري في هذا الكون إلا لحكمة عظيمة أرادها عز وجل.

---

(١) التحرير والتنوير:١٢٧/٢٦.

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾:

هذه الآية تشمل الجزاء الذي أعده الله – عز وجل – للمؤمنين وللمؤمنات الذين أنزل على قلوبهم السكينة وزادهم إيمانا، وهذا الجزاء يتمثل في إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وهذا جزاء عظيم من الله – عز وجل – وفوز كبير. و(اللام) في قوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ للتعليل، فقد أنزل – تعالى – في قلوب المؤمنين السكينة لكي تأنس نفوسهم وتطمئن إلى تقدير الله – تعالى – فيزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ومن ثم يستحقون دخول الجنة بفضل الله – عز وجل – ورحمته.

وتخصيص ذكر ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إلى جانب ذكر ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لدفع إيهام اقتصار الحكم على المؤمنين دون المؤمنات، (وضم ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ههنا إلى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دفعا لتوهم اختصاص الحكم بالذكور لأجل الجهاد والفتح على أيديهم)[1]. وبهذا يدخل من الإيناس في قلوب المؤمنات ما قد دخل قلوب المؤمنين.

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ التنكير في قوله: ﴿جَنَّٰتٖ﴾ مع جمعها فيه دلالة على الكثرة، أي أن الجنات التي أعدت للمؤمنين والمؤمنات جنات كثيرة، كما أن هذا التنكير يوحي بالاختصاص، أي إن هذه الجنات خاصة بأولئك المؤمنين والمؤمنات الذين كانوا مع النبي – عليه الصلاة والسلام – في ذلك الموقف تكريما لهم لصبرهم على ما حدث وعودتهم دون إتمام عمرتهم وقضاء نسكهم، وهذا أدخل في إيناسهم.

---

(١) روح المعاني: ٣٤٧/٢٦.

ويبشرهم ربهم العظيم بأكثر من ذلك، فيذكر لهم شيئا من أوصاف تلك الجنة، إنها جنات تجري من تحتها الأنهار، ويزيدهم فيبشرهم أنهم خالدون فيها، مكفرة عنهم سيئاتهم (يدخلهم الجنة، ويغطي سيئاتهم، ويسترها عنهم، فلا تمر لهم ببال، ولا يذكرونها أصلا، لئلا يخجلوا فينكدر صفو عيشهم)[١].

وأوثر التعبير بالفعل المضارع ﴿تَجْرِى﴾ وذلك للإشعار باستمرار هذا الفعل، فالجريان صفة ملازمة مستمرة للأنهار التي أعدها الله للمؤمنين والمؤمنات.

والتعبير بالجمع في قوله (أنهار) يوحي بكثرة الأنهار التي تجري من تحت هذه الجنان، وهذا يشعر بالرغد وكثرة الخير في هذه الجنان وهوما يومئ إلى الأنس ولذة العيش.

وفي قوله: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ قدم الجار والمجرور ﴿عَنْهُم﴾ على المفعول ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لتعجيل المسرة لهم وإدخال الأنس والفرحة في قلوبهم وإشعارهم بأنهم هم المكفر عنهم السيئات دون غيرهم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإدخال في الجنات وتكفير السيئات ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، وتقدم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ للاهتمام بإظهار أن هذا الفوز مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، إضافة إلى ما فيه من تعجيل للمسرة وأنس للمؤمنين.

ونُكر ﴿فَوْزًا﴾ لتعظيمه، إذ هو الفوز المعد من قبل الله - تعالى - وأكد هذا المعنى وصفه بـ﴿عَظِيمًا﴾.

ثم يذكر السياق أن العذاب للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وكذلك غضب الله - جل وعلا - ولعنته، وأنه قد أعد لهم نار جهنم ، فجنود السماوات والأرض لله - عز وجل - العزيز

---

(١) روح المعاني: ٣٤٧/٢٦.

الحكيم. ثم يوضح السياق مهمة النبي ﷺ، فهو الشاهد والمبشر والنذير، وقد أرسله تعالى ليرشد النـــاس إلى الإيمان بالله - سبحانه - وعبادته وتعظيمه، ثم يأتي السياق على ذكر تشديد الله - عـــز وجـــل - على الوفاء بعهده لمن بايع علي ذلك، وما سيترتب على ذلك الوفاء من الأجر العظيم منـــه ســـبحانه، وعلى العكس من ذلك من نكث ذلك العهد.

ثم ينتقل الحديث بعيدا عن مكان تلك الأحداث الجليلة - منع المؤمنين من دخول مكـــة, ثم بيعـــة الرضوان ثم صلح الحديبية - إلى المدينة المنورة على منورها أفضل الصلاة وأتم التسليم.. إلى الأعـــراب المتخلفين المنافقين الظانين بالله ظن السوء, ليكشف للنبي ﷺ كذبهم ومكنونات نفوسهم؛ حتى لا يشغل بهم ولا يذهب نفسه حسرات عليهم، فالحق قد صار أبلج، فمن شاء اتبعه ومن لم يشأ فلا خاســـر إلا هو، والله تعالى غني عن العالمين.

ثم تعود الآيات إلى المؤمنين, إلى الذين أخلصوا لله - تعالى - فكانت لهم السعادة في الدارين, وعجل لهم تعالى البشائر ولا تزال أقدامهم تسير على الأرض, فهو - سبحانه - اللطيف الذي يدخل الســـرور على قلوب المؤمنين برضاه عنهم.

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ الآية تتحدث عن بيعة الرضوان[1].

عبر بالفعل الماضي ﴿رَضِيَ﴾ المقترن بـــ(اللام) و(قد) للإشعار بتحقق الفعل وحدوثه ووقوعه وقوعا حتميا. إن ما جاء في الآية الكريمة من أعظم ما يمكن أن يؤنس المؤمن، فهو خبر مؤكد محقق لأولئك

---

(١) بيعة الرضوان: بعد أن حُبس عليه الصلاة والسلام والصحابة عن دخول مكة لأداء عمرتهم، بعث إليهم ﷺ عثمان بـــن عفان ﷺ إلى قريش ليخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا للبيت معظما لحرمته. وحين بلغ عثمان رسالة الرســـول لقريش احتبسوه عندهم فتأخر عن العودة للنبي ﷺ فأشيع أنه قد قتل، وعندما بلغ هذا النبي قال: لانبرح حتى نناجز القوم، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة. ثم عرف الناس كذب ذلك الخبر، فلم يقع قتال. (ينظر: السيرة النبوية لابـــن هشام: ٣/٣٤٣: ٣٤٥).

المؤمنين الصادقين الذين بايعوا النبي – عليه الصلاة والسلام – بالرضا من الله – تبارك وتعالى – ليس هذا فحسب، بل إنه تعالى كان مراعيا لتلك الحالة النفسية التي كانوا عليها من الحزن والأسى على ما حل بهم مما لم يكونوا يتوقعونه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في تلك اللحظات الصعبة التي مروا بها، وزادهم على ذلك ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَا﴾، إنه رضا الله – تعالى – ورحمته التي إن أصاب بها قوما فلا ممسك لها.

وقد ذكر المؤمنين دون المؤمنات وذلك لأن المبايعة وقعت من الرجال فقط.

والغرض من الخبر في قوله: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ زفّ البشرى لبث الفرحة في قلوب المؤمنين وإدخال الأنس عليهم.

ويؤكد هذا المعنى تعريف المسند إليه بالعلمية لفظ الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾، إذ إن لفظ الجلالة يدخل البهجة والطمأنينة والأنس على المؤمنين.

وجيء بـ ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ مضارع لاستحضار تلك الصورة في أذهان المبايعين – رضي الله تعالى عنهم – حتى يسترجعوا تلك الذكرى التي ارتبطت عندهم بالأسى والحزن على ما وصلوا إليه من حال بسبب كفار مكة، لتزول تلك المرارة من النفوس، وتحل محلها حلاوة رضى الله – تعالى – وتيقنهم من أنه معهم و لم ولن يضيعهم.

و(الفاء) في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ تصور فورية علم الله بما في قلوب المؤمنين عقب المبايعة، بل وقبلها، وإضافة قلوب إلى ضمير المؤمنين في قوله: ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ توحى بنقاء هذه القلوب وطهارتها وأنها خالية من كل حقد وضغينة أو شرك وكفر، إذ الإيمان يملؤها والرحمة تغلفها. وجاءت (الفاء) في قوله:

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ لتصور سرعة إنزال السكينة على المؤمنين فور المبايعة وكأن الله سبحانه وتعالى أنزل لهم الجزاء عقب المبايعة على الفور.

وقد تكون (السكينة) هنا غير (السكينة) المذكورة في قوله تعالى في أول السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فالسكينة المذكورة سابقا أنزلها تعالى في قلوبهم، بينما هذه السكينة المذكورة هنا أنزلت ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وذلك من نعمة الله تعالى، حيث إن السكينة شملت بواطنهم وظواهرهم، فقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يوحي بأن السكينة قد فاضت عليهم وغمرتهم من عنده عز وجل.

وفي قوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ عبر بالماضي مع أن الفتح القريب الذي وعدوه سيكون لاحقا.

وكان المتوقع أن يقول: (ويثيبهم فتحا قريبا)، لكن عُبر بالماضي على سبيل التصوير، إذ شبه الإثابة في المستقبل بالإثابة في الماضي بجامع التحقق والحدوث في كل ثم استعير الإثابة في الماضي للإثابة في المستقبل واشتق منها أثاب بمعنى يثيب على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل باعتبار حدوثه وزمانه معا، وهذه الاستعارة توحي بوقوع الفعل حتما، وذلك أن تلك الإثابة من الله – عز وجل – كتبت لهم عند مبايعتهم النبي ﷺ واطلاعه تعالى على ما في نفوسهم من الصدق والإخلاص لله ورسوله وعودهم دون تحقق مأمولهم.

ويلاحظ أن قوله: ﴿فَتْحًا﴾ و﴿مَغَانِمَ﴾ جاءتا نكرتين وذلك للإشعار بالتعظيم في الأولى والتكثير في الثانية، فالفتح الذي سيثيب المؤمنين به فتح عظيم، والمغانم التي سيأخذونها مغانم كثيرة تفرح قلوبهم وتسعد نفوسهم وتؤنسها.

وفي وصف (الفتح) بـ(القرب) في قوله ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ زف للبشرى وإدخال للأنس والأمل في قلوب المبايعين المرضين لربهم – عز وجل – إذ يخبرهم بالنصر والفتح القريب. وفي قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ جيء بصفتي ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ على زنة المبالغة مع تنكيرهما، فالعزة كلها لله – تعالى – فمن كان الله وليه فلا خوف عليه، فبمقتضى عزته وحكمته ينصر أولياءه ويؤيدهم.

وتأتي الآية اللاحقة وقد ذكر فيها أن المغانم الكثيرة التي وعدها الله – تعالى – المؤمنين هي كل مغنم غنمه المؤمنون بفضل الله – عز وجل – منذ نزول الآية الكريمة، وأن ما عُجل لهم من المغنم هو (خيبر) وما فيها من مغانم كثيرة سهلة، وهي الفتح القريب المذكور في الآية السابقة ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ لأنها كانت بعد شهر ونصف الشهر تقريبا من صلح الحديبية[١].

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾:

لذلك جاء هنا التعبير بالأفعال الماضية (وعد – عجل – كف) وذلك للإشعار بأن هذا الوعد منجز منذ الأزل وأنه قديم محقق حتميا وأن تعجيل الغنائم وكف أيدي الناس عن المؤمنين أمر محقق الحدوث واقع لا محالة، وفي هذا منة من الله – تعالى – وكرم، فقد عجل لأولئك المؤمنين الصابرين المخلصين الحصول على مغانم كثيرة سهلة المنال لما قد حصل لهم من المشقة والعنت من أهل مكة، فعوضهم الكريم المنان عوضا خاصا بهم إدخالا للبهجة في نفوسهم، فقد روى أن مغانم (خيبر) وزعها النبي ﷺ على أهل الحديبية فقط دون غيرهم[٢].

والتعريف بالعلمية في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يوحي بالعظمة والجلال، فالموعود عظيم والواعد به أعظم. وتنكير ﴿مَغَانِمَ﴾ أفاد الكثرة ، ويؤكد هذا المعنى وصفه بـ﴿كَثِيرَةً﴾.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١١ /٣٥٠، ٣٥١.

(٢) ينظر: السابق:١١ /٣٥٠.

والتعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ ليشعر المؤمنين بقربها وأنها ستحصل لهم عاجلا، كرما من الله ورأفة بهم وهم في تلك الحالة لتُعجل لهم المسرة.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: (أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم)[1].

وفي هذا امتنان عليهم يترتب عليه إيناسهم.

وإضافة ﴿أَيْدِيَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ توحي بالعموم والشمول أي لا يستطيع أحد من الناس أن يؤذي المؤمنين، وهذه منة أخرى.

والتعبير بـ﴿أَيْدِيَ﴾ جمعا تشعر بكثرة الأيدي التي كانت تمتد إلى المؤمنين بأنواع الإيذاء من ضرب وقتل وغير ذلك من الإيذاءات التي كفها الله عنهم بفضله ورحمته.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: ولتكون تلك الأحداث كلها من إنزال السكينة عليهم، وتعويضهم بالفتح القريب، والمغانم الكثيرة سهلة المنال، وكف ضرر المشركين واليهود عنهم وعن أهليهم آية؛ عظيمة لهم ليقوى إيمانهم ويثبت يقينهم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: وقد وردت مثل هذه البشارة للنبي – عليه الصلاة والسلام – ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ذلك أن سعادة النبي – عليه الصلاة والسلام – لا تكتمل إلا برؤيته لصحبه هداة مهتدين. فهذه الآية بشارة للنبي ﷺ ولصحبه الكرام.

والتعبير بالفعل المضارع ﴿يَهْدِيَكُمْ﴾ يوحي باستمرار هذه الهداية من الله للمؤمنين وتجددها منه تعالى لهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٧٢، للإمام الحافظ / أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، ط٣ ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ هنا بشارة أخرى للمؤمنين إذ يخبرهم الله – تعالى – بأنه وعدهم بفتح بلدة أخرى (فارس والروم) لم يكن في استطاعتهم فتحها وقد أحاط هو – تعالى – بها لهم حتى يفتحها لهم[1]؛ لأن الله على كل شيء قدير.

وتنكير ﴿أُخْرَىٰ﴾ للتعظيم أي أن هذه البلدة التي سيفتحونها بإذن الله هي بلدة عظيمة الشأن عالية القدر فكم تمنى المؤمنون فتحها لكن لم يستطيعوا حتى أراد الله لهم ذلك.

وقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ كناية عن إعانة الله للمؤمنين ومؤازرته إياهم في وقت الضعف وهذه الكناية تصور رأفة الله بالمؤمنين وإحاطتهم بعنايته وهو أدخل في إيناسهم.

والتعبير بالفعل المضارع المنفي في قوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ لاستحضار الحال التي كان عليها المؤمنون من عدم القدرة على فتح هذه البلدة، وفي اقتران فعل ﴿أَحَاطَ﴾ بـ﴿قَدْ﴾ تأكيد لتحقق الخبر, وفي ذلك زيادة إيناس لهم رضي الله تعالى عنهم، وقوى هذا المعنى وأكده وجود لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ تشابه أطراف إذ ناسب ختامها بدءها، ففي ختام الآية أخبر الله بقدرته المطلقة وفي أولها أخبر بعجز المؤمنين وضعفهم وعدم قدرتهم على النصر إلا بمؤازرة الله لهم.

وتقدم الآية التالية بشارة جديدة للمؤمنين وهي أنه حتى لو حدث أن الذين كفروا قاتلوهم فإن العاقبة لهم لأن الله – تعالى – هازمهم وناصرهم عليهم وذلك من سنة الله – تعالى – التي لا تبديل لها ، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١١/ ٣٥٢، ٣٥٣.

والتعريف بالموصولية في قوله:﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يشعر بحقارة هؤلاء الكفرة وقلة شأنهم وهوان أمرهم.

ويتضح التصوير في قوله: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ إذ كنى بهذا القول عن انهزام الكفرة وتخاذلهم أمام المسلمين، وهذه الكناية تشعر بنصرة الله القوية للمؤمنين وأنه – تعالى – يقف بجوارهم ولا يتركهم في أي موقف، وهو أعظم في إيناسهم.

ووجود ﴿ثُمَّ﴾ في التعبير يوحي بأن الكفار بعد الهزيمة لن يجدوا بجانبهم وليا ولا نصيرا. وهؤلاء الأولياء والأنصار كانوا يتناقصون من حولهم مرة بعد مرة حتى يفاجؤوا بأنهم وحدهم لا يؤازرهم مؤازر ولا يؤيدهم مؤيد، وهذا بعد فترة و لم يكن مرة واحدة لذا كان التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ أنسب في المقام.

وأما تنكير ﴿وَلِيًّا...نَصِيرًا﴾ فيوحي بالعموم والشمول، أي لا يوجد لهم ولي عظيم ولا حقير ولا يجدون لهم ناصرا.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾:

وإضافة ﴿سُنَّةَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾– سبحانه وتعالى – أفاد اختصاصه – تعالى – بها فهي سنته الجارية في الكون ولا مبدل لها.

والتعبير بالفعل المضارع المنفي في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يوحي باستمرار هذا الفعل وهو عدم وجود تبديل لسنة الله إذ إن ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ ستظل ثابتة لا تغيير لها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ جاء أن نفرا من مشركي مكة خرجوا إلى النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين في مخيمهم بالحديبية يريدون الإيقاع بهم، في تلك الأيام التي كانت فيها السفارة بين النبي – عليه الصلاة والسلام – وأهل مكة، فتمكن المسلمون منهم وأحضروهم إلى النبي – عليه الصلاة والسلام – فعفا

عنهم[١]. فالترتيب في قوله: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ثم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ ترتيب تاريخي حسب ما وقع من أحداث. وتقديم المسند إليه ﴿هُوَ﴾ على المسند ﴿ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ وذلك للإشعار باختصاص الله – سبحانه وتعالى – بهذا الفضل دون غيره وأنه لا يتعداه إلى غيره مطلقا وبهذا يكون في الآية قصر من باب قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا طريقه التقديم، وهـــذا القصر يشعر بفضل الله – سبحانه وتعالى – ورأفته بالمؤمنين إذ لم يحوجهم للقتال, وأظفرهم بالكفار دون جهد كبير, ثم إلهامه لنبيه – عليه الصلاة والسلام – العفو عنهم. وهذا كله من مننه تعالى عليهم.

والتعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَّ﴾ يوحي بتحقيق وقوع الفعل وحدوثه (كف المؤمنين) وهو كف القتال وفي هذا إيناس للمؤمنين وطمأنينة لقلوبهم. وإضافة (أيدي) إلى ضمير الغيبة العائد على الكفار في قوله: ﴿أَيْدِيَهُم﴾ فيه تحقير لتلك الأيدي. وعلى العكس من هذا فإن إضافة (أيدي) إلى (ضمير الخطاب العائد على المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿أَيْدِيَكُم﴾ فيه تعظيم لها وتشريف.

وخص (الأيدي) بالذكر لأنها هي التي تحمل السلاح ووسائل الحرب.

وفي تعدية الفعل ﴿أَظْفَرَكُم﴾ بـــ(على) وليس بـــ(الباء) زيادة معنى تمكنهم منهم واستيلائهم عليهم.

ويلاحظ كثرة وصل الجمل بـــ(الواو)، وهذا يفيد تعدد نعم الله – تعالى – على أولئـــك المـــؤمنين وكثرتها، ويفيد هذا الأسلوب الزيادة في الإيناس.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع إرادة زيادة الإيناس من الله في قلوبهم.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣ /٣٤٣.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

تعريف المسند إليه بضمير الغيبة في قوله: ﴿هُم﴾ للإيضاح والتقرير، فالله – سبحانه وتعالى – يوضح أنهم هم الذين قد وقع الكفر منهم، ويقرر ذلك وهذا يوحي بأن هؤلاء المشركين قد وصلوا إلى أبشع أنواع الكفر وكأنهم قد صاروا هم الكفار دون غيرهم.

وأما التعريف بالموصولية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيوحي بحقارة هؤلاء الكفرة ودونيتهم وهوان أمرهم.

ووصل جملة: ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، وقد اشتركتا في تصوير بشاعة المشركين وأسباب غضب الله عليهم وإبعادهم من رحمته. ويتضح التصوير في قوله: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ إذ شبه الهدى بإنسان يسير ويهدف إلى غاية ثم حذف المشبه به وذكر شيئا من لوازمه وهو البلوغ والوصول على سبيل الاستعارة المكنية. ويجدر القول هنا: إنه قد يكون هُدف مما ذكر سابقاً في هذه الآية هو إعلام المؤمنين بأن الله – سبحانه وتعالى – عالم بما في نفوسهم وترسيخ لهذا المعنى في أذهانهم، فهو – تعالى – عالم بمثل قول عمر بن الخطاب ﷺ للنبي ﷺ: ألست برسول الله؟ قال (بلى)، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: (بلى)، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: (بلى)، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا[1]؟! وعالم بأن المشركين يستحقون العذاب، ولكن هناك أسباب تحول بين ما هو حقيق أن يترل بالمشركين وبين تحقيق ذلك، ومن تلك الأسباب ما ذكر في الآية نفسها: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣ /٣٤٥، ٣٤٦.

تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، فيكون الإيناس في هذه الآية آتيا من أنها بمنزلة تطييب لخواطر النفوس المؤمنة وطمئنة لها بأن جُزءاً من الحق هو معها لكنها لا تعلم حكمة الله – جل وعلا – كاملة.

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾:

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾: ومن نماذج ما استحقوا عليه العذاب والعقاب الوارد في الآية السابقة حمية الجاهلية التي جعلوها في قلوبهم، (وذلك حين أبوا أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم)، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قضى عليه محمد رسول الله)[1] عندما كان علي ﷺ يكتب معاهدة الصلح، وكذلك أنهم حالوا بين النبي– عليه الصلاة والسلام – والمؤمنين وبين دخول البيت الحرام.

﴿جَعَلَ﴾: جعل هنا بمعنى «أوجد» إذ إنه تعدى لمفعول واحد، وعُبر به هنا لإفادة أن الذين كفروا أوجدوا الحمية في قلوبهم تكبرا منهم وعنادا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: (وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة وتعليل الحكم به)[2].

وواضح في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أنه قد عرف ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ أولا بـ (أل)، ثم بالإضافة ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك لإفادة ذم ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ مرتين، مرة لذاتها ومرة لكونها حمية الجاهلية. أما لذاتها فلأنها صادرة من الذين كفروا فهي ليست لله ورسوله، وأما لكونها حمية الجاهلية فزيادة في شناعتها وقبحها وذمها.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٧٤.

(٢) روح المعاني: ٢٦/ ٣٧٦.

ووجود الفاء في التعبير: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ يشعر بأنه لم تكن هناك فترة أو إمهال بين ظهور الحمية في قلوب الكفرة والمشركين وبين إنزال السكينة في قلوب المؤمنين.

ويلاحظ أنه في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قد أظهر المسند إليه (الله) وهذا لإدخال الأنس والطمأنينة في قلوب المؤمنين.

وإضافة (السكينة) إلى الضمير العائد إلى (الله) - عز وجل - في قوله: ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ تشعر بتعظيم شأنها وعلو منزلتها إذ إنها من قبل الله عز وجل.

وتقديم ﴿رَسُولِهِۦ﴾ على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتعظيم والتشريف.

ويشعر تكرار حرف الجر (على) في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن المؤمنين كان حظهم من السكينة المنزلة مثل حظ النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا أدخل في إيناسهم.

ونلاحظ المقابلة البديعة في الآية بين قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. فالحمية في قلوب الذين كفروا جُعلت من قبلهم، أما السكينة فقد أُنزلت إنزالا من الله – تعالى – فتأمل البون الشاسع.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾:

وعطف قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على ما قبله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهم في الخبرية لفظا ومعنى ، فكل منهما تمثل نعمة عظيمة من نعم الله - عز وجل - على المؤمنين.

﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ﴾: (ألزم من لزم ولزوم الشيء: طول مكثه)[١]، و(ألزم) على زنة (أفعل) ، فلزومهم كلمة التقوى كان من الله – تعالى – وحده إذ ثبتهم عليها، وهذه منة من الله – تبارك وتعالى – عليهم.

وفي عطف قوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ ثناء على المؤمنين في مقابل ذم المشركين الذين جعلوا حمية الجاهلية في قلوبهم.

وفي التعبير بـ﴿كَانُوٓاْ﴾ في حق المؤمنين زيادة ثناء عليهم، فقد جعل ذلك صفة أحقيتهم بكلمة التقوى فأهليتهم لها ثابتة فيهم قديمة عندهم.

وختمت الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ وفي ختم الآية بهذه الخاتمة تطمين للمؤمنين بإحاطة علم الله – تعالى – بكل شيء، وزاد هذا المعنى قوة تقديم المتعلق ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على خبر كان ﴿عَلِيمٗا﴾ فالله – عز وجل – عليم بكل ما حدث من المشركين ومن المؤمنين وبغير ذلك مما لم يعلمه لا هؤلاء ولا هؤلاء.

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾:

جاء في ذلك أن النبي – عليه الصلاة والسلام – قال لصحابته: (إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم ومقصرين)[٢]، (فلما نزل بالحديبية و لم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾)[٣]. وسبب تصدير الآية

---

(١) المفردات: (لزم).

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١١/ ٣٦٧.

(٣) السابق: ١١/ ٣٦٧.

بـــ(اللام) إسكاتا لتلك الأفواه المتقولة بغير الحق والتي تنتهز الفرص لتشكك في الحق الذي أتـــى بـــه رسول الله ﷺ.

والتعريف بالعلمية في قوله: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ لإدخال الأنس والبشرى في قلوب المـــؤمنين وإدخـــال الخزي والحرج في قلوب الكافرين.

﴿رَسُولَهُ﴾: في إضافة (رسول) إلى الضمير العائد إلى (الله) — عز وجل – زيادة إيناس للنبي – صـــلى الله عليه وسلم — فهو – عز وجل – الذي بعثه بالرسالة ولن يخذله أبدا.

وعُرفت (الرؤيا) بـــ(ال) العهدية لأن مدار الحديث عنها، فهي الرؤيا المعلومة عند المؤمنين. و(ال) في (الحق) للاستغراق وأفادت قطع كل المزاعم التي تشكك في تحقيق تلك الرؤيا، وقد جيء بعد بجواب القسم مؤكدا بنون التوكيـــد الثقيلـــة ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ وفي هذا تفصيل للحال التي سيدخلون بها المسجد الحرام من الأمن وأداء النسك والتحلل منه دون خوف من مشركي مكة ، وأفاد هذا إدخال الأنس العظيم عليهم.

وتنكير ﴿ءَامِنِينَ..﴾ للإشعار بعظمة الأمن في نفوس المؤمنين ، فعظمته تأتي من إنه مـــن الأشـــياء المهمة في حياة الإنسان والذي بدونه لا يستطيع العيش مستقرا، (إذ دخل تحت لفظ (الأمـــن) جميـــع المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئا أصلا من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغيره مـــن أصـــناف المكاره فلا ترى كلمة أجمع من هذه)[1]، وهذا مما يطمئنهم ويؤنسهم.

---

(١) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر : ١٩٦، لأبي هلال الحسن العسكري ، تحقيق : علي البجـــاوي ، ومحمـــد أبوالفضـــل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٠٦هـــ – ١٩٨٦م.

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: (حال مؤكدة من فاعل لتدخلن أو آمنين أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أي: لا تخافون بعد ذلك)[١].

وبهذا لا يكون في الآية تكرار لأنه ينفي عدم الخوف عنهم قبل الحج وبعده وإثبات الأمن لهم في كل آن، وهذا كله أفاد إيناسهم وسعادتهم.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾:

التعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يشعر بتعدد المصالح التي لم يعلمها المسلمون من صرفهم عن الدخول إلى مكة ذلك العام.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وإن لم يتم للمؤمنين ذلك الفتح الذي توقعوه وتمنوا حدوثه ذلك العام. إلا إنه تبارك و تعالى لم يردهم خائبين بل جعل قبل ذلك الفتح الموعود فتحا قريبا وهو ذلك الصلح نفسه حيث إنه كان فتحا عظيما على المسلمين، فقد دخل في الإسلام في مدة الصلح الذي التزم به وكان عامين مثل من كان دخل الإسلام قبل ذلك أو أكثر[٢].

وتختم السورة الكريمة بآية يتضح من خلالها تقرير ومدح وجزاء. أما التقرير فهو أن محمد رسول من قبل الله – عز وجل – وأن الذين آمنوا معه يتراحمون فيما بينهم ويشتدون ويغلظون على من كفر. وأما المدح فيتمثل في وصف هؤلاء المؤمنين بأنهم ركع سجد. وأما الجزاء فيتمثل في وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم، وكل ما سبق فيه من الإيناس للنبي ﷺ والمؤمنين ما فيه... فلتتأمل!!

يقول تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٦/ ١٠٧.

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٣٥١.

أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾:

إن في ذكر رسول الله – عليه الصلاة والسلام – باسمه ﴿مُحَمَّدٌ﴾ تنويها بشأنه وثناء له، إذ هو من أحب الأسماء إليه، ثم ذكره بوصف ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ تنويه بعلو شأنه خاصة أنه مضاف إلى لفظ الجلالة.

وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عبر عن المؤمنين بالاسم الموصول مدحا لهم وثناء عليهم بهذه الصفة التي هي معية رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبين الشدة والرحمة في قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ما يسمى بالطباق الخفي إذ إن الرحمة لا تقابل الشدة، لكنها مسببة عن اللين الذي يقابل الشدة، وهذا الطباق قد أدى إلى إبراز المعنى وأوضحه وهو الفرق الشديد والهوة البعيدة بين الحالة التي يكون عليها المؤمنون مع بعضهم والحالة التي يكونون فيها مع الكفار، وهو من الثناء عليهم أيضاً.

ويتضح الاحتراس والتكميل في قوله: ﴿رُحَمَآءُ﴾ إذ لو لم تكن هذه الكلمة لتوهم أن اعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال وعلى كل أحد.

وفي وصفهم بالشدة والرحمة دلالة على أن كل ما يصدر منهم من سلوك أو ما يختلج في نفوسهم من عاطفة إنما هو مصدره الله – تعالى – ورسوله، وهذا تأكيد على التعبير عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾أي معه قلبا وقالبا، ليس لهم من الأمر شيء إلا ما جاء به الشرع الحكيم.

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ للدلالة على أن الرائي في أي وقت تحين منه التفاتة إليهم يراهم وهم على تلك الحالة الكريمة من العبادة والتذلل والخضوع. وتنكير ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وجمعهما يشعر بكثرة حدوث ذلك منهم وتكراره.

ويتضح التصوير في قوله: ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ إذا أطلق الجزء (الركوع والسجود) وأراد الكل (العبادة كلها) على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، وفي هذا التعبير مبالغة في مدحهم والثناء عليهم (حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا)[1].

وفصل جملة: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال إذ إن الجملة السابقة أثارت سؤالا تقديره: لماذا كان ركوعهم وسجودهم؟ فقيل: يبتغون فضلا من الله ورضوانا.

والتنكير في ﴿فَضْلًا﴾ و﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ للعموم؛ لأنهم رضي الله تعالى عنهم جاهلون حجم فضل الله – تعالى – ورضوانه ونوعه، وهم على يقين أن الله – تعالى – سيعطيهم حتى يرضيهم بل أكثر، وأن أي فضل من الله – تعالى – ورضوان وإن كان شيئا قليلا في حساب الله تعالى إلا إنه في حساب البشر شيء كثير.

والغرض من الخبر في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ هو مدح هؤلاء المؤمنين والثناء عليهم وأنهم كثيروا الطاعة التي يستحقون عليها الجزاء العظيم. وفيه كناية عن رضى الله عنهم. وإضافة (الأثر) إلى (السجود) إشارة إلى أن هذه العلامات كان سببها كثرة سجودهم وأن هذه العلامات حادثة من الأثر الذي يتركه السجود وحتى لا يتوهم أحد أن هذه السمة نتيجة لضرب أو خدش أو مرض أتى بهذه الإضافة احتراسا وتكميلا. وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: أتى باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المستخدم للإشارة إلى البعيد لتعظيم شأن المؤمنين والمثل الذي ضرب لهم الذي جاء موجزا ومع ذلك حوى الإشارة إلى نواياهم وعبادتهم وسلوكهم وتعاملاتهم.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾:

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٣٣٢.

في الآية تشبيه تمثيلي حيث شبه حال الرسول والمؤمنين في أول عهدهم ونمائهم حتى كثروا وصاروا قوة في الأرض، بحال زرع كان في أول حاله ضعيفا ثم قوي واشتد عوده، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الضعف والقلة والقوة والكثرة. وهذا التشبيه يوحي بكثرة المؤمنين وقوتهم وأنهم قد أصبح لهم كلمة وشأن عظيم.

كما قابل النظم الكريم بين قوله: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ وقوله: (يغيظ الكفار) فالإعجاب معناه (السرور) الذي هو في مقابلة (الغيظ) والمراد بـ(الزراع) الفئة المؤمنة وهي في مقابلة الفئة الكافرة.

وقد ذكر لفظ: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ وأعاد ذكره ثانيا لزيادة الإيضاح والتقرير.

لقد جيء لهم بمثل في الإنجيل هو صورة متكاملة رائعة لنباتات تبدأ ضعيفة ثم تتوافر لها عوامل تساعدها على الاستمرار في الحياة استمرارا منبثقا من منحها وسائل تتقوى بها، فتصل بعد النماء إلى مرحلة العطاء.

وإذا ما قورن بين التشبيهين نجد أن مثلهم في التوراة يحكي في جزء منه حالهم الخاص: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ بينما مثلهم في الإنجيل يحكي عطاءهم وإنجازهم ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾. كما أن المثلين ركزا على جانب الجمال في المؤمن، فآثار السجود بادية عليهم سمتا وخلقا ظاهرا وباطنا، وهم كالزرع المترعرع في جماله ونضارته.

وفي قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ عبر بالماضي لأنه وعد الله – عز وجل – المتحقق حتماً.

ويلاحظ في قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ التنكير وذلك للتعظيم والتفخيم لأنهما من الله عز وجل.

لقد تعددت في الآيات الأساليب التي كانت سبباً في إدخال الأنس والسرور على النبي ﷺ والصحابة. فتنوعت أساليب توكيد البشائر والمعاني فنجد أدوات التوكيد كـ (إن) ونجد المصادر ونجد التعبير بالجملة الاسمية. كما نجد أن كثيراً من الأفعال أسندت إلى لفظ الجلالة وجيء به اسماً ظاهراً

للتدليل على عظمة المسند أو إبراز أهميته. وكان للتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والقصر أثـــرهم في إشاعة الإيناس في الآيات. إضافة إلى التنويع في إيراد الأفعال بين الماضي الدال علـــى تحقـــق الوقـــوع والمضارع الذي يفيد الاستمرارية والتجدد. وقد كثر في الآيات ذكر النعم والمنن وعطفت على بعضها بالواو للتدليل على اشتراكها في حكم واحد وهو الامتنان من الله عليهم بها. بالإضـــافة إلى مـــا لعبـــه التصوير من دور في إبراز هذه المنن.

إن الوحشة العظيمة التي أصابتهم والكربات التي حلت بهم والمعاناة النفسية التي مروا بها أهلت لهـــذا الإيناس العظيم الذي لمسناه في الآيات.

أما في رجب عام تسع من الهجرة فقد أمر عليه الصلاة والسلام المسلمين التهيؤ لغزو الروم، وكـــان الناس في ذلك الوقت في عسرة وشدة من الحر وجدب من البلاد، وفي الوقت نفسه كانت قد طابـــت ثمار من له ثمار مع حب الناس المقام في ثمارهم وظلالهم. وكان عليه الصلاة والسلام عندما يخرج لغـــزو يكني عنه إلا في تلك المرة بين للناس لبعد المسير وشدة الزمان وكثرة العدو حتى يتهيأ الناس ويتـــأهبوا لذلك.

وعزم عليه الصلاة والسلام المسير وتخلف عنه نفر من المسلمين أبطأت بهم النية حتى تخلفوا من غـــير شك منهم ولا ارتياب فلم يكونوا يتهموا في إسلامهم، وهم عشرة، منهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية[1]، وأبو لبابة، فلما حضر رجوع النبي – عليه الصلاة والسلام – أوثق أبو لبابة وستة آخرون أنفسهم بسواري المسجد، وأرادوا أن يطلقهم النبي ﷺ ويعذرهم ويعفو عنهم، لكنه عليه الصلاة والسلام أبى ذلك وقال: (وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله – عز وجل – هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين) ، فأنزل تعـــالى في حقهـــم: (وآخـــرون

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ١٦٩: ١٧٢.

اعترفوا بذنوبهم) [التوبة: ١٠٢] فأطلقهم النبي – عليه الصلاة والسلام – وعفا عنهم[٢]. وبقي الثلاثة الذين لم يربطوا أنفسهم معهم، وهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وهذا هو كعب بن مالك ﷺ يروي ما حدث: (ما تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة، وحين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها. قال: كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عن تلك الغزوة، ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، واستقبل غزو عدو كثير، فجلى للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ، فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفي له ذلك، مالم يترل فيه وحي من الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار وأُحبت الظلال، فالناس إليها صعر[١]، فتجهز رسول الله وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع و لم أقض حاجة، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر الناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا، والمسلمون معه، و لم أقض من جهازي شيئا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهزن فرجعت و لم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفرط

---

(٢) ينظر: البداية والنهاية: ٤/ ٩٠، ٩١.

(١) صعر: مائلون. ينظر: المفردات: (صعر).

الغزو[٢]، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في النـــاس بعـــد خروج رسول الله ﷺ فطفقت فيهم يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممـــن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القـــوم بتبـــوك: (ماذا فعل كعب بن مالك؟) فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظـــر في عطفيـــه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك، حضرني بثي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غدا، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيـــل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه. وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منـــهم رسول الله علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فسلمت عليه فتبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: (تعاله)، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: (ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟) قلت: إني يارسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أني ســـأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلا، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضـــين عني، وليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد علي فيه، إني لأرجو عُقباي مـــن الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنـــك. فقـــال رسول الله ﷺ: (أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك). فقمت وثار معي الرجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله مـــا

---

(٢) تفرط الغزو: تقدم. ينظر: المفردات: (فرط).

زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أبي أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة، فصمتُ حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، ووثبت فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشي بالسوق إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني، فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكتب كتابا في سرقة[1] من حرير، فإذا فيه: (أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك). قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنور، فسجرته بها. فأقمنا على ذلك، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي

---

(١) السرقة: الحرير. ينظر: المفردات: (سرق).

بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض. وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: (لا، ولكن لا يقربنك) ، قالت: والله يارسول الله ما به من حركة إلي، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ لي في ذلك إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا. ثم صليت الصبح - صبح خمسين ليلة – على ظهر بيت من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علي نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع، فكنت أكون فيها إذ سمعتُ صوت صارخ أوفي على ظهر سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج.

وآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرسا، وسعى ساع من أسلم، حتى أوفي على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت ثوبي، فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله، فحياني وهنأني، ووالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي ووجهه يبرق من السرور: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) ، قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: (بل من عند الله)[1].

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ١٨٥: ١٩٠.

وهكذا يتضح أنه لم تترل توبة أولئك النفر إلا بعد أن أصابهم ما أصابهم من الاستيحاش والحزن والهم والكدر حتى ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم، كما جاء وصفهم في الآية. قال تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

عُطفت هذه الآية الكريمة على ما قبلها، وأعيد حرف الجر (على) في عطف الثلاثة الذين خلفوا على الرسول والمهاجرين والأنصار في الآية السابقة، وذلك لبعد المعطوف عليه إذ كان في أول الآية السابقة والمعطوف هنا في أول هذه الآية.

ويتضح الإيجاز في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ إذ حذف كل من المسند والمسند إليه والتقدير: (وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا). وأفاد هذا الحذف المسارعة إلى المطلوب وهو الإخبار بأن هؤلاء الثلاثة قد تاب الله عليهم ورضي عنهم للمسارعة في إيناسهم بعد كل تلك الوحشة التي جاء ذكرها لاحقاً.

و(أل) في قوله: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾: للعهد؛ أي هم الثلاثة المعروفون المعهودون باستغفارهم وتوبتهم وندمهم.

لقد وصف الله – جل في علاه – حال الثلاثة المخلفين عن التوبة أدق وصف وفي عبارات موجزة أدت المعنى بسبرها أغوار أنفسهم وطوايا قلوبهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾: و﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف يستعمل في انتهاء الغاية وقد أتى به النظم الكريم ليشعرنا بهم وبأنهم تُركوا وخلفوا عن التوبة عليهم ليتمكن شعور الضيق منهم لعظم ما صدر منهم من التخلف عن رسول الله – عليه الصلاة و السلام – في تلك الأوقات الحرجة فكانوا كالحيران الذي لا يستقر له قرار ولا تطمئن له دار.

وفي قوله: ﴿إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ تصوير، إذ كنّى بهذا القول عن الغم والهم الذي أصبحوا فيه بعد تخلفهم عن المسلمين في تلك الغزوة وعن تنكر المسلمين لهم.

وهذه الكناية تصور الحالة التي كانوا عليها من الضيق والاضطراب والقلق والحزن. فالأرض على سعتها وامتدادها لم تعد كذلك بالنسبة لهم.

وقوله: ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ تتميم إذ تم المعنى بقوله: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ولكنه قال: ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ حتى لا يتخيل أن هناك أي متنفس لهم، فالأرض على اتساعها وامتدادها لم تسعهم و لم تحتويهم، فقد أشعر التتميم بالمبالغة في شعورهم بالضيق والاختناق.

ويتعانق تصوير آخر مع التصوير السابق في قوله: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ إذ شبه الأنفس بمكان يضيق ويتسع ثم حذف المشبه به وذكر شيئا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية وهذه الاستعارة تصور استيلاء الوحشة وسيطرة الغم عليهم.

ويلاحظ حسن التقسيم في الآية إذ قسم الضيق الذي أصاب هؤلاء المخلفين إلى مادي ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ ومعنوي ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾ وهوما يوحي باجتماع هذين الضيقين على هؤلاء المخلفين ، وكأن الضيقين قد تعاونا في تكوين سياج حولهم.

وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ كناية عن توبتهم إلى الله وانتظارهم العفو منه تعالى، وهذه الكناية تصور مدى احتياجهم لله في تلك اللحظة وتوضح شدة يقينهم بالله - عز وجل - وإحسانهم الظن به تعالى.

والقول السابق: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ يتضمن قصرًا بديعًا إذ قُصر الملجأ على الله قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا طريقه النفي والاستثناء، وهذا القصر يشعر بأن رغبتهم ورهبتهم كانت لله - عز وجل - وحده لا غير وهذه الرهبة وتلك الرغبة لا تتعداه إلى غيره تعالى.

وإن المرء ليقف مشدوها أمام روعة هذه الآية، فهي في إيجازها ودقة معناها تدخلنا إلى نفوس أولئك النفر المخلفين لنشعر شعورا صادقا بما كانوا يشعرون به، أو تدخل إلى نفوسنا فتشعرنا بأنا نحن أصحاب ذلك الموقف، والضيق قد أصابنا دون غيرنا من جراء ما وقعنا فيه من الخطأ.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أفاد المجيء بحرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾ الوقت الزمني الذي مر على أولئك النفر، فحين ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله – تعالى – إلا إليه، بقوا على تلك الحال فترة زمنية بعدها أنزلت على النبي - عليه الصلاة والسلام – التوبة عليهم من الله – تعالى -.

ولكون ﴿ثُمَّ﴾ أفادت التراخي الزمني أغنت عن جواب ﴿إِذَا﴾، (لأنه يفيد معناه، فهو باعتبار العطف تنهية للغاية، وباعتبار المعطوف دال على الجواب)[1].

والتعبير بالفعل الماضي ﴿تَابَ﴾ يشعر بتحقق هذه التوبة من الله لهم ووقوعها وقوعًا حقيقيًا لهم وهوما يوحى بإكرام الله – تعالى - لهم وعفوه عنهم.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ٢٢٢.

﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾: (اللام في ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ للتعليل، أي: تاب عليهم لأجل أن يكفوا عن المخالفة ويتنزهوا عن الذنب، أي: ليدوموا على التوبة، فالفعل مستعمل في معنى الدوام)[٢]، وقيل: (رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أُخرى ليستقيموا على توبتهم)[٣].

وفصل جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عما قبلها لأن ما قبلها أثار سؤالا تقديره: لماذا تاب الله عليهم ليتوبوا ؟ فقيل: إن الله هو التواب الرحيم. فالفصل لشبه كمال الاتصال، فهي كالتعليل لتوبته تعالى عليهم.

ويلاحظ الإظهار في مقام الإضمار إذ كان من الممكن أن يضمر فيقول: إنه هو التواب الرحيم، لكنه أظهر لمزيد التأنيس وإدخال الطمأنينة في قلوب هؤلاء المخلفين، كما أن في الإظهار تقوية لداعي الامتثال لأوامر الله، وجاء بصيغة المبالغة فقال: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ وذلك للإشعار بأنه تعالى يبلغ من قبول التوبة مبلغًا عظيمًا بحيث يعفو عن العصاة والمذنبين حتى لو بلغت ذنوبهم عنان السماء.

كما أن في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصر بطريق تعريف الطرفين، وجاء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ للتأكيد. فقد قصرت هاتين الصفتين ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عليه عز وجل ، وجيء بهذا القصر هنا ليؤكد على المعنى المطلوب: كثرة توبة الله ورحمته لحاجة المخاطبين إلى هذا.

والآية التالية ينادي الله – سبحانه وتعالى – باسم يسعد قلوبهم ويأنسهم ويدخل البهجة والسرور عليهم وهو لفظ الإيمان وينصحهم بالتقوى والصدق إذ هذان الوصفان هما من طرق القرب إلى الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

---

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/ ٢٢٢.

(٣) إرشاد العقل السليم: ١٩٩/٣، ٢٠٠.

الظاهر أن هذه الآية خاتمة للآية السابقة وليست فاتحة غرض جديد، فهذه الآية بمترلة التذييل للقصة فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، فلما كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلها هو الصدق؛ أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة[١].

ويلاحظ أن الله – سبحانه وتعالى – قد نادى المؤمنين بـ(يا) دون غيرها من أدوات النداء وذلك للإشعار بعلو مترلة المنادين وارتفاع شأنهم تترلا لبعد المترلة مترلة بعد المكان، وفي هذا من التأنيس ما لا يخفى.

وعُبر بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ للإشعار بوقوع الإيمان منهم وتحققه، وكأن الله – سبحانه وتعالى – أراد بهذا التعبير أن يبث الثقة في نفوس هؤلاء المنادين حتى تكون نفوسهم أقوى ومعنوياتهم أكثر ارتفاعًا.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ﴾ و ﴿كُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ هو الحث والترغيب في اتصافهم بالتقوى والصدق، فالله – سبحانه وتعالى – أراد منهم أن يكونوا على درجة كبيرة من التقوى والصدق.

وعبر بصيغة اسم الفاعل (صادقين) للإشعار بأن الصدق الذي يريده الله – عز وجل – منهم هو صدق ثابت دائم يشتهرون به ويُعرفون بين الخلائق كذلك به.

(والأمر بـ﴿كُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أبلغ في التخلق بالصدق من نحو: اصدقوا)[٢].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠ / ٢٢٣.

(٢) السابق: ١٠/ ٢٢٣.

لقد أعلن تعالى شأنه توبته على أولئك النفر الثلاثة في صدر الآية ليسارع في إدخال الأنس عليهم بعد كل ما قد أصابهم من الألم. وختم الآية بما يتناسب مع صدرها، فاختيرت لهذا الغرض صفتين جليلتين تتناسبان مع السياق ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ثم أثنى عليهم ومدحهم بشكل غير مباشر، حيث أمر المؤمنين بالتحلي بالتقوى والصدق في إشارة ضمنية إلى تحلي أولئك النفر الثلاثة بهما.

إنه بعد هذا العرض لأسلوب القرآن الكريم في إيناس النبي ﷺ وصحابته في الغزوات يتبين أن الآيات الواردة بشأن أحد هي الأكثر إيناساً. فلقد كان الصحابة الذين خالفوا أمر النبي ﷺ وكذلك الذين تولوا أثناء المعركة في كربة شديدة ووحشة عظيمة مما صدر منهم من ذنب، وما ترتب عليه من القتل والجرح والهزيمة. ولقد عاتبهم القرآن في ذلك!! فصاروا في خطب أعظم خوفاً من الله تعالى، لكنه ما لبث أن عُفي عنهم، والعفو من الله – عز وجل – أعلى درجات الإيناس. وكما لوحظ أثناء التحليل أن ذلك العفو جاء مصرحا به ومؤكداً ، وجيء من أسماء الله – تعالى – وصفاته ما تناسب مع ذلك العفو (غفور وحليم) وختُمت بهما الآية، إلى غير ذلك من الأساليب التي ساعدت على إدخال الأنس إلى الصحابة رضي الله عنهم.

بينما لو نظرنا إلى الآيات التي تتعلق بالمخلفين الثلاثة فإنا نجد أنه ذُكر قبول الله لتوبتهم. وتوبته عليهم جاءت معطوفة على توبته تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار ، فكأنهم تابعون لهم في ذلك ، ولم يصرح بذكر العفو عنهم. وختمت آية توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار بـ ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة:١١٧] ، فكانت تلك التوبة منه تعالى بمقتضى رأفته ورحمته بهم خاصة ، فهم يستحقون ذلك منه تعالى. أما ختام آية التوبة على المخلفين الثلاثة فهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨] فكانت كالجواب عن سؤال مقدر برز نتيجة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ ﴾ [التوبة:١١٨] فيقال: لماذا

تاب الله عليهم ؟ فيكون الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهذا كأنه حكم عام لكل من تـــاب الله عليه وليس فيه خصوصية للمخلفين الثلاثة.

وتلا درجة الإيناس التي جاءت فيما يتعلق بأحد الإيناس في الآيات المتعلقة بالخندق أو الأحـــزاب. فيلاحظ أن أسلوب الإيناس فيها أقوى منه فيما يتعلق بصلح الحديبية وبيعة الرضوان. ففي الخندق نجـــد الوعد الصريح المؤكد بقرب نصر الله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة:٢١٤]. بينما في الحديبية وعد بالنصر في المستقبل مع وروده دون تأكيد: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] ، إضافة إلى خصوصية الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام.

وقد أرسل الله – تعالى – على الأعداء في الخندق ريحا وجنودا تحقيقا لذلك الوعد بالنصر: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [الأحزاب:٩] ، وهي أمور مادية. بينما أنزلت السكينة على المـــؤمنين في الحديبية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح: ٤] وهي أمر معنوي.

وبهذا يكون قد تحقق نصر الله في الخندق فعـــلا: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب:٢٥]. بينما في الحديبية وُعدوا بالفتح والمغـــانم: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا﴾ [الفتح:١٨، ١٩].

وما هذا إلا لأن شدة الوحشة التي أصابت النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة في الأحزاب أعظـــم منها في الحديبية كما سبق بيانه.

الفصل الرابع:

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم

في سياق التشريع.

يعترض المؤمن في مسيرة حياته الكثير مما يولد الشعور بالوحشة والمرارة والألم من المصائب والعقبات والصعاب، فيظل يتلمس مؤنساً ومعيناً ونصيراً.

فكيف إذا كان من يزيل عنه تلك الوحشة هو رب الأرباب وملك الملوك وجابر القلوب؟! إنه أنس فلا أنس بعده!! وسعادة هي غاية السعادة!! وهذا ما نجد ألواناً له في حياة الصحابة - رضي الله عنهم-، فمنهم من يتسبب في إدخال الوحشة إلى نفسه ثم يذهب يلتمس لها أنساً، ومنهم من تتسلل الوحشة إليه جراء ما يحدث حوله من أحداث فيظل منكسر النفس مستوحشاً يأمل فيمن يأخذ بيده ليؤنسه.

فهذا عمار بن ياسر- رضي الله عنهما - وأمثاله من الصحابة ممن ضعفوا عن تحمل أذى المشركين فنطقوا بكلمة الكفر رغماً عنهم، واستيحاشهم حينئذ مما وقعوا فيه لظنهم أنهم قد كفروا بالله بعد إيمانهم، إلا إن القرآن يتنزل على سيد الخلق مؤنساً لهم باستثنائه إياهم من زمرة الكافرين ، فالمعول في ذلك هو اطمئنان القلب بالإيمان. قال تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

رُوي أنه: (لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة أخذ المشركون بلالاً وخباباً وعمار بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ حدثه، فقال: كيف كان قلبك حين قلت؟ أكان منشرحاً بالذي قلت؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾)[1].

وفي رواية: (أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى

---

(١) لباب النقول: ١٣٤.

النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: (كيف تجد قلبك؟) قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: (فإن عادوا فعد)[١].

إن الارتداد عن الدين أمره عظيم، فكيف يتحول القلب من الإيمان إلى الكفر!! لهذا جاء قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مشعر بالوعيد والتهديد!! وهنا كيف تكون حال من نطق بكلمة كفر وهو مرغم مكره؟!! أهو داخل ضمن هذا الوعيد؟!! إن قلب من حدث منه ذلك ثم يسمع مثل هذا الوعيد يكاد ينخلع من مكانه بانتظار الحكم عليه.

لكن الله - تبارك وتعالى - الرؤوف بعباده سرعان ما يأتي باستثناء تلك الطائفة التي اطمأن قلبها بالإيمان من ذلك الوعيد: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾: الإكراه: (حمل الإنسان على ما يكرهه)[٢]، ومن هنا يُعرف لم اختير التعبير بـ(الإكراه)؟! لتلك الصعوبة التي يواجهها الإنسان عندما يُحمل على ما يكرهه ويجبر عليه جبراً ويغصب عليه غصبا. وفي هذا التماس عذر لما يقع جراء هذا الإكراه. واختير التعبير بـ (القلب) لما فيه من معنى التقلب. فهو معقل المعتقدات يتقلب من حال إلى حال، ولا يثبت إلا على ما يعتقده اعتقاداً جازماً ويؤمن به إيماناً عميقا؛ لهذا جيء بـ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾ لوصف حال هذا القلب فهو ساكن بالإيمان غير قلق ولا مضطرب. وفي هذا إيناس لتلك الفئة من حيث تيقنها بإحاطة علم الله - عز وجل - لما في القلب.

وأريد التأكيد على معنى تغلغل الإيمان في ذلك القلب فجيء بـ (الباء) لإفادة معنى اختلاط الإيمان بالقلب وامتزاجه به فكأنه صار جزءًا منه.

و(ال) في ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ للعهد؛ لأنه يُقصد به الإيمان بالله المذكور في صدر الآية.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٦٥١/٧.

(٢) المفردات: (كره).

إن هذه الصفات لهذا الإيمان ولذاك القلب مما أدخل الأنس على عمار بن ياسر وأمثالـــه رضـــي الله عنهم لأنها تشير إلى أن تلك الصفة من اطمئنان القلب بالإيمان كانوا يتحلون بها.

ثم نجد الأعظم من هذا!! إنه صحابي سول له الشيطان الارتداد عن الإسلام!! لكنه سرعان ما أدرك فداحة ما صنع لاستيحاش نفسه وهي بعيدة عن كنف هذا الدين القويم، فأراد العود والتوبة.. فهل يُترك بعيداً طريداً مستوحشاً؟ إن الله – تبارك وتعالى– الذي يفرح بتوبة عبده أشد من فرح من وجد دابتـــه بعد ضياعها وهو في فلاة من الأرض، يترل قرآناً يؤنسه بالتوبة عليه، قال تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٨٦-٨٩].

(عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم[١] ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فترلت ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾: إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم)[٢].

وفي رواية أخرى: أنها نزلت في اثني عشر رجلا رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقـــريش ثم كتبـــوا إلى أهلهم هل لنا من توبة فترلت: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾)[٣].

---

(١) هكذا وردت في كتاب لباب النقول في أسباب الترول ص٥٥ ولعل الصواب : (ارتد) ، ويؤكد هذا الرواية الواردة في تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: (كان رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم) ص٣٣٩ من المجلد الثالث.

(٢) لباب النقول في أسباب الترول: ٥٥.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٣٩/٣.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: استثنى تبارك وتعالى من ذلك الوعيد الشديد لمن يرتد عن الدين بعد الإيمان والشهادة بأن الرسول حق ومعرفة البينات من الله — تعالى – من ندم على فعله وخاف أليم عقاب الله – عز وجل — وذلك رحمة منه سبحانه وتعالى.

فإن النادم على ردته المستوحش من فعلته حينما يتلو آيات وعيد الله – تبارك وتعالى– للمرتد ليكاد قلبه ينخلع فرقاً مما ورد، لكنه يأنس ويستبشر ويزول ما به من وجل عند سماع الاستثناء الناشئ عن سعة رحمة الله– تعالى–.

فقد استثنى تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ وعُبر بالماضي ﴿تَابُواْ﴾ لإفادة تحقق ذلك منهم تحققاً فعلياً. وعطف على التوبة الإصلاح ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ كشرط لقبول تلك التوبة، وكذلك عُبر عنها بالفعل الماضي للتأكيد على جديتهم في التوبة وصدقهم فيها فكان منهم أن قرنوا التوبة بالإصلاح. وحذف متعلق (أصلحوا) ليشمل كل ما يمكن أن يكون فيه إصلاح.

ثم بين جزاء من يفعل ذلك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فجاء الخبر مؤكداً بـ (إن). وأفاد المجيء بالمسند إليه اسماً ظاهراً (لفظ الجلالة) لاستحضار عظمة الله – تبارك وتعالى– في موقف التوبة، فلولا رحمته لما كان قبول هذه التوبة.

واختيار صفتي ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لتكونا خبراً لـ(إن) لأن ﴿غَفُورٞ﴾ يعني ساتر عليه ذنبه الذي كان منه من الردة، فتارك عقوبته عليه وفضيحته به يوم القيامة، غير مؤاخذ به إذا مات على التوبة منه، ﴿رَّحِيمٞ﴾

متعطف عليه بالرحمة)[١]، (وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علة لكلام محذوف تقديره: الله يغفر لهم لأنه غفور رحيم)[٢]. وقد أفاد اختيار هاتين الصفتين الجليلتين إدخال الأنس على نفوسهم المستوحشة.

إن استثناء من تاب وندم من الوعيد الشديد للمرتد كان هو المدخل إلى إيناس التائبين النادمين وإزالة وجلهم وخوفهم، وعُبر عن خبر مغفرة الله لهم ورحمته بهم بالجملة الاسمية المؤكدة بـ(إن): ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وإذا ما انتقلنا إلى الشق الآخر من المجتمع المسلم وهو الصحابيات ، نجد أيضاً أن الوحشة قد أصابت بعضهن، وهي وحشة لا يقدر على إزالتها إلا الله تبارك وتعالى. ويلاحظ أن وحشة المرأة الضعيفة كسيرة الجناح تسبب فيها الرجل بشكل بارز، لكن الله – عز وجل– لم يتركها لتسلط ذاك الأخير بل أنزل من القرآن ما يقوّم الأمور ، لتأنس الكسيرة وتسعد الحزينة.

فالصحابيات اللاتي آمن ولحقن بالمدينة بعد صلح الحديبية يقف أهلوهن مطالبين استعادتهن ويؤيدهم في ذلك بنود الصلح.. وهنا ليتأمل حالهن المتأمل!! إنه الخوف من العودة وما يتبع ذلك من القسوة في المعاملة التي قد تصل إلى التعذيب مما لا يقوين عليه ولا يتحملنه بل قد يصل الأمر إلى القتل.

وهنا تتنزل آيات الكتاب العزيز لتؤنسهن وتزيل وحشتهن، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/٣٤٠، ٣٤١.

(٢) التحرير والتنوير: ٣/١٤٨.

كان رسول الله – عليه الصلاة والسلام– قد تصالح مع قريش عند الحديبية– بعد منعه من دخول مكة معتمراً أن يعود العام المقبل– على عدة شروط منها: أنه من قدم على المسلمين من قريش بغير إذن وليه فإنه يرد، ومن جاء قريشاً ممن مع المسلمين فإنه لا يرد[١]، فيروى أنه جاءت إلى النبي مؤمنات فطالبت قريش بهن تنفيذاً لشروط الصلح، فأنزل الله – تبارك وتعالى– آية الامتحان واستُثنيت النساء من ذلك الشرط[٢].

لقد أذهل عز وجل المشركين عند كتابة الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ النص الصريح على تساوي الرجال والنساء في شرط رد من أتى النبي– عليه الصلاة والسلام– من غير إذن وليه فاستطاع ﷺ استثناء النساء المؤمنات، وذلك رحمة من الله – تعالى– بهن فهو العالم بضعفهن وعدم قدرتهن على تحمل ما قد يفعله بهن الأولياء وما قد يلحقونه بهن من الضرر.

وجعل الخطاب في ذلك لجميع المؤمنين فناداهم بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

واختيار التعبير بالفعل (جاء) المتعدي إلى ضمير الخطاب يراد به القصد[٣]. فقد جئن قاصدات المسلمين وليس لديهن أي قصد آخر. ووصفهن بـ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إما (لتصديقهن بألسنتهن ونطقهن بكلمة الشهادة و لم يظهر منهن ما ينافي ذلك، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان)[٤].

وطُلب من الذين آمنوا في جواب (إذا) امتحان أولئك المؤمنات المهاجرات للتأكد من حقيقة الهدف من هجرتهن ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، وكان امتحان الرسول– عليه الصلاة والسلام– لهن بما ورد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٣٤٦.

(٢) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول: ٢١١.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية: ٢٥٢.

(٤) الكشاف: ٤/٥١٧.

أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة: ١٢] [١]، وعند الله- عز وجل- حقيقة العلم ببواطنهن[٢] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

ثم بين تعالى للمؤمنين ما عليهم فعله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا﴾، لقد نُهي عن إرجاع المهاجرات إلى الكفار إن علم المسلمون إيمانهن، كما أمروا برد أموال الأزواج المشركين إليهم التي كانوا قد دفعوها مهوراً وذلك لينقطع كل سبب قد يؤدي إلى نشوء جدل حول أولئك المؤمنات المهاجرات ولضمان شعورهن بالأمان وعميق الأطمئنان، فلا يبقى هناك أي متعلق بينهن وبين الكفار يخفن منه. (والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللائي أسلمن من لطائف القرآن لأن أولئك النساء أصبحن غير زوجات. فألغى إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم)[٣].

والله – تعالى – يعلم حاجة كل امرأة إلى ولي فكيف بمن انقطعت عن أهلها وفارقتهم وأصبحت وحيدة في أرض جديدة، لهذا رغب تعالى المسلمين في نكاحهن، وضمن لهن حقهن فجعل ذلك الزواج زواجاً متكامل الشروط بما فيه من منحها الصداق الذي هي جديرة به فلا ينقص حقها في الصداق حتى وهي في تلك الحال الذي تحتاج فيه إلى ولي بأي شكل كان.

لقد اختص الله – عز وجل- المؤمنات المهاجرات إلى الله ورسوله برحمة منه وفضل لم يحصل على مثله الرجال، فقد نهى عن إرجاعهن إلى الكفار إن عُلم صدق إيمانهن إضافة إلى تحمل دفع ما أنفقه

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٦٤/١٢.

(٢) ينظر: الكشاف: ٥١٧/٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٤١/٢٨.

عليهن من كانوا أزواجهن من أموال المسلمين التي بيد ولي أمر المسلمين ورغب المؤمنين في نكاحهن دون أن يهضم أي حق لهن. وبهذا كله كان إيناسهن ودفع شعور الوحشة عنهن، وجعلهن يعشن في كنف المجتمع المسلم بكل أمن واطمئنان وراحة بال.

ومثلهن تلك الصحابية التي كادت تعيش الوحدة والتعاسة والشقاء بسبب خطأ زوجها الذي لم يزل يتمسك ببعض عادات الجاهلية.. إنها المجادلة التي ظاهرها زوجها وكان يترتب على ذلك الظهار افتراقهما عن بعضهما وما يؤدي إليه هذا الفراق من سيرها وحيدة في غياهب الحياة ومكابدة تربية الأبناء.

لقد كانت (المجادلة) تحت أوس بن الصامت، فقال لها يوما: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت علي، قالت: لا تقل ذلك، فوالله ما أحب الله طلاقا، ائت رسول الله ﷺ فسله، قال: إني أجدني أستحيي منه أن أسأله عن هذا، قالت: فدعني أنا أسأله، فجاءت إلى الرسول ﷺ فقالت: يا نبي الله إن أوس بن الصامت أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، قد قال كلمة والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا، قال: أنت عليّ كظهر أمي، قال النبي ﷺ: (ما أراك إلا قد حرمت عليه) ، قالت: لا تقل ذلك يا نبي الله، والله ما ذكر طلاقا، فرادّت النبي ﷺ مرارا. ثم قالت: اللهم إني أشكو اليوم شدة حالي ووحدتي، وما يشق علي من فراقه، فأنزل على لسان نبيك، فلم تترك مكانها حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ إلى أن ذكر الكفارات، فدعا النبي زوجها فقال له: (اعتق رقبة) ، قال: لا أجد، قال: (صم شهرين متتابعين) ، قال: لا أستطيع، إني لأصوم اليوم الواحد فيشق علي، قال: (أطعم ستين مسكينا) ، قال: أما هذا فنعم[1]. قال تعالى:

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٨/٣-٥.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١- ٤].

لقد افتتحت الآية باستهلال بليغ، حيث قد ابتدأت بـ﴿قَدْ﴾ التي لا يبتدأ بها الحديث إلا إذا كانت جواباً لمتوقع، فقد كانت المجادلة لحسن ظنها بالله - تعالى- على توقع يقرب إلى درجة اليقين أنه - عز وجل- سيترل في شأنها أمراً.

والتصريح بسمع الله - تعالى- لقول المجادلة فيه دلالة على إرادة إعلامها بإحاطة عناية الله - تعالى- بها ورعاية حالها، وهذا مما يدخل الإيناس إلى قلبها.

وجيء بـ﴿قَوْلَ﴾ مصدر صريح ليدل لها على شمول علم الله - عز وجل- بكل ما قالته المجادلة، سواء أكان بصوت مسموع أم لا، وسواء أكان بلسان مقالها أم بلسان حالها.

وفي التصريح عنها بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِى﴾ تكريم لها، وهذا مما يؤنسها.

واختيار الفعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ والمجيء به مضارعا تصوير لهيئة الحديث الذي دار بينها وبين النبي عليه الصلاة والسلام، وكونه مستمرا حتى وقت نزول الآيات؛ وعُطف عليه الفعل ﴿وَتَشْتَكِىٓ﴾ ليقرن بين مجادلتها للنبي- عليه الصلاة والسلام- وبين شكواها لله- تعالى-، وجيء به مضارعا لإفادة الدلالة

نفسها من استمرارها على تلك الحال من الشكوى إلى الله- عز وجل-. وفي ذكر المتعلق ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ مزيد إيناس لها لما فيه من إيحاء بقربها من الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾: ورد المسند إليه اسما ظاهراً وليس ضميراً، للتأكيد على استقلالية الجملة، ولما في الاسم الظاهر من استحضار لصفات الألوهية كصفة السمع التي جاءت خبراً للمبتدأ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع مع استمرار التحاور، وهذا لطمئنتها إلى أن الله – عز وجل – محيط بكامل الموقف عليم بحالها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ فصلت الجملة عما قبلها لأنها بمترلة التوكيد اللفظي للجملة الأولى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، فالفصل لكمال الاتصال، فسمعه – عز وجل- لتحاورهما لكونه – تعالى- يتصف بكمال (السمع) و(البصر)، فبالسمع سمع جدالها وحوارها وشكواها وبالبصر رأي الحالة التي كانت فيها من الهم والحزن والألم وما أتت به من التضرع ورفع الأمر إلى الله والتوكل عليه رجاء أن يكشف ما بها من مصاب، سمعاً ورؤية كما يليق بجلال اسمه وعظيم سلطانه، وقد أفاد إيراد هذه الجملة التدليل على مزيد عناية الله – تعالى – بها حيث أكد لها شمول علمه بحالها لتكون أكثر أنساً واطمئناناً.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾:

أبطلت هذه الآية الكريمة (الظهار) الذي كان معروفاً في الجاهلية، وأعلنت العفو عمن وقع فيه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾. وبهذا تحقق ما كانت تأمله المجادلة، والأعظم من هذا ما حصلت عليه من شرف وتكريم بإنزال قرآن في شأنها يُتلى إلى يوم الدين.

وقد فُصلت هذه الآية عما قبلها لكمال الاتصال فهذه مفسرة للأمر المجادل فيه المذكور في الآية الأولى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ فتكون الثانية بمترلة عطف البيان.

وجيء بالاسم الموصول الدال على الجمع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ليشمل الحكم كل من وقع منه مثل ذلك.

﴿يُظَٰهِرُونَ﴾: لما كان قول المظاهر لزوجه: أنتِ عليّ كظهر أمي كذباً عُبر عنه بصيغة التفعل والمفاعلة[١].

وإضافة (النساء) إلى الأزواج ﴿نِّسَآئِهِم﴾ فيه تأكيد على معنى الارتباط المعنوي والحسي بين الزوجين، وتذكيرهم به ليكون ماثلاً دائماً أمامهم.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ قصرت الأمومة على الوالدات لتبقى للزوجية هيئتها الخاصة، فلا تداخل مع الأمومة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ جاء مؤكداً بـ (إن) والجملة الاسمية ﴿ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ والخبر الثاني ﴿غَفُور﴾ و(اللام المزحلقة) لبيان عظم الذنب وحاجته إلى العفو والمغفرة من الله عز وجل.

﴿لَعَفُو غَفُورٌ﴾: (العفو): التجافي عن الذنب بترك العقوبة[٢]. و(الغفران): ستر الذنب وصيانة العبد من أن يمسه العذاب[٣]. فالتقديم هنا للترقي من الأدنى إلى الأعلى- مع اليقين بعلو صفاته عز وجل جميعاً - فهو – تعالى - يعفو عن الذنب أولاً متجاوزاً عنه، ثم يصون عبده من أن يمسه العذاب وهذا غاية الكرم منه عز وجل.

ولما كانت بعض النفوس قد يداخلها الضيق لما اقترفت من الذنوب شُرعت الكفارة تزكية للنفس وتطهيراً للروح مما ألم بها من دنس المعصية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ... وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٣٤٢/١٩.

(٢) ينظر: المفردات : (عفا).

(٣) ينظر: السابق: (غفر).

وجاءت الكفارات متدرجة من الأصعب إلى الأيسر: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، فمن لم يجد ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، فمن لم يستطع ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾.

وقد جاءت هذه الكفارات بصيغة المصدر الصريح للدلالة على ثبوت حكمها وضرورة الالتزام بها؛ فعلى المذنب التكفير بواحدة منها فلا عذر له بعد ذاك التدرج والتيسير.

لقد أنس تعالى المجادلة بإجابة شكواها، وأبطل حكم الجاهلية الذي هو منكر وكذب وافتراء، وعفا عن زوجها ما وقع فيه، وألزمه هو وأمثاله بالكفارة تطهيراً لنفوسهم، ولَطَفَ بهم فجعلها متدرجة ليأتي منها كل على حسب القدرة والاستطاعة.

وثمة من يتمسك بالعادات والتقاليد من الصحابة غير مدرك ما قد تتسبب فيه من الإيذاء والوحشة للآخرين... فـ (عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين فكانت عنده، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، فخطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع إليك أبدا، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سمع لربي وطاعة. ثم دعاه وقال: أزوجك وأكرمك)[1]. *قال تعالى:*

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٣٢].

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ٤٦.

لقد علم تبارك وتعالى حاجة تلك المرأة إلى زوجها الأول، وعلم ضعفها وقلة حيلتها أمام وليها، فكان من رحمته بها وبجميع من ماثلتها أن أنزل قرآناً يتلى حكم فيه بما يُصلح الشأن ويريح النفس ويُهدئ الخاطر ويطيب القلب.

لقد نهى الأولياء عن التسلط على أمثال تلك المرأة بمنعها من تحقيق مأمولها دون وجه حق ودون أسباب شرعية غير أنها العادات والتقاليد والأنفة.

فجاء جواب ﴿إِذَا﴾ نهي عن عضلهن نكاح أزواجهن الأولين. و(العضل) هو: (كل منع شديد)[١]، و(أصل العضل: الضيق)[٢]، ومن هنا تتضح بلاغة التعبير بهذا الفعل، فهو مناسب لتصوير حال المرأة وحال وليها، فهو يمتنع امتناعاً شديداً من إرجاعها لزوجها، فيصيبها بذلك من الضيق ما الله تعالى به عليم.

والتعبير بالمصدر المؤول في قوله: ﴿أَن يَنكِحْنَ﴾ زيادة في التشديد على النهي عن العضل؛ لما يترتب على النكاح من الفوائد الجمة.

ونلمس الود والمحبة والألفة في نسبة الأزواج إلى ضميرهن، وهذا مما يجعل رجوعهن إلى أزواجهن الأولين خير من الزواج بآخر طالما كانت هناك رغبة من الطرفين في رجوع أحدهما إلى الآخر وذلك ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (لأن الولي إذا علم عدم التراضي بين الزوجين، ورأى أن المراجعة ستعود إلى دخل وفساد فله أن يمنع مولاته نصحاً لها)[٣].

---

(١) المفردات: (عضل).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢/٥٠٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٢/٤٠٧.

وزيادة في الترغيب لامتثال هذا الحكم- الذي أنصف مثل تلك المرأة من جور الولي - ذكر أن مثل هذا الحكم لا يمتثل له إلا من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فعبر بالمضارع ﴿يُؤۡمِن﴾ لإفادة تجدد إيمان القلب بالله واليوم الآخر.

وشدد في التأكيد على خيرية الامتثال لهذا الحكم ببيان الفضل الذي يناله من أقامه ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ فالزكاة والطهر فضيلتان عظيمتان ينالهما ذلك المنفذ لحكم الله – تعالى - في حق تلك المرأة الضعيفة.

ثم تختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فجيء بالمسند إليه اسماً ظاهراً لبيان استقلالية الجملة للتأكيد على عظمة معناها. وعُبر بالفعل المضارع في ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ للدلالة على ديمومة علم الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ والتأكيد على نفي ديمومة علم البشر ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وبينهما طباق سلب. وجعل المتعلق محذوفاً من ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ليفيد أن علم الله – تعالى - محيط بكل شيء، وعلى العكس نفي ذلك عن البشر. وهذا كله لتربية مهابة الله – تعالى - في النفوس وأنه تعالى أعلم بمصالح البشر منهم.

لقد تبين مما سبق أنه لإيناس تلك المرأة الضعيفة التي علم الله – تعالى - ضعفها وقلة حيلتها استخدم أسلوب النهي، فقد نُهي وليها عن التسلط عليها، بالإضافة إلى المجيء بألفاظ تذكر الأولياء أنه كان بين تلك المرأة المغلوب على أمرها وبين من كان زوجها ود ومحبة وألفة جديرة بأن تكون سبباً في رضا الولي إعادة الزوجين إلى بعضهما إذا علم منهما التراضي بالمعروف. ولأجل التشديد على الامتثال لهذا الحكم لم يؤت بأسلوب الترهيب إنما جيء بأسلوب الترغيب، فكان وصف من يمتثل للحكم هو الإيمان بالله واليوم الآخر ثم بُين جزاء الممتثل فكان الزكاء والطهر. وخُتمت الآية بالتحذير الضمني من

مخالفة الأمر بالتذكير بإحاطة علم الله – تعالى – بكل شيء وما فيه صلاح حالهم في الدارين، وما هـذا إلا ضمان إزالة أسباب الوحشة عن تلك المرأة الضعيفة ومثيلاتها وإحلال الأنس وإدخال السعادة.

وأخيراً فإنه يلاحظ أن الآيات التي تتعلق بالمرأة هي الأكثر إيناساً. فقد تعددت الأسـاليب الـتي وردت فيها لتضمن إزالة الوحشة وإحلال الأنس محلها مما لم يأتِ في الآيات التي تتعلق بالرجل. ففيمـا يتعلق بعمار بن ياسر وأمثاله رضي الله عنهم وذلك الصحابي الذي ارتد ثم تاب لا نجد سوى أسـلوب الاستثناء.

أما الأساليب التي أوردت لإيناس من وقع في نفسها وحشة من الصحابيات فهي كثيرة، فمثلاً فيما يتعلق بالممتحنات نجد النهي عن إرجاعهن إلى الكفار والأمر بتحمل ما علـيهن مـن حقـوق ماليـة والتحضيض على نكاحهن مع الوفاء بحقهن كاملاً فيمـا يتعلق بالصـداق بالإضافـة إلى وصفهـن بـ (مؤمنات).

والمجادلة التي لم تغادر مجلسها عند النبي ﷺ حتى أنزل الله في حقها قرآناً يُتلى استجابة لدعائها، وابتداء الكلام بـ ﴿قَدْ﴾ ثم إبراز عناية الله – تعالى – بها والتي تجلت في التصريح بسمع الله لكلامها والتعبير عن لجوئها إلى الله – تعالى – بالفعل ﴿تَشْتَكِي﴾ وذكر المتعلق ﴿ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليوحي بمدى قربها منه عز وجل والتعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ ليؤكد لها استمرار سماع الله تعالى- لما يليق به- بكل كلامها وبكل ما قالته، وللتدليل على مزيد عنايته بها يؤكد لها إحاطة سمعه وبصره بكل شيء، ثم يبطل حكم الظهار الجاهلي ويعفو عن زوجها ويطهره وأمثاله من ذلك الذنب بشرع الكفارة وبجعلها متدرجة حتى لا يكون هناك ضيق في التنفيذ.

أما من عضلها وليها عن الرجوع إلى من كان زوجها فنجد أسلوباً بليغاً لتوجيه ذلك الولي وأمثاله، إنه ينهاهم عن العضل، ولكي يضمن امتثالهم للحكم يتوجه إلى التحضيض والترغيب بدلاً من التخويف

والتهديد ويشدد في التأكيد على خيرية الممتثل للحكم، وما هذا إلا لضمان إزالة الوحشة عنها ومـــن ثم إيناسها.

وبهذا يتضح أنه على قدر الوحشة يكون الإيناس، فإن ضعف المرأة وانكسارها من أسباب شـــدة استيحاشها مما يجعلها جديرة بأن تكون صاحبة النصيب الأكبر في الإيناس.

الباب الثالث :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم

في سياق أحوال اليوم الآخر :

الفصل الأول: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق ساعة الاحتضار.

الفص الثاني: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الحشر.

الفصل الثالث: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق استلام الكتاب والعرض على الميزان.

الفصل الرابع: أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الجنة ونعيمها.

تـــوطـــئـــة:

من المعلوم أن اليوم الآخر بالنسبة لكل إنسان يبدأ من حين نزول الملائكة لقبض روحه مروراً ببعثه والحشر مع جميع الأمم في أرض المحشر ومن ثم تناثر صحائف الأعمال واستلام كـــل واحـــد لكتابـــه والعرض على الميزان وانتهاء بالخلود في نعيم الجنة أو الرمي به في حضن أمه الهاوية.

وهذا الباب سيتطرق إلى الحديث عن أسلوب القرآن الكريم في إيناس المؤمن في هذه المراحل كلها، ومن المعلوم أنها من أشد المراحل التي تمر بالإنسان وحشة وقسوة لتعلقها بالغيب، فالمرء مجبـــول علـــى الخوف من المجهول. لكن المؤمن حاله يختلف عمن سواه؛ لذلك استحق من الله- تبارك وتعالى- إيناسه وطمأنته لما سيكون في الغد.

الـــفـــصـــل الأول :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق ساعة الاحتضار.

إن ساعة الاحتضار هي أولى الخطوات إلى الدار الآخرة، ومن المعلوم أن هولها عظيم وكربها كبير، لكن القرآن الكريم يبشر بأنها لن تكون كذلك بالنسبة لمن قال ربي الله ثم استقام، كما جاء ذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢]:

لقد افتتحت هذه الآية بالتأكيد بـ (إن) لتزف البشرى إلى من عُرفوا بالاسم الموصول وصلته ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ وما في هذا من الثناء عليهم بأنهم اختاروا الله رباً ورضوا به واستقاموا على سبيله، وهذا الوصف لهم يُدخل الطمأنينة إلى نفوسهم من أنهم من المقبولين.

وهؤلاء المعرفون بالصلة حين ينتهي أجلهم ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ، وكم يحمل الفعل﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من إيحاءات السكينة والهدوء والطمأنينة ، فالملائكة تحمل لهم معها في تنزلها كل هذه المعاني الجميلة. وفي تقديم﴿عَلَيْهِمُ﴾ تعجيل ببشارتهم وإفادة للاختصاص ، فهي تنزل عليهم لا على غيرهم بهذه المعاني الطيبة. وفي تنزلها تؤمنهم من الخوف مما سيقدمون عليه وتنهاهم عن الحزن على ما سيفوت ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ وكذلك تبشرهم بما كانوا يوعدون في الدنيا!! إنها الجنة التي طالما اشتاقوا إليها. وقبل أن يكملوا لهم البشارة بالجنة بأن لهم فيها ما يشتهون وما يتمنون، يخبرونهم بولايتهم لهم، فكما كانوا أولياء لهم في الحياة الدنيا هم كذلك أولياؤهم في الآخرة، والغرض من هذا بث الطمأنينة في نفوسهم عند إقبالهم على الدار الآخرة – تلك الدار الباقية بالنسبة لهم – بأنهم معهم ومؤازرون لهم كما كانوا

في الدنيا. واختيار الاسمين الجليلين في هذا المقام ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ لتناسب هاتين الصفتين مع المراد من تنزل الملائكة في تلك اللحظات من إيناس المؤمنين وتبشيرهم.

وقد أخبر المؤمنون أيضاً عما ينتظرهم ساعة خروج الروح وانتقالها إلى العالم الآخر، وقُسموا المؤمنون في تلك اللحظة قسمين: السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٨٨- ٩١].

فـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: لقد وردت هذه الآية بهذه الصيغة لغرض التشويق لما بعدها، فإن النفس تكون في حالة توق إلى معرفة جواب (أما)، فيأتي الجواب ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

واختلف في قراءة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فقُرئت بفتح (الراء) وبضمها[1]. فتكون (روح) بقراءة الفتح بمعنى: نسيماً بارداً في راحة وفرح ورحمة ومغفرة من الله تعالى، وعلى هذا يكون ﴿رَيْحَانٌ﴾ بمعنى: رزق طيب هنيء. أما في قراءة الضم فتكون (روح) بمعنى: روح الإنسان، و﴿رَيْحَانٌ﴾: هو النبات المعروف، ويكون المعنى: أن أرواح المقربين ساعة الاحتضار تُتلقى بريحان من ريحان الجنة فتشمه قبل مفارقة الحياة[1].

وإذا كانت هاتان القراءتان كلتاهما واردتا فإن تلك المعاني جميعها تتآزر لتخرج لنا تصوراً جميلاً لتلك اللحظات التي تقبض فيها روح السابقين المقربين، فتشحذ في النفس الهمة للسعي من أجل

---

[1] ينظر: النشر في القراءات العشر :٢/ ٤٢٣ ، للحافظ / أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري ، أشرف على تصحيحه ومراجعته للمرة الأخيرة صاحب الفضيلة : علي محمد الضباع ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان.

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١١/٦٦٥-٦٦٧.

الوصول إلى تلك المنزلة العظيمة، التي تصبح فيها ساعة الاحتضار لحظة جميلة هنيئة لها حلاوة وفيها سعادة.

أضف إلى ذلك البشارة الأخرى: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، حيث يُبشر بدخول الجنة وهو في ساعة الاحتضار كما بُشر عند تنزل الملائكة عليه: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وبين ﴿رَوْحٌ﴾، و﴿رَيْحَانٌ﴾ جناس اشتقاق، وهذا الاشتقاق أعطى موسيقى عذبة هادئة تتناسب والجو العام للآية التي تفيض بالرحمة وتدخل على النفس الأنس والبهجة.

وتنكير ﴿رَوْحٌ﴾ و﴿رَيْحَانٌ﴾ و﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ يوحي بالعظمة والتفخيم لشأن كل منهم، فهي من أحوال اليوم الآخر التي لا يُدرك كنهها.

وفي إضافة ﴿جَنَّتُ﴾ إلى ﴿نَعِيمٍ﴾ تحقيق للإيجاز، فلو لم تكن هذه الإضافة لقيل: «جنة ينعمون فيها».

و«أصحاب اليمين»، يقول تعالى عنهم: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، إنه في إضافة ﴿أَصْحَابِ﴾ إلى ﴿الْيَمِينِ﴾ إيحاء برفعة هؤلاء المعبر عنهم، وعلو شأنهم. وخُصصوا بهذا الوصف لأنهم يأخذون صحائف أعمالهم عند المحشر بأيمانهم كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وقد اختلف في المقصود بـ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، فقيل يراد: فسلام لك إنك من أصحاب اليمين، فيكون المقصود من الآية بشارة المؤمن بأنه سلم من عذاب الله ومما يكرهه[1]. وقيل:

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١١/٦٦٧.

﴿لَّكَ﴾ هو خطاب للنبي ﷺ، أي: (فسلامة لك يا محمد منهم فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله، أو أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة)[١]، وقيل: (أي: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، أي يسلمون عليك)[٢]؛ (وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه!! حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم: فيطمئن باله ويشعر بالأنس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين)[٣].

وأياً كان المعنى فإن كلمة (سلام) المنكرة توحي للقارئ أو السامع بالراحة والسكينة والأنس والاستبشار الذي تحمله هذه الكلمة معها وهي مسافرة إلى أعماق النفس لتستقر هناك وتستقر معها تلك المعاني الطيبة كلها.

ويوصفون عند انتقالهم إلى الدار الآخرة بأنهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. وتنكير ﴿طَيِّبِينَ﴾ يوحي بتنوع الطيب في هؤلاء المؤمنين فهم طيبو الرائحة، طيبو النفس، طيبو الأخلاق مترهون عن الشرك[٤]، ولم لا يكونون كذلك وهم لهم الروح والريحان؟!

وتتلقاهم الملائكة أيضاً بالسلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ وهذا التسليم يحوي كل المعاني والإيحاءات الطيبة خاصة أنه جاء نكرة، وما هذا إلا لزيادة إيناسهم على ما كانوا قدموه لهم عند تنزلهم عليهم ونزع أرواحهم.

---

(١) معالم التنزيل: ٢٩١/٤.

(٢) الكشاف: ٤٧٠/٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٤٧٢/٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١١٦/١٣.

وإن كانوا قد بُشروا قبل هذا بدخول الجنة إلا أنهم هنا يقال لهم من قِبل الملائكة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وفي هذا بشارة لهم أن قبورهم ستكون روضة من رياض الجنة، فأرواحهم ستكون في نعيم حتى قبل قيام الساعة.

إنه لأجل إيناس المؤمنين استخدمت أساليب عدة، فمن الأساليب التي وردت في آيات (فصلت) التأكيد والإيحاءات التي حملتها بعض الكلمات كـ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ و ﴿أَوۡلِيَآؤُكُم﴾ و﴿تَدَّعُونَ﴾، وفي (الواقعة) أسلوب الشرط الذي أفاد التشويق والترغيب، وتعدد القراءات وما أدت إليه من التوسع في المعاني، وأيضاً التنكير والإضافات، إضافة إلى أن (الألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة وتلقي ظلال الراحة الحلوة والنعيم اللين والأنس الكريم)[1]، وفي (النحل) أوحت كلمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ المنكرة بالعديد من المعاني التي تريح النفس وتؤنسها وتذهب أكدارها، وكذلك حال الملائكة معهم وما يبشرونهم به.

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٤٧٢/٦.

الـفـصـل الـثـانـي :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الحشر.

إن المؤمن لتدخله الوحشة ويصيبه الخوف عندما يعرف ما سيكون عليه حال الأمم في المحشر من الهول العظيم والكرب الكبير: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] ، فيأتي القرآن ببيان حال المؤمنين الطيبة حيث إنهم: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠]، فيترتب على ذلك أن تكون (وجوههم): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

إن في التعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ إيجاز إذ يدخل تحته كل من يتصف بالإيمان. وتعريف المسند إليه بالموصولية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يوحي بالمترلة الكبيرة لأولئك المعبر عنهم، فهم مُعرّفون بهذه الصفة العظيمة (الإيمان) لكونها الصفة العامة لهم ولا صفة لهم أعظم منها.

والتعبير بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ يدل على وقوع الإيمان منهم وتحققه وظهور آثاره عليهم واضحة جلية. وتخصيص وصفهم بالإيمان فيه تشريف لهم وتنويه بشأنهم.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ للتوسط بين الكمالين، فهما متفقان في الخبرية لفظا ومعنى إذ إن كلاً منهما يُعد سبباً في إدخال الله – تعالى– لهم في رحمته، وهذه التعابير كلها فيها تأنيس للمؤمنين.

وجملة ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ جواب (أما). والتعبير بالفعل المضارع (يدخلهم) لاستحضار تلك الصورة وتخيلها وما تؤدي إليه من الشعور بالمسرة والأنس.

وإضافة (رب) إلى ضميرهم فيه إيحاء باختصاصهم بالقرب من ربهم، وكأنه تعالى ربهم وحدهم دون سواهم. إضافة إلى أن التعبير بلفظ (رب) دون سواه إشارة إلى رعايته تعالى لهم وعنايته بهم. وهذا أدخل للإيناس من التعبير بلفظ الجلالة.

وفي قوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ تصوير، إذ أطلق الحال (الرحمة) وأراد المحل (الجنة) على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الحالية. وهذا التصوير يشعر بأن الجنة التي سيدخلهم ربهم فيها هي جنة مملوءة بالرحمة، وأن الرحمة تفيض منها وتغمر ساكنيها وتحيطهم من كل جانب، وكأن الجنة تتحول إلى رحمة يسكنها المؤمنون.

وإضافة (الرحمة) إلى الضمير الذي يعود إلى الله - عز وجل- يوحي باختصاص الله- سبحانه وتعالى- بهذه الرحمة، وأنه- تعالى- يمن بها على من يشاء من عباده، وهوما يُشعر بمزية هؤلاء وشرفهم على غيرهم إذ اختصهم تعالى برحمته. ولا يخفى ما في هذا من الإيناس.

والتعريف باسم الإشارة المقترن بلام البعد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ يوحي بأن هذا الجزاء جزاء عظيم ومنزلة رفيعة لا ينالها إلا من امتن الله - تعالى- عليه وشرفه وكرمه.

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ قصر، إذ قصر الجزاء المتمثل في الدخول في رحمة الله - تعالى- على كونه هو الفوز المبين، وطريق القصر تعريف الطرفين وضمير الفصل للتأكيد، وهذا لإشعارهم باختصاص الله – تعالى – إياهم بالفوز المبين فيكونون أكثر أنساً وابتهاجاً.

وحيث إن المؤمنين يكونون آمنين في المحشر فإنك تجدهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

وجيء بـ﴿وُجُوهٌ﴾ نكرة للإيحاء بعظمة أصحاب تلك الوجوه وعلو منزلتهم، فحينما يكون غيرهم في تلك الحال من الفرار والخوف الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣- ٣٧]؛ يكونون هم على حال مغايرة.

وفي ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ إيجاز بحذف جملة، إذ التقدير: وجوه يوم يفر المرء من أخيه إلى آخره مسفرة[١]، وأريد من هذا الإيجاز المسارعة في إيناس المؤمنين وتبشيرهم.

﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾: أي: (مشرقة مضيئة)[٢]، واختير وصف الوجوه بالإسفار؛ لأن (الإسفار يختص باللون نحو: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ أي؛ أشرق لونه)[٣]، ففي هذا التعبير ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ دلالة واضحة على هيئة تلك الوجوه فلونها متفتح كلون الصبح المشرق[٤].

أما قوله: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ ففيه مجاز عقلي، فقد أسند الضحك إلى ضمير الوجوه، وهذا المجاز علاقته المكانية، إذ الوجوه ليست الفاعل الحقيقي للضحك، وإنما هي مكان له، والفاعل الحقيقي هو الثغر، وقد حقق هذا المجاز المبالغة في الشعور بالفرح والسرور، فهم لشدة سرورهم صارت وجوههم كلها ضاحكة.

وزيادة (السين والتاء) في ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ أفاد المبالغة في إحساسهم بالسعادة مما بُشروا به.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢١/٣٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ٤٥٤/١٢.

(٣) المفردات: (سفر).

(٤) ونلاحظ في نفس هذه السورة أنه قد اشتق من مادة (سفر) أيضا وصف للملائكة، قال تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ [١٥]، فهم الملائكة الذين يسفرون بين الله ورسوله بالوحي أو هم الذين يحصون أعمال الناس فيكتبونها، فعلى المعنى الأول يكون ﴿سَفَرَةٖ﴾ جمع سفير، وعلى الثاني يكون جمع سافر وهو الكاتب. والجامع بين هذه المعاني هو الإبانة والوضوح. ينظر: جامع البيان: ١٢/ ٤٤٦، وينظر: المفردات : (سفر).

والتعبير عن الضحك والاستبشار بصيغة اسم الفاعل يشعر بدوام هذين الوصفين لوجـــوه المـــؤمنين وثبوتهما لهم.

وحروف الهمس في الآيتين كـــ«السين، والفاء، والحاء، والكاف، والتاء والشين» تـــوحي بمـــدى الأنس والسعادة والطمأنينة التي تمتلئ بها نفوسهم.

إن المتأمل لهاتين الآيتين رغم قِصرهما وقلة عدد كلماتهما إلا أنه يجد فيهما الكثير والكثير من المعاني التي تبهج النفس وتؤنسها فتراكيبها بليغة وكلماتها معبرة، وحروفها موحية، إضافة إلى الألفاظ المعـــبرة التي وردت في آية سورة (الجاثية) كـــ﴿ءَامَنُوا﴾ و﴿رَبُّهُم﴾و﴿رَحْمَتِهِ﴾، وكذلك قصر ما سيحصلون عليه من الله – تعالى – في الدار الآخرة بأنه هو الفوز البين الظاهر الذي لا فوز أبين منه.

الفصل الثالث :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق استلام الكتاب والعرض على الميزان.

ينقسم الحديث في هذا الفصل إلى شقين: الأول: أسلوب القرآن في عرض استلام المؤمن لصحائف أعماله، والثاني: أسلوب القرآن في عرض وزن الأعمال.

وقد صورت الآيات الواردة في سورة (الحاقة) ما يتعلق بالشق الأول أبدع تصوير، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٤].

إن هذه الآيات تصف المؤمن الذي يُؤتى كتابه بيمينه وما يكون فيه من السعادة والسرور وما ينقلب إليه من النعيم في الجنة.

فعبر عن المسند إليه بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ وهذا لتكريم من ذلك حاله ممن أوتوا صحائف أعمالهم بأيمانهم، فقد كان العقل الذي مُيزوا به نافعا لهم للوصول إلى تلك الحال التي صاروا فيها.

وفي قوله: ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ كناية عن المؤمن الطائع. وأفادت هذه الكناية تصوير حال المؤمن عند استلام صحائف الأعمال، فهو سيؤتى صحائفه بيمينه، وهذا فيه بشارة له بالفوز والفلاح.

و﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾: جواب (أما). و﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل بمعنى تعالوا أو خذوا[1]، وهذان المعنيان لـ﴿هَآؤُمُ﴾ يصوران حال المؤتى كتابه بيمينه، فعلى المعنى الأول: فإن المتأمل يتصوره وهو ينادي أهل المحشر بصوت عالٍ فور استلامه لكتابه: تعالوا إلي اقرؤوا كتابي المشرِّف المنير، وذلك لفرط ما هو فيه من السعادة والحبور. وعلى المعنى الثاني: فتكون هيئته كأنه حامل لكتابه مسرور به وكلما صادف أحداً قال له: خذ كتابي اقرأه.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن:٢١٧/١٢، وينظر: الكشاف: ٦٠٢/٤.

وأيضاً نلاحظ أنه في هذا القول قد حُذف المفعول به، والتقدير: (هاؤم كتابي اقرؤا كتابي)[١]، وأفاد الحذف الإيجاز إضافة إلى ما يوحي به من حال المؤمن في تلك اللحظة من البهجة والسعادة والسرور ما جعله في عجلة من أمره ليس لديه الوقت ليطيل في الكلام، فهو عجل يريد إبراز فوزه للآخرين سريعاً.

وقد ورد في سورة (الإسراء) قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

وصدر قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ بـ (إن) واسمية الجملة، وذلك للتأكيد على أنه كان يعلم أنه سيلاقي حسابه، إذ إن ﴿ظَنَنتُ﴾ هنا على ما رُوي عن أهل التفسير بمعنى: أيقنت وعلمت[٢]، ولهذا أُعيد التأكيد بـ (أن) والمصدر ﴿مُلَٰقٍ﴾ فقال: ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ للإشعار أنه لم يكن يجول بخاطره أدنى شك في أنه سيلاقي حسابه، مما كان يدفع به إلى تقوية إيمانه وزيادة عمله الصالح.

و(الهاء) في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ هي (هاء السكت)، لكن جاءت القراءات بإثباتها وصلاً[٣]، وقد يكون الغرض من هذا هو تصوير ما سيكون عليه المؤمن في تلك اللحظة، فهو لفرط سعادته وشدة سروره يحتاج إلى السكوت أثناء كلامه ليلتقط أنفاسه وكأنه يجري ويقفز في أرض المحشر فرحاً وحين يقابل أحداً ويريد التحدث إليه تكون هذه حاله من الحاجة إلى التقاط النفس ليتمكن من استكمال حديثه.

والفاء في قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ تشعر بأن المؤمن يكون في العيشة الراضية فور إيتائه كتابه وقراءته له وسروره به، وهوما يوحي بإكرامه وذلك بسرعة مجازاته بالجزاء الطيب. فالعطف بـ (الفاء) هنا أدخل في باب الإيناس.

---

(١) الكشاف: ٦٠٢/٤.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢١٧/١٢، ٢١٨، وينظر: معالم التنزيل: ٣٨٨/٤.

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر : ١/ ٤٦٤.

وأفاد التعريف بضمير الغيبة (هو) الإيضاح والتقرير، فمن يُؤتى كتابه بيمينه هو دون غيره الذي ينال العيشة الراضية ، وفي هذا الاختصاص إيناس أكبر للمؤمنين.

وفي إسناد ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ إلى ضمير ﴿عِيشَةٍ﴾ مجاز عقلي علاقته المفعولية، إذ العيشة لا تكون راضية وإنما تكون مرضية والذي يرضى هو صاحبها، (والذي سوغ المجاز وحسنه: هو العلاقة بين صاحب العيشة والعيشة في تعلق الفعل بهما، فتعلقه بصاحب العيشة من حيث صدور الرضا منه، وتعلقه بالعيشة من حيث وقوعه عليها. وبلاغة المجاز: هو المبالغة في جمال العيشة، وأنها من الروعة بحيث يتخيل أنها وهي لا تعقل ولا تُحِس قد شاركت في هذا الرضا)[1]. فأفاد هذا المجاز إدخال الأنس والبهجة على المؤمنين عند تصور ما أوحى به هذا المجاز.

وتنكير ﴿جَنَّةٍ﴾ و﴿عَالِيَةٍ﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يوحي بتميز هذه الجنة التي تكون فيها العيشة راضية. ووصف ﴿جَنَّةٍ﴾ بـ﴿عَالِيَةٍ﴾ يوحي بالمعنيين الحسي والمعنوي، فهي مرتفعة في المكان رفيعة في المكانة.

وإضافة (القطوف) إلى ضمير (الجنة) في قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ إضافة إلى إنه حقق الإيجاز فإنه أفاد المبالغة في وصف كثرة ثمر تلك الجنة، فكأنها لكثرة ثمرها الداني أصبحت كلها عبارة عن قطوف دانية.

وتنكير ﴿دَانِيَةٌ﴾ يشعر بشدة دنو الثمار، وذلك ليوحي بأنه من النعم التي في تلك الجنة أن المتنعم فيها لا يجد أية مشقة ولا يبذل أي جهد للحصول على القطوف.

وبين ﴿عَالِيَة﴾ و﴿دَانِيَةٌ﴾ طباق، وقد منح هذا التضاد مجالاً أكبر للنفس لتصور علو تلك الجنة وذلك عند ذكر الضد وهو (الدنو) وإن كان لم يؤتَ به لما هو مضاد لعلو الجنة، لكن تذكر الدنو في حد ذاته

---

(١) معاني التراكيب : دراسة تحليلية في بحوث علم المعاني : ٨٢/١، ٨٣ ، لـ د/ عبد الفتاح لاشين ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة.

في تلك اللحظة يبالغ في الإحساس بما توحي به كلمة (عالية) التي وصفت بها الجنة ، مما يعطي شعوراً أكبر بالأنس.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾ الإباحة، وفي هذا إتمام لتنعمهم بما في الجنة.

وفي الآية أيضاً حذف للمفعول المطلق إذ التقدير: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً، وقد حقق هذا الحذف الإيجاز، كما أدى إلى سرعة الانتقال إلى سبب هذا المن وذلك الإكرام وهو تقواهم في الدنيا وطاعتهم.

ويُلاحظ أنه في الآيات الأول كانت الضمائر عن المفرد، أما في هذه الآية فقد جاءت على الجمع؛ وذلك لأن الحديث كان في الآيات الأولى يذكر ما سيمر به كل مؤمن على حده، أما في هذه الآية فإن الخطاب للجميع وذلك بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها فيكون الخطاب لهم جميعاً كما يخاطب المُضيف أضيافه بعبارات الإكرام[1].

وجاء في سورة (الانشقاق) قوله تعالى:﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ [الإنشقاق: ٧- ٩].

أما الممدود في آيات (الحاقة) كـ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ و﴿حِسَابِيَهۡ﴾ و﴿رَّاضِيَةٖ﴾ و﴿عَالِيَةٖ﴾ و﴿دَانِيَةٌ﴾ و﴿خَالِيَةِ﴾ فقد ساعدت في تصوير الفرح والسرور الذي يكون فيه من أوتي كتابه بيمينه، وأن صوته يعلو بالضحكات وقلبه يمتلئ بالفرحة وصدره يفيض بالانشراح.

ويلاحظ أن ما ورد في سورة (الحاقة) هو الأعظم في الإيناس لما حوته الآيات من تفاصيل أكثر، ولتلك الصور التي نقلتنا لنعيش تلك المشاهد.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢٤/٢٩.

لقد أبرزت هذه الآيات ما يكون عليه المؤمن الذي يُؤتى صحائف أعماله باليمين من السعادة والفرح والحبور، واختير لذلك كلمات موحية، وعبارات بليغة ساعدت على تصوير هيئة المؤمن في تلك اللحظات، كما رسمت بموسيقاها العذبة الحالة النفسية له أيضا.

أما ما يتعلق بالشق الثاني فقد ورد في (الأعراف) و(المؤمنون) قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] ، [المؤمنون: ١٠٢].

إنه باستخدامه أسلوب الشرط يشوق إلى معرفة الجواب ويجعل المتلقي أكثر تلهفاً لذلك.

والمجيء بـ﴿ثَقُلَتْ﴾ فعلاً ماضياً يفيد تحقق الفعل وحدوثه.

وحُذِف المضاف والتقدير: (كفة موازينه)[1] للإيجاز والاختصار.

وإضافة (موازين) إلى الضمير العائد على المؤمن فيه إشارة إلى أن لكل واحد موازينه الخاصة به. وجاءت (موازين) على زنة (مفاعيل) من جموع الكثرة، وهذا فيه إيحاء إلى إن أعمال المؤمن كثيرة فتحتاج إلى موازين كثيرة كذلك لتستوعبها، وهذا فيه إيناس للمؤمن من حيث إشعاره بقبول أعماله جميعها.

وفي قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تصوير، فقد جعل من أعمال المؤمن شيئاً مجسداً ملموساً يمكن أن يوضع في الميزان وله كتلة يمكن أن تُوزن، ويأنس المؤمن عند سماعه مثل هذا التعبير لما فيه من البشارة بفوزه وفلاحه.

ويلاحظ أنه أُسندت (موازين) إلى الضمير العائد على المفرد الغائب ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾، بينما جاء اسم الإشارة وما بعده للجمع: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للإيحاء بأن كل مؤمن سيحاسب على حدة

---

(١) روح المعاني: ٨/٤٥٣.

وستوزن أعماله بمفرده وهذا فيه ستر عليه إذ يتفضل الله – تعالى – عليه بعدم فضح سيئاته أمام الخلائق، أما الفلاح والفوز فيكون أمام الجميع وفي معية الجماعة؛ وذلك لأن الإنسان لا يتذوق للمسرة والسعادة طعماً إلا إذا كان بصحبة آخرين لأن الوحدة من المنغصات فلا يكتمل سروره إلا مع غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه قصر، إذ قصر الفلاح على المشار إليهم بـ (أولئك)، وهو من باب قصر الصفة على الموصوف، وطريقه تعريف الطرفين، وضمير الفصل ﴿هُم﴾ للتأكيد، فالفلاح مقصور على من ثقلت موازينه، وعُبر عن هذا الفلاح في سورة (القارعة) بقوله تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾ [القارعة: ٦، ٧] ، وقد جاء تفصيل هذه العيشة الراضية في سورة (الحاقة) عند ذكر استلام الكتاب باليمين.

ويلاحظ أنه في سورتي (الأعراف) و(المؤمنون) كان التركيز على بيان اختصاص من ثقلت موازينه بالفلاح، أما في (القارعة) فكان التركيز على إبراز الحياة الكريمة التي سيحياها.

وكلتا الصورتين تتآزران في إدخال الأنس والسعادة على قلب المؤمن، فمن خلالهما يكون قادراً على تصور ما سيؤول إليه في عالم الغيب.

الفصل الرابع :

أسلوب الإيناس في القرآن الكريم للمؤمنين في سياق الجنة ونعيمها.

يندرج تحت هذا الفصل مبحثان، أحدهما يتناول أسلوب القرآن في عرض النعيم الحسي للمؤمنين في الجنة، والآخر يتناول أسلوب القرآن في عرض النعيم المعنوي. غير أنه من الملاحظ وجود هذين الجانبين في كثير من الآيات، لكن مما يساعد على الفصل بينهما ومعالجة كل واحد منهما في مبحث مستقل، هو أن جانباً واحداً يكون هو الأبرز في الآيات ويراد غرضا رئيس والآخر عرضاً.

المبحث الأول:

أسلوب القرآن الكريم في عرض النعيم الحسي للمؤمنين في الجنة:

إن المتتبع لما ورد في القرآن الكريم من ذكر للنعيم الحسي في الجنة يجده مبثوثاً في كثير من الآيات والسور. غير إن ما كان غرضه الإيناس والتبشير ينحصر في حيز أقل، وهو ما كان سابقه قرع عظيم للأسماع بما في الآخرة من هول كبير وعذاب أليم لغير المؤمنين، أو ما كان سياقه فيه ما يدل على وحشة المؤمنين في ذواتهم.

فمن **النوع الأول**: ما ورد في (**النساء**) ، **قال تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: ٥٧] ، و(**الحج**): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: ٢٣] ، و(**يس**): ﴿ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٥٥- ٥٨]، و(**الدخان**): ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١- ٥٧].

ومن **النوع الثاني**: ما ورد في (**الكهف**): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٣١] ، و(**العنكبوت**): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت:٥٨] ، و(**الإنسان**): ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٥- ٢٢].

وبتأمل هذه المواضع نجد أنها تشترك في التعبير ببعض الأساليب التي يكون الغرض منها إشاعة الإيناس في جو الآيات.

فمثلاً ورد **القصر** في أكثر من موضع، منها ما ورد في (النساء): ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، وفي (الكهف): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، وفي (يس): ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ، وفي (الطور): ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾، فمثل هذا القصر يوحي باختصاص المقصور بالمقصور عليه دون غيره من أمثال من تقدم بيان حاله في العذاب.

وكذلك **التقديم** استخدم كثيراً في الآيات، والغرض منه: إما دفع توهم غير المعنى المراد، أو تعجيل المسرة للمتلقي، وهما مقصود فيهما ذات الهدف من إشاعة الإيناس في جو الآيات. فمما ورد التقديم فيه لغرض دفع توهم غير المعنى المراد ما جاء في (النساء) من بيان الخلود في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وأن لهم فيها الأزواج المطهرة في الجنة لا في غيرها ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، وكذلك ما ورد في (الكهف) و(الحج): ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾، وفي (الكهف): ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، وفي (الحج): ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ، وفي (العنكبوت):﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، وفي (يس): ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، وفي (الدخان): ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ و﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾، وفي (الطور): ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، وفي (الإنسان): ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ و﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾و ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾. وكل ما ورد من تقديم في الآيات السابقات لدفع توهم أن ذاك النعيم يمكن أن يكون في غير الجنة، فهو في الجنة لا في غيرها، وفي هذا إيناس للمؤمنين لما قد سبق من ذكر مكان عذاب الكفار

وهو (النار)، أو لوحشتهم بسبب الحال التي كانوا عليها في الدنيا، فبهذا يكون ذكر المكان وهو (الجنة) فيه إيناس ومسرة، إضافة إلى ما في ذكر المكان وهو (الجنة) من إيحاء بالخلود الذي لا زوال بعده، فيطمئن المؤمن إلى أن ما فيه من نعيم لا زوال له، كما أن نعيم الجنة من عند الله مباشرة لا وسائط فيه كنعيم الدنيا.

ومن التقديم للغرض الثاني وهو تعجيل المسرة للمتلقي ما ورد في (الطور): ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وفي (الإنسان): ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ و﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِءَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ و﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، إضافة إلى ما يوحي به هذا التقديم من الاختصاص وما يتبع ذلك من شعور الأنس والابتهاج بهذا الاختصاص.

والإسناد والإضافة ، فالإسناد مثل ما جاء في (النساء): ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَنُدْخِلُهُم ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، و(الحج): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، و(العنكبوت): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، و(الدخان): ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ و﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، و (الطور): ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ و﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ و﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، و (الإنسان): ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، فكل ما مر من أفعال نجد أنها مسندة إلى الله – تبارك وتعالى – وذلك لإفادة عظم تلك الأفعال لذاتها فلا يقدر عليها إلا الله – تبارك وتعالى– كالإدخال في الجنة والوقاية من النار، أو لبيان كرامة المفعول به عند ربه ورفيع مكانته، أو لسعة النعم وكثرتها. وهذا كله أدخل في الإيناس، غير إن ما ورد في (الإنسان) يبدو أنه الأكثر إيناساً وهذا لعدة أسباب، منها: أنه عبر بالفعل الماضي (وقاهم) بينما عُبر في غيره بالمضارع كـ (سندخلهم) و(يدخل)

و(لنبوئنهم)، ومن المعلوم أن الماضي يفيد تحقق الوقوع فالتعبير به في أحوال اليوم الآخر أشد إيناساً ، لأنه يؤكد تحقق الفعل ويجعل النفس أكثر تصوراً له. وأسند الفعل إلى لفظ الجلالة بينما أسند الكثير من الأفعال في المواضع السابقة إلى الضمير، وفي هذا دلالة أكبر على كرامة المفعول به وهم (عباد الله)، وتنكير (شر) لإفادة العموم، فقد وقاهم تعالى من كل شر في ذلك اليوم، وأخبر عن جزاء صبرهم أنه ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، فعطف (حريرا) على (جنة)، وهذا العطف جعل من المعطوف (حريرا) كأنه نعمة أخرى غير الجنة، وهذا التخصيص للحرير في هذا الموضع لإخبارهم أن هذا هو جزاؤهم على الصبر لما يشعر به الصابر من قسوة وخشونة لذلك الشيء الذي يصبر عليه وعنه، فكان الحرير ناعم الملمس هو ما يتنعم به.

أما **الإضافة** فنجدها في (الكهف): ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ فالمؤمنون في الجنة مستقرون لا يحولون عنها ولا يزولون، وفي (يس): ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فأفادت هذه الإضافة الإيحاء بتملك المؤمنين الجنة فكأنهم بعد دخولهم فيها أصبحوا مالكيها، وفي (الطور): ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وفي (الإنسان): ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ففي إضافة (رب) إلى الضمير العائد على المؤمنين تشريف لهم وتكريم، بالإضافة إلى ما فيه من الإيحاء باختصاصهم بربوبيته دون غيرهم.. ولم لا؟ فهم عباده الذين آمنوا به في الدنيا دون غيرهم. ولعلو منزلة المؤمنين عند ربهم أيضاً نجد إضافة (عباد) إلى (الله) في قوله في سورة (الإنسان): ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

ويلاحظ أن معظم ما ورد من ألوان نعيم الجنة جاء **منكرا**، وذلك للاختلاف في النوعية، فقد ذكرت أنواع نعيم الجنة بأسماء يعرفها المتلقي، لكن تلك النعم تختلف في كنهها عما هو موجود في الدنيا كماً وكيفاً، فهو كم غير متناهٍ وكيف غير معهود. فما جيء به نكرة لإفادة التعدد والكثرة

(جنات، وفاكهة، وعيون، ولحم)، وما جيء به نكرة لإفادة أن كنهه غير معهود فهو من الفخامة والنفاسة بمكان (أساور وذهب، ولؤلؤ، وسندس وإستبرق وثياب وحرير وكأس وأكواب). فهذا التنكير يتيح للنفس أن تستغرق في خيالاتها لترسم صوراً متعددة لذلك النعيم، وهي على يقين أن ما ينتظرها في الجنة هو أعظم من ذلك فيكون الأُنس وتكون السعادة والبهجة.

وقد رسمت كل آية أو آيات **صورة** رائعة لحال المؤمنين في الجنة، وقد اتسمت هذه الصورة بخاصيتين:

أولها: التنويع في استعمال المجاز العقلي والاستعارة والكلمات الموحية والعبارات المؤثرة... إلخ.

ثانيها: إضفاء المثالية على النعم، فتأتي بالنعمة التي يعرفها المتلقي في الدنيا وتخلصها من شوائبها، فالماء يكون جارياً غير ساكن ولا آسن ، والأزواج مطهرة ، والظل يكون ظليلاً ، والطعام والشراب يكونان هنيئين... إلخ.

فمثلاً في سورتي (النساء) و(الحج) جاء بصورة للجنات وجري الأنهار من تحتها:﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ، فيلاحظ إسناد الفعل (تجري) إلى (الأنهار) وفي هذا الإسناد مجاز عقلي، فالأنهار هي مكان جري الماء وليست الفاعل الحقيقي له، وقد أشعر هذا المجاز باشتراك الأنهار مع المياه وتفاعلها معها كونها من أسباب إدخال الأنس والبهجة والسرور على المؤمنين. والمجيء بقيد (من تحتها) أفاد تصوير هيئة جري تلك الأنهار، فهي تتخلل تلك الجنات وتجري عند أسفل أشجارها لترويها فيتأكد ضمان استمرار خضرتها.

وجمع (الأنهار) يوحي بأن الجنات يتخللها الكثير منها، مما فيه دلالة قوية على ديمومة خضرة تلك الجنات ونضارتها وأن الجدب والاصفرار أمر بعيد عنها. إلا إنك تجد أن ما في (النساء) أكثر إيناساً مما ورد في (الحج)؛ وذلك لأنه قد آزرت صورة جري الأنهار في الجنة أمور أخرى ، حيث ذُكر الخلود

الأبدي في الجنة وذكرت نعمة الأزواج المطهرة مع التركيز على التنعم بالظل الظليل. بينما ذُكـرت في (الحج) نعمتا الحلي واللباس، ولا شك أنه لا أعظم من الخلود الأبدي في الجنة ولا مقارنة بـين الحلـي واللباس وبين الأزواج المطهرة والظل الظليل، ففي هذين الأخيرين تجتمع الراحة المعنوية والمادية، فمـع الأزواج الهناء والراحة النفسية، وفي الظل الظليل تكمن الراحة الجسدية.

وصُورَ المؤمنين مع أزواجهم في الجنات صورة ملؤها الهدوء والسكينة، وجـاء هـذا في سـورتي (النساء) و(يس)، ففي (النساء): ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾، فالأزواج مطهرات من كل ما كان يشوبهن في الدنيا مادياً ومعنوياً، والمؤمنون معهن في ظل ظليل ينعمون بالهدوء والسـكينة والجو اللطيف. وقد وصف (الظل) بـ (الظليل)، لتأكيد معناه، فهو وصف مشتق من اسم الموصـوف للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه، كما يقال: ليل أليل ويوم أيوم[1]. كما أنه في لفظ (ظليلا) احتراس عن الفهم الخاطئ من أن هذا الظل قد يدخله أحياناً شيء من أشعة الشمس، لأن المقصود بـ ﴿ظِلا ظَلِيلاً﴾ أن ظل أوراق الأشجار نفسه في ظل، ذلك أن كل ورقة هي في ظل الورقة التي تعلوهـا، ممـا يجعل الأوراق القريبة من المستظل هي الأكثر برودة، إضافة إلى أن أوراق الأشجار لخفتها تتحرك بمجرد مداعبة نسمات الهواء لها فتلطف الجو[2].

أما صورة المؤمنين مع أزواجهم التي وردت في (يس) ففيها إضافات لطيفة: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، فإضافة إلى الظلال نجد الأرائك والاتكـاء عليها وإغداق النعم عليهم من الفاكهة وغيرها، فقوله: ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ قرئت هكذا وقرئت (في ظُلـل)[3]،

---

(١) ينظر: الكشاف: ٥٢٣/١، وينظر: التحرير والتنوير: ١٥٩/٤.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: ٢٣٥١/٤.

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر : ٢/ ٣٩٥.

أي: تحت سقف تظلهم[١]، فعلى القراءة الأولى لنا أن نتخيل تلك الظلال الكثيرة الممتدة تحت الأشجار كثيفة الأوراق التي كلما داعبتها النسمات زادت الجو لطفاً وجمالاً، وعلى القراءة الثانية: يمكن أن نتصور جمال تلك الأسقف التي تظلهم وروعة ما حُملت عليه تلك الأسقف من الجدران والأعمدة وما شابه ذلك مما لا يعلمه إلا الله. لقد جمعت القراءتان ألواناً مما يتنعم به المؤمنون في الجنة، فمنهم من هو تحت الظلال، ومنهم من هو تحت الظلل، وجميعهم في نعيم مقيم.

ولتكتمل هذه الصورة الجميلة لأصحاب الجنة هم وأزواجهم تحت تلك الظلال أو الظلل يبين أنهم يكونون (على الأرائك متكئون) فعرفت ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ للدلالة على أنها أرائك معدة إعدادا خاصاً لأصحاب الجنة، فهي مهيأة بحيث تكون مكاناً عظيماً للراحة والرفاهية، بدليل وصف الجلسة عليها بالاتكاء، والمجيء بـ (متكئون) على زنة اسم الفاعل فيه دليل على مدى ما هم فيه من راحة ورفاهية ورغد ودوامهم على ذلك الحال.

وتحديد (فاكهة) دون غيرها من ألوان الطعام لتناسُب هذا الطعام مع تلك الحال التي هم فيها من الاتكاء على الأرائك ، فالفواكه يتسلى بأكلها المترفون، وأفاد تضعيف (يدعون) أنه يحقق لهم كل ما يتمنونه دون أي استثناء وفور تمنيهم له، وكل هذا أدخل في الإيناس والسرور والبهجة والاطمئنان.

ومثل هذه الصورة للاتكاء والتمتع بأكل الفاكهة وردت في سورة (الإنسان): ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ وقد جيء بقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾كناية عن أنهم في ظلال وفي جو لطيف، وأريد من قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أن أغصان الأشجار التي يستظلون تحتها قريبة منهم ومن ثم فثمارها قريبة المنال أيضاً قرباً ذاتياً فلا يُحتاج إلى من يذللها لهم مما يجعل النفس أكثر أنساً وسروراً.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ١/٤٥٤.

وصور أيضاً لباس المؤمنين، وصورت حليهم، وتجد التعبير عن هذا يأتي بالفعل المضارع (يحلـــون) و(يلبسون)، وذلك لغرض إفادة تجدد حدوث ذلك الفعل منهم، فهم في حلي متجددة، ولباس متجـــدد دائماً، وهوما يجعلهم أكثر أنساً وسعادة، فلا يدخل نفوسهم السأم والملل من دوامهم على لباس واحد أو حلي معينة. وقد وردت هذه الصورة في السياقات التي فيها ازدراء للمـــؤمنين في الـــدنيا كمـــا في (الكهف)، أو إيهام ازدراء للمؤمنين كما في (الحج) و(الدخان). ففي (الكهف) أريد إيناس مستضعفي المؤمنين الذين كان يتكبر عليهم كفار قريش ويمنعونهم من مجالسهم وينهون الرسول – عليـــه الصـــلاة والسلام – عن مجالستهم. وفي (الحج) أريد بيان كرامة المؤمنين، حيث ورد عـــن الكـــافر أنـــه ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٩] عجباً وتكبراً، فما كان له في الآخـــرة إلا أن ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩]. في (الدخان) نجد المتكـــبر الـــذي يُقـــال لـــه في الآخرة ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

ومسميات ملابس المؤمنين في الجنة هي من أنفس ما عرفه الناس في دنياهم، إنها من حرير (ســـندس وإستبرق)، إلا إنها تختلف عنها كماً وكيفاً ولهذا جيء بها نكرة، فهي على غير ما عهـــدوه في الـــدنيا، ومن ذلك ما ورد في (الإنسان)، فلعظم النعيم بهذا النوع من اللباس عُطـــف علـــى الجنـــة في قولـــه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ فجُعل جزاؤهم الجنة والحرير، وبهذا العطف أصبح الحريـــر كأنـــه جنس نعيم آخر مواز للجنة، وقد أشير سابقاً إلى سبب تخصيص الحرير هنا بالذكر.

وأساورهم لها أنواع عدة، فهي إما من الذهب أو اللؤلؤ أو الفضة، ففي (الكهف) ذُكر أنهـــا مـــن (ذهب)، فخص هذا المعدن النفيس بالذكر لما قد ذُكر سابقاً من أن السياق أريد منه إيناس مستضـــعفي المؤمنين، فإنهم إن كانوا حُرموا من مثل هذه النفائس في الدنيا فهي لهم يوم القيامة، إضافة إلى تناســـب التحلي بهذا المعدن الثمين مع الثياب التي باللون الأخضر لأنه ذكر في نفس الآية أن لباســـهم: (ثيـــاب

خضر) ولا يخفى التناسق بينهما، والعين تحب أن ترى الملابس الخضراء الفاخرة مع حلي الذهب الجميلة.

وفي (الحج) ذكر أن الأساور من (ذهب ولؤلؤاً)، وفي (لؤلؤاً) قراءتان: بالنصب وبالجر[1]. فبالنصب على أن التقدير: يحلون فيها أساور من ذهب ويحلون لؤلؤاً، ومن قرأ بالجر فعلى معنى: يحلون أساور من ذهب ومن لؤلؤ أو يحلون من أساور ومن لؤلؤ[2]، وتفيد هاتان القراءتان تنوع الحلي التي يتزينون بها ، فاللؤلؤ قد يكون أساور وقد يكون نوعا آخر من أنواع الحلي، أو قد يُراد أن الأساور قد تكون من ذهب خالص أو من لؤلؤ خالص، وقد تكون منهما معاً. وإنما أريد من هذا التنوع إيناس المؤمنين في مقابل ما ذكر من تنوع عذاب الكفار في النار، فلهم ثياب من نار ولهم مقامع من حديد والحميم يُصب من فوق رؤوسهم، ومما يؤكد هذا أنه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤] لم يُطنب في وصف نعيم الجنة و لم يفصل؛ لأنه لم يسبقه تفصيل لذكر العذاب.

أما الأساور التي من فضة فقد وردت في (الإنسان): ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾، وربما جُعلت الأساور هنا من فضة لكي تُريح عين الناظر في ذلك المجلس الذي وُصف في السورة وما يطاف به على الجالسين من آنية الفضة والأكواب الزجاجية، فتآلف الألوان وتقاربها يعطي راحة أكثر للعين ويضفي جمالاً رائقاً تشعر به النفس.

وحيث إن لكل آية أو آيات سياقا خاصا، فمن ثم لا بد من وجود خصوصية لكلٍّ.

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر : ٢/ ٣٦٦.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٤٠، ٣٤١.

فنجده في (النساء) أكد الوعد للمؤمنين بدخول الجنة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ بإيراد (السين)، كما أكد هناك للكافرين أنهم سوف يصلون النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾، فأورد (سوف) لتأكيد تهديدهم ووعيدهم[1]، كما استعملت (السين) في حق المؤمنين لأنها أكثر إيناساً لهم ففيها الدلالة على قربهم من النعيم وقرب النعيم منهم، بينما جاء بـ (سوف) في حق الكافرين لإمهالهم رحمة منه تعالى.

وفي سورة (الحج) أتى بالفعل المضارع (يُدخل) المسند إلى (الله) تبارك وتعالى في بشارة المؤمنين بدخول الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ ليتناسب مع ما ورد قبل في السورة نفسها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وليقابل بناء الفعل للمفعول في شأن الكافرين تحقيراً للكافرين هنا وتكريماً للمؤمنين هناك: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ [الحج:١٩، ٢٠] ، ولكونه ذكر ثياب الذين كفروا: ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ ذكر لباس المؤمنين: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾؛ لبيان البون الشاسع بين الحرير ذي الملمس الناعم والمنظر الأخاذ وبين الثياب التي من النار، ليعلم المؤمن مدى كرامته عند ربه فيكون أكثر أنساً وسعادة.

ويُبشر المؤمنون في (الدخان) بأنهم لا يذوقون الموت في الجنة أبداً: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، بينما الأثيم في النار يُبشر بأنه: ﴿صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨] ويقال له: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، فهو يذوق الموت في كل لحظة لكنه لا يموت في النار ولا يحيا.

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٥٢/٢، ١٥٣.

أما الآيات التي في سياقها ما يدل على وحشة في ذوات المؤمنين أنفسهم، فقد ورد فيها أيضاً ما تختص به.

ففي (الكهف) حيث المؤمنون المستضعفون لا يجدون الاستقرار والأمان، بل يواجهون بالطرد والإبعاد والإهانة يأتي قوله:﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾، ولزيادة إكرامهم وإيناسهم جعلت الأنهار تجري من تحتهم: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بخلاف ما ورد في آيتي (النساء) و(الحج)؛ وذلك لأن المراد هو تمتعهم بمنظر الأنهار الجارية وهم مستقرون في أماكنهم فلا يكونون في حاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر للتمتع بمثل هذا المنظر، وهذا ما يتناسب مع الثبات والاستقرار المفهومين من (عدن) ومن هنا يكون بين (عدن) و(تجري) طباق خفي. وجاء مثل هذا في (طه): ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [طه: ٧٦]، وهو في سياق الحديث عن إيمان سحرة فرعون عند رؤية معجزة موسى – عليه السلام– وتهديد فرعون لهم بقتلهم، فكان مجيء هذه اللفظة (عدن) في هذا السياق لتبشيرهم بأنه إن لم يبق لهم مستقر في الدنيا ففي الجنات المستقر. وكذلك ورد في سورة (الصف) قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ [الصف:١٢] لأنه جاء في سياق الحث على التضحية بالنفس في سبيل الله تعالى.

وجاء في سياق آية (العنكبوت) حث المؤمنين الذين لا يستطيعون إقامة الدين بشكله القويم في الأرض التي هم فيها على أن يهاجروا منها إلى أرض أخرى يكونون فيها قادرين على إقامة الدين: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾، فوُعد المؤمنون هنا بغرف تجري من تحتها الأنهار في الجنة، فلم يُكتف بوعدهم بدخول الجنة، بل بُين ما أُعد لهم فيها أنه سيبوئهم غرفا

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ وقُرأ هذا الفعل أيضاً (لنثوينهم)[١] و(الثواء الإقامة مع الاستقرار) ، و(بوأت لـه مكاناً سويته)[٢]، ومن هنا يلاحظ تكامل القراءتين، فقد سُويت لهم الغرف في الجنة من أجل أن يقيموا فيها ويستقروا.

وهي (غرف) كثيرة لكل مؤمن معدة إعداداً خاصاً لهم، وليس هذا وحسب، بل إنه خص جري الأنهار من تحتها فكأنها لا تجري في أي مكان آخر غير تحت غرفهم، وذلك لتعظيم ما أُعد لهم من جزاء، لمرارة مفارقة أوطانهم وما يتبع ذلك من المتاعب والمصاعب.

ونجد التعبير بـ (غرف) في سورة (الزمر) بقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر:٢٠] ، ويأتي هذا ليقابل ما وُعد به المشركون في النار: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾[الزمر:١٦].

ويلاحظ أن ما ورد في سورة (الإنسان) ركز على الشراب ووصف مجلسه وآنيته ومن يقومون بالخدمة فيه. وذلك لأنه جاء في سياق الآيات إطعام المؤمنين الطعام في الدنيا لغيرهم من المحتاجين مع حبهم له واشتهائهم إياه رجاء ما عند الله - تبارك وتعالى- واستعداداً لليوم الآخر الذي يخافون ما يقع فيه من شر، فكان جزاؤهم على ذلك الإطعام إطعام في الجنة: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾، وكان لهم هناك أيضاً فضل من الله تبارك تعالى وهو الشراب، فأسهب في وصفه ووصف كل ما يتعلق به فهو فضل من الله - تبارك وتعالى - فذلك الشراب مزاجه الكافور أو الزنجبيل:﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ و﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ وهو شراب طهور من عند

---

(١) ينظر: حجة القراءات : ١/ ٥٥٤ ، لـعبد الرحمن بن محمد زنجلة أبو زرعة ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) المفردات: (ثوى) و(بوأ).

الله – عز وجل – ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وعُبر عن هذا المعنى في سورة (الطور) بقوله: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣] ، وفي (الصافات): ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات:٤٥-٤٧].

والآنية من الفضة، والأكواب من الزجاج: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِءَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور:﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، ووصفهم في (الطور) بأنهم كاللؤلؤ المكنون: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤]، فهم كاللؤلؤ المكنون باعتبار احتفاظه ببريقه ولمعانه، وهم كاللؤلؤ المنثور باعتبار انتشارهم في المجلس وكثرتهم فيه لتلبية ما يحتاج إليه الجالسون.

وجلستهم في حلق ، وهذا ما يؤخذ من ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ و﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، فالطواف يكون مع الاستدارة. وخصت هذه الجلسة بالذات لما فيها من مزيد الأنس، فلا يكون أحد في المجلس مدير ظهره للآخر، وبهذا المعنى ما ورد في (الصافات): ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الصافات:٤٤].

ويلاحظ أن ما ذكر في سورة (الإنسان) من وصف للشراب ومجلسه وآنيته وخدمه هو الأكثر إيناساً مما ورد في (الصافات) و(الطور).

فقد ذُكر في (الإنسان) أن الشراب مزاجه الكافور والزنجبيل وهذا لضمان طيب رائحته، بينما خلت (الصافات والطور) من هذا. وهو شراب طهور سقاهم إياه الله – تبارك وتعالى– ففي التعبير بـ ﴿طَهُورًا﴾ دلالة على عموم خلوه من كل خبيث، بينما ذُكر في (الصافات) نفي الغول عنه والترف،

وفي (الطور) نفي اللغو عنه والتأثيم، وكلها من الآثار السيئة التي يتركها شراب الدنيا، ومعلوم أن التعبير بـــ ﴿طَهُورًا﴾ شمل ذلك وأكثر، فضلا عن أنه شراب سقاهم إياه ربهم تبارك وتعالى.

ووصفت الجلسة في هذا المجلس في (الإنسان) بأنها حلق مستديرة، وهذا ما يؤخـــذ مـــن التعـــبير بالطواف، وقد ورد مثل هذا في (الطور)، إلا إن ما في (الإنسان) تفوق عليه بذكر صفة الجلوس وهـــي الاتكاء بما ذُكر إن هذا الاتكاء هو على الأرائك في المكان الذي يمتاز بلطافة جـــوه، بينمـــا ذُكـــر في (الصافات) أنه على سرر متقابلين دون ذكر وصف الجلسة من الاتكاء أو غيره.

كما حُددت الآنية في (الصافات والطور) بأنها (كأس)، بينما في (الإنسان) تنوعت: فهي آنية مـــن فضة وأكواب من قوارير وكأس مزاجها الزنجبيل.

وخدمهم في ذلك المجلس وصفوا في (الإنسان) بالخلود، بينما لم يأت وصفهم بهذا في (الطور)، بل وصفوا فقط بأنهم كاللؤلؤ المكنون، بينما وصفوا في (الإنسان) بأنهم كاللؤلؤ المنثور، ولا شك أن رؤية اللؤلؤ منتشراً في كل مكان أحب للعين وآنس للنفس، حيث يكون استمتاعهم به أكبر.

ولقد كان هذا التفوق لما في (الإنسان) لأنه جاء في سياق ذكر ما أعد للأبرار في الآخرة، والأبـــرار هم أعلى درجة من غيرهم، من المخلصين المذكورين في (الصافات) ومن المتقين المذكورين في (الطور)، قال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين:١٨].

وتختم بعض الآيات بما يفيد المدح والثناء، مدح النعيم أو الثناء على المنعمين، وذلك في مقابـــل ذم الكفر والكافرين، كما ورد في (الكهف): ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، بينما قيـــل عـــن عـــذاب الكفار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]. وفي العنكبوت جاء الختام: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾، في حين قيل في حق الكافرين: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وبعد هذا العرض السريع يتضح كم كانت الآيات بما حوته من أساليب بلاغية وصور فنية قادرة على بث الأنس في نفس المتلقي وتبشيره بما أعد له من نعيم أبدي، ليحيا كل لحظة في الدنيا وهو في شوق إليه، فكلما وقعت عينه على نعمة أو لمست حواسه منة تذكر أن ما له في الآخرة أعظم وأعظم فتأنس نفسه وتسعد روحه.

المبحث الثاني:

أسلوب القرآن الكريم في عرض النعيم المعنوي للمؤمنين في الجنة:

إنه بتتبع ما ورد في القرآن الكريم من إيناس للمؤمنين في الجنة روحياً ومعنوياً، نجد أن هذا الأمر العظيم يتحقق لهم حتى قبل دخولهم الجنة، فلهم التكريم والعناية الخاصة وحفاوة الاستقبال وابتداؤهم بالسلام، وهو ما أتى تصويره في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣]. لقد عُبر بالاسم الموصول وصلته للدلالة على قبول الله تعالى ما كان منهم في الدنيا وهو (التقوى)، وأنها سبب في هذه الكرامة التي هم فيها، وفي إضافة (رب) إلى الضمير العائد عليهم دلالة أخرى على رضا الله- تبارك وتعالى- عنهم حتى إنه جعل اسمه الجليل مضافاً إليهم. وعرفت (الجنة) لأنها هي الجنة التي عرفوها من خلال وعدهم بها عندما كانوا في الدنيا. وفي تقديم ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ دفع لتوهم أن يكون ذلك السوق إلى أي مكان آخر غير الجنة. أما التعبير بـ ﴿زُمَرًا﴾ ففيه إيناس للمؤمنين من حيث إن المرء عندما يكون سعيداً يحب أن يكون وسط أحبابه لتكتمل سعادته بالمشاركة. وفي قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ تصوير بديع لهيئة المتقين حين وصولهم إلى أبواب الجنة واستقبال الملائكة لهم بالتسليم والكلام الطيب، وفي الوصل بالواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ

أَبْوَٰبُهَا﴾ دلالة على تكريمهم، فالجنة معدة لهم قبل أن يصلوا إليها، وهذا أعظم في الإيناس من حيث شعور المؤمن برفيع مكانته وعلو منزلته عند ربه.

ويلاحظ أن أول ما يُقال لهم من قبل الملائكة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، إنهم يبدؤهم بالسلام لإشعارهم بأن السلام سيكون لهم في شأنهم كله داخل الجنة.. إنه السلام بمعناه الواسع يتحقق للمؤمنين في الجنة، حتى إن الجنة ذاتها سميت بـ (دار السلام) كما ورد في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام:١٢٧].

وفي الجنة يسلم الله – تبارك وتعالى – عليهم: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] ، وتسلم أيضاً عليهم الملائكة في كل حين: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤] ، وتحيتهم فيما بينهم أيضاً سلام:﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ [يونس:١٠].

ويلاحظ أن كلمة (سلام) جاءت نكرة في جميع المواضع عدا موضع واحد وهو ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وذلك لأن (الدار) هي الجنة و(السلام) اسم من أسماء الله تبارك وتعالى[1]. وقد اختير إضافة الجنة إلى هذا الاسم بالذات من بين أسماء الله الحسنى (ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان)[2]، فالسلام من السلامة وهي: (التعري من الآفات الظاهرة والباطنة)[3].

أما التنكير في بقية المواضع فالغرض منه الشمولية والاستيعاب، فيندرج تحت كلمة (سلام) كل معنى يمكن أن يدخل في حيزها ليحقق السلام لهم في ذواتهم وفي كل ما حولهم ومن كل من حولهم.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٤٢/٥.

(٢) تفسير الشعراوي: ٣٩٣٩/٧.

(٣) المفردات: (سلم).

وكل سلام من الله – تبارك وتعالى– يأتي على التنكير، وذلك لعظمته فهو من عند الله– عز وجل– فلا يُدرك كنهه.

وعندما يرى المؤمنون ما يرون من تلك الكرامة وذلك التكريم يشرعون في حمد الله – تعالى – والثناء عليه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر:٧٤]. وإذا انتقلنا معهم إلى داخل الجنة لنرصد حالهم فيها بعد أن نجاهم الله – تبارك وتعالى – وأخذهم في التنعم بما فيها، نجد ألسنتهم أيضاً تلهج بحمد الله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] ، بل ويختمون كل حديث لهم بحمد الله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وهذا الحمد إن دل على شيء فإنما يدل على استشعار منهم عميق لحجم ما هم فيه من النعيم!! كيف لا؟! إن الفوز بالجنة والنجاة من النار هو النعيم الحقيقي.

وخُص (الحمد) دون (الشكر) لما في الحمد من اختصاص بالله – عز وجل – لأن كل إحسان هو منه في الفعل أو التسبب، والحمد لما يقابل النعمة ولما ليس فيه نعمة فهو أعلى مراتب الشكر[1].

ولأجل أن يكمُل إيناس المؤمنين في الجنة فإن القرآن يبشرهم بأنهم لن يدخلوا الجنة فرادى، بل ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣]، حتى الذرية التي في درجات أدنى من الآباء تلحق بالآباء إكراما لهؤلاء الآباء المؤمنين وإيناسا لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١].

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: ٣٥.

وأول ما يلاحظ في الآيتين هو الإضافة، فلقد أضيفت الأسماء إلى الضمير العائد على المؤمنين الصالحين، وذلك للإيحاء بأنهم داخلون الجنة بمعية من يحبون من الأقارب في الآية الأولى، وللتدليل على كرامتهم عند ربهم بإلحاق ذريتهم بهم في الدرجات الأعلى في الآية الثانية.

كما يلاحظ أنه جيء بـ (ذريات) جمع في الآية الأولى، بينما جاءت في الآية الثانية على الإفراد (ذرية)؛ وذلك للإيحاء بكثرة الداخلين إلى الجنة من الذريات مع آبائهم، وفي هذا إيناس أكثر، بينما من تأخروا عنهم في المترلة هم قليل.

ثم يزيدهم تعالى من فضله فيجمعهم بإخوانهم من المؤمنين ليزيدهم أنساً وسروراً: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]. إن التعبير بـ (الترع) فيه إيحاء بقوة المتروع وإيحاء بالمبالغة في الإزالة والاستئصال بحيث لا يبقى أي أثر للغل. والتعبير بـ ﴿صُدُورِهِم﴾ مجاز مرسل لعلاقة البعض من الكل، فقد أطلق الكل (الصدور) وأراد الجزء (القلوب)، وهذا لتحسين الظن في المؤمنين، فالغل لم يدخل قلوبهم بل هو في صدورهم فقط فهم لا يحملون الضغائن في قلوبهم على إخوانهم. وتنكير ﴿غِل﴾ أفاد العموم والشمول، فانتفى وجود الغل في صدورهم قليله وكثيره. و﴿إِخْوَانًا﴾ منصوبة على أنها حال، فهذه هي حال المؤمنين مع بعضهم في الجنة، إنه التآخي الحقيقي. وتقديم الجار والمجرور﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ للتأكيد على ضمان راحتهم. وأخبر عن تقابلهم في جلستهم لما في هذه الجلسة من الأنس والابتهاج.

وقد يظن المؤمن في الجنة أنه لا نعيم بعد ما هو فيه من النعيم، لكن الحقيقة أن الله تبارك وتعالى يعلمهم بأنه ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، و﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]،

والزيادة والمزيد رؤية وجه الله تعالى[1] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] ولم لا تملأ وجوههم النضارة وهي إلى ربها ناظرة..؟! إنه الأنس الحقيقي والسعادة الحقة.

لقد اكتملت للمؤمنين كل جوانب النعيم الروحي في الجنة، وبشروا به بأساليب بليغة فيها الكلمات الموحية والعبارات المؤثرة والطرائق المتنوعة.

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٤٢٩/١١.

الخاتمة

أ- أهم النتائج:

١- إن أسلوب الإيناس في القرآن الكريم يختلف من موضع إلى آخر، وهذا مراعاة للأمرين التاليين:

أ- مكانة المخاطب: فالأنبياء أعظم الخلق إيناساً ، وأعظمهم النبي ﷺ، فلقد استخدم في إيناسه أقوى المؤكدات وهو القسم الذي ورد في سورة (الضحى).

ب- درجة الوحشة: مثل الوحشة التي تكون في حال الحرب والقتل والجرح ، والوحشة عند عصيان أمر الله تعالى ، كذلك وحشة المستضعف المظلوم تزيد على وحشة الآمن المطمئن... إلخ.

٢- إن بعض القصص التي يتكرر ورودها في القرآن الكريم تختلف فيها درجة الإيناس من سورة إلى أخرى، بل قد ترد في بعض السور ولا يرد فيها أي أسلوب يكون غرضه الإيناس، كما هو الحال في قصة آدم - عليه السلام - عند توبة الله عليه من الذنب، فقد وردت القصة في (الأعراف) و لم يرد فيها أي أسلوب للإيناس بخلاف ورودها في سورتي (البقرة) و(طه).

وكذلك الشأن في قصة موسى - عليه السلام- مع فرعون، حيث جاء أعظم إيناس له في سورة (طه) بينما لم يكن الأمر كذلك في (الشعراء) و(النمل) و (القصص).

٣- إنه في القصص ذاتها يختلف التعبير من موضع إلى آخر، وذلك تناسباً مع سياق الآيات وغرضها. فمثلاً اختلاف الإخبار عن إعادة موسى - عليه السلام- إلى أمه في سورتي (طه) و(القصص)، ففي (طه) جاء قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ [طه:٤٠] ، وفي (القصص): ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: ١٣]؛ لأن في (طه) السياق هو في إيناس موسى ومقام الامتنان عليه، فكان التعبير بـ (الرجوع) أبلغ في إيناسه لأنه يفيد الامتنان عليه برجوعه إلى بيت أمه آمناً، لأن الرجوع يفيد العود إلى حيث كانت البداية. أما التعبير بالرد فهو أبلغ في مقام إيناس أم موسى التي كانت في حال عظيمة

من الهم والحزن والخوف على وليدها، لما في الرد من إفادة معنى رد ابنها إليها بذاته كي تقر عينـــها، إذ إن الرد هو صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله.

٤-يُنادى الأنبياء بأسمائهم كـــ (يا إبراهيم) و(يا موسى)؛ لأنه الأدخل في إيناسهم. وقد عُوملـــت (مريم) معاملة الأنبياء في ندائها باسمها إيناسا لها, ونودي النبي –عليه الصلاة والسلام – بالنبوة والرسالة تكريما له وتعظيما.

٥- غالباً ما تختم الآيات التي يرد فيها أسلوب أو أكثر من الأساليب التي غرضها الإيناس، بأسمـــاء الله الحسنى الدالة على مضمون الإيناس، كـــ (التواب والرحيم) في الآيات التي ذكر فيها توبة الله علـــى آدم عليه السلام. و(غفور وحليم) في الآية التي جاء فيها عفو الله- عز وجل- عمن تولى يـــوم التقـــى الجمعان في غزوة أحد.

٦- تآزر القراءات مع الأساليب البلاغية المختلفة في إدخال مزيد من الأنس على المخاطب، كمـــا في قراءة (روح) بفتح الراء وبضمها في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. وقراءة (ظلال) و(ظلل) في قوله تعـــالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

٧- تصوير حال المستوحشين وخاصة ما يكون في خفايا نفوسهم مما لا يعلمه إلا الله- تبارك وتعالى- في عبارات موجزة دقيقة، كما هو في وصف حال يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٧]. وحال الصحابة حينما أحاط بهم الأعداء في غزوة الخندق: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ

ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠، ١١]. وحال الثلاثة الذين خلفوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨].

٨- الإيناس يكون بأمور معنوية كالمغفرة والتوبة، وبأمور مادية كتصوير الجنة ونعيمها أو الإخبار عن الأمور المادية التي آنس الله تعالى بها عباده كنبيي الله (إبراهيم ويونس). والأمور المادية يغلب عليها الأسلوب الخبري الذي يكثر فيه استعمال الأفعال الماضية وتأتي فيه الكلمات موحية والعبارات مصورة تصويراً يجعل من المتلقي كأنه يحيا الخبر.

٩- يأتي الحذف حيث يكون هو الأنسب في سياق الإيناس، كحذف جواب (لما) من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات:١٠٣- ١٠٥]، وحذف المفعول كما في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣].

١٠- من الصيغ التي تكثر في أسلوب الإيناس صيغة (اسم الفاعل) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٥]، وقوله: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٩]، وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٨]؛ وذلك لما تفيده هذه الصيغة من تثبيت هذه المعاني العظيمة للمخاطب.

١١- يكثر ورود أسلوب القصر بصيغتين:

- تعريف الطرفين وتأكيده بضمير الفصل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٦]، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢].

- تقديم المتعلق ، كتقديم (فيها) في ذكر نعيم الجنة: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء:٥٧]، و﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، و﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ [يس: ٥٧].

فهذان الأسلوبان أدخل في الإيناس.

١٢- كذلك يكثر أسلوب الأمر في أحوال اليوم الآخر، والمراد منه الإباحة والبشارة، كأمر المؤمنين بدخول الجنة ساعة الاحتضار: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، و﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

١٣- معظم نعيم الجنة جاء منكراً وهذا للاختلاف في النوع والكم ، فقد ذكرت أنواع نعيم الجنة بأسماء يعرفها المتلقي، لكن تلك النعم تختلف في كنهها عما هو موجود في الدنيا كماً وكيفاً، فهو كم غير متناه وكيف غير معهود.

ب- التوصيات:

١- العناية بأساليب القرآن الكريم المتنوعة، فهي لم تنل حظها من الدرس البلاغي. ولا أجدر من أساليب القرآن الكريم للوقوف أمامها وتجليتها والتعرف على بدائعها البلاغية وأسرارها الخفية.

٢- المقارنة بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من الأساليب البشرية، كأساليب أقوال النبي ﷺ وأساليب الأدباء شعراً ونثراً قديماً وحديثاً؛ للخروج بالخصائص التي يتميز بها أسلوب القرآن الكريم عن غيره.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
البقرة	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ...﴾	٣٤-٣٧	١٨-٢٣
	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ...﴾	٢١٤	١٢٩-١٨٠
	﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ...﴾	٢٣٢	١٢٨-١٩٧
آل عمران	﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ...﴾	٣٥-٤٩	٧٦-٨٣
	﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا... ﴾	٨٦-٨٩	١٨٢-١٩٧
	﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ.....﴾	١٥٢	١٢٩-١٨٠
	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ....﴾.	١٥٥	١٢٩-١٨٠
النساء	﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا...﴾	٦	٦-١٤
	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا...﴾	٥٦، ٥٧	٢١٩-٢٣٤
الأنعام	﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾	٣٢	٢٣٤-٢٣٨
	﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾	١٢٧	٢٣٤-٢٣٨
الأعراف	﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ...﴾	٨	٢١٢-٢١٧
	﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ.....﴾	١٩-٢٥	١٨-٢٣
	﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا...﴾	٣٧- ٤٩	٢٣٤-٢٣٨

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
التوبة	﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ....﴾	١٠٠	١٢٩-١٨٠
	﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ....﴾	١٠٢	١٢٩-١٨٠
	﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ.....﴾	١١٧-١١٩	١٢٩-١٨٠
يونس	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ..﴾	٩-١٠	٢٣٤-٢٣٨
	﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ....﴾	٢٦	٢٣٤-٢٣٨
	﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ...﴾	١٠٩	٨٧-١١٦
يوسف	﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ...﴾	٨	٤٥
	﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ...﴾	١٥	٣٧-٤٧
	﴿فَصَبۡرٌ جَمِيلٌ...﴾	١٨	٣٩
	﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ...﴾	٨٤-١٠٠	٣٧-٤٧
	﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٌ...﴾	١٠٩	٨٧-١١٦
الرعد	﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا...﴾	٢٣-٢٤	٢٣٤-٢٣٨
الحجر	﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِى صُدُورِهِم...﴾	٤٧	٢٣٤-٢٣٨
النحل	﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا...﴾	٣٠	٢٠١-٢٠٥
	﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ..... ﴾	٣٢	٢٠١-٢٠٥

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
	﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ...﴾	١٠٦	١٨٢-١٩٧
الإسراء	﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾	٧١	٢١٢-٢١٧
الكهف	﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا...﴾	٢٩	٢١٩-٢٣٤
	﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ....﴾	٣١	٢١٩-٢٣٤
مريم	﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ.....﴾	١٦-٢٦	٧٦-٨٣
طه	﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ...﴾	٩-٤٦	٥٤-٧٤
	﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي...﴾	٧٦	٢١٩-٢٣٤
	﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ...﴾	١١٥-١٢٢	١٨-٢٣
الأنبياء	﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ...﴾	٥١-٧٠	٢٥-٣٥
	﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ..﴾	٨٧-٨٨	٤٩-٥٢
	﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا...﴾	٩١	٧٦-٨٣
الحج	﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ... ﴾	٩	٢١٩-٢٣٤
	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ....﴾	١٤	٢١٩-٢٣٤
	﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ... ﴾	١٩	٢١٩-٢٣٤
	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ....﴾	٢٣	٢١٩-٢٣٤

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
	﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ...﴾	٥٩	٢١٩- ٢٣٤
المؤمنون	﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ...﴾	١٠٢	٢١٢- ٢١٧
النور	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ.....﴾	١١-٢٠	١١٨- ١٢٧
	﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ...﴾	٢٧	٦- ١٤
الشعراء	﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ...﴾	١٠-١٥	٥٤- ٧٤
النمل	﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ...﴾	٧-١٢	٥٤- ٧٤
القصص	﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ...﴾	٧-٣٥	٥٤- ٧٤
	﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾	٧٧	٨٧- ١١٦
	﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ...﴾	٨٥	٨٧- ١١٦
العنكبوت	﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ...﴾	٥٥	٢١٩- ٢٣٤
	﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾	٥٨	٢١٩- ٢٣٤
الأحزاب	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ...﴾	٩-١١	١٢٩- ١٨٠
	﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ... ﴾	١٢	١٢٩- ١٨٠
	﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ... ﴾	٢٢	١٢٩- ١٨٠
	﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ.... ﴾	٢٥	١٢٩- ١٨٠

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
	﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ...﴾	٢٩	٨٧- ١١٦
	﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟... ﴾	٥٣	٦- ١٤
يس	﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ...﴾	٥٥-٥٨	٢١٩- ٢٣٤
الصافات	﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ...﴾	٤٠- ٤٩	٢١٩- ٢٣٤
	﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى ...﴾	٩٩- ١١٣	٢٥- ٣٥
	﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾	١٣٩-١٤٨	٤٩- ٥٢
الزمر	﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ... ﴾	١٦	٢١٩- ٢٣٤
	﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ...﴾	٢٠	٢١٩- ٢٣٤
	﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ...﴾	٧٣-٧٤	٢٣٤- ٢٣٨
فصلت	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ... ﴾	٣٠-٣٢	٢٠١- ٢٠٥
الدخان	﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ... ﴾	٤٨-٤٩	٢١٩- ٢٣٤
	﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ....﴾	٥١-٥٧	٢١٩- ٢٣٤
الجاثية	﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً...﴾	٢٨	٢٠٧- ٢١٠
	﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ...﴾	٣٠	٢٠٧- ٢١٠

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
محمد	﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ...﴾	١٣	٨٧- ١١٦
الفتح	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا...﴾	١-٢٩	١٢٩- ١٨٠
ق	﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا...﴾	٣٥	٢٣٤- ٢٣٨
الطور	﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ...﴾	١٧-٢٨	٢١٩- ٢٣٤
	﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟...﴾	٤٥	٢١٩- ٢٣٤
	﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾	٤٨-٤٩	٨٧- ١١٦
الواقعة	﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ...﴾	٨٨-٩١	٢٠١- ٢٠٥
المجادلة	﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ...﴾	١-٤	١٨٢- ١٩٧
الممتحنة	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ...﴾	١٠	١٨٢- ١٩٧
	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ... ﴾	١٢	١٨٢- ١٩٧
الصف	﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ...﴾	١٢	٢١٩- ٢٣٤
التحريم	﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ... ﴾	١٢	٧٦- ٨٣
القلم	﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ... ﴾	٤٨-٥٠	٤٩- ٥٢
الحاقة	﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾	١٩-٢٤	٢١٢- ٢١٧
المزمل	﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾	١٠	٨٧- ١١٦

السورة	الآيـــات	رقمها	رقم الصفحة
القيامة	﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ...﴾	٢٢-٢٣	٢٣٤- ٢٣٨
الإنسان	﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ...﴾	٥-٢٢	٢١٩- ٢٣٤
عبس	﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ...﴾	٣٣-٣٩	٢٠٧- ٢١٠
المطففين	﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ... ﴾	١٨	٢١٩- ٢٣٤
الانشقاق	﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾	٧-٩	٢١٢- ٢١٧
الفجر	﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ...﴾	٢٧-٢٨	٢٠١- ٢٠٥
الضحى	﴿وَٱلضُّحَىٰ....﴾	١-١١	٨٧- ١١٦
الشرح	﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ...﴾	١- ٨	٨٧- ١١٦
القارعة	﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ...﴾	٦-٧	٢١٢- ٢١٧

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، للقاضي/ أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، وضع حواشيه: عبداللطيف عبدالرحمن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

- أساس البلاغة، للإمام العلامة/ جارالله أبي القاسم محمود الزمخشري، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

- الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، للأستاذ/ أحمد الشايب، ط٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، لـ د/ عائشة بنت عبدالرحمن، ط٢، دار المعارف، القاهرة.

- البحر المحيط، لمحمود بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ/ عادل عبدالموجود، والشيخ/ علي معوض، وشارك في تحقيقه: د/ زكريا النوني، ود/ أحمد الجمل، وقرضه: أ. د/عبدالحي الفرماوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

- البداية والنهاية، لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، اعتنى به: د/ عبدالحميد هنداوي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

- البرهان في علوم القرآن، للإمام/ بدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

- تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل الجوهري، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- التحرير والتنوير، لـ أ/ محمد الطاهر بن عاشور، ط١، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

- التركيب اللغوي للأدب: بحث في فلسفة اللغة والاستطباق، للدكتور/ لطفي عبدالبديع، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

- التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- التعبير الفني في القرآن الكريم، لـ د/ بكري شيخ أمين، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

- التفسير البياني للقرآن الكريم ، لـ د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، ط٧ ، دار المعارف، كورنيش النيل ، القاهرة.

- تفسير الشعراوي، خواطر فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩١م.

- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ / أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، ط٣، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- التفسير الكبير، للإمام/ الفخر الرازي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر بن جرير الطبري، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.